مجلة فصلية يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

السنة الثانية - العدد الخامس - مارس ٢٠٢١م

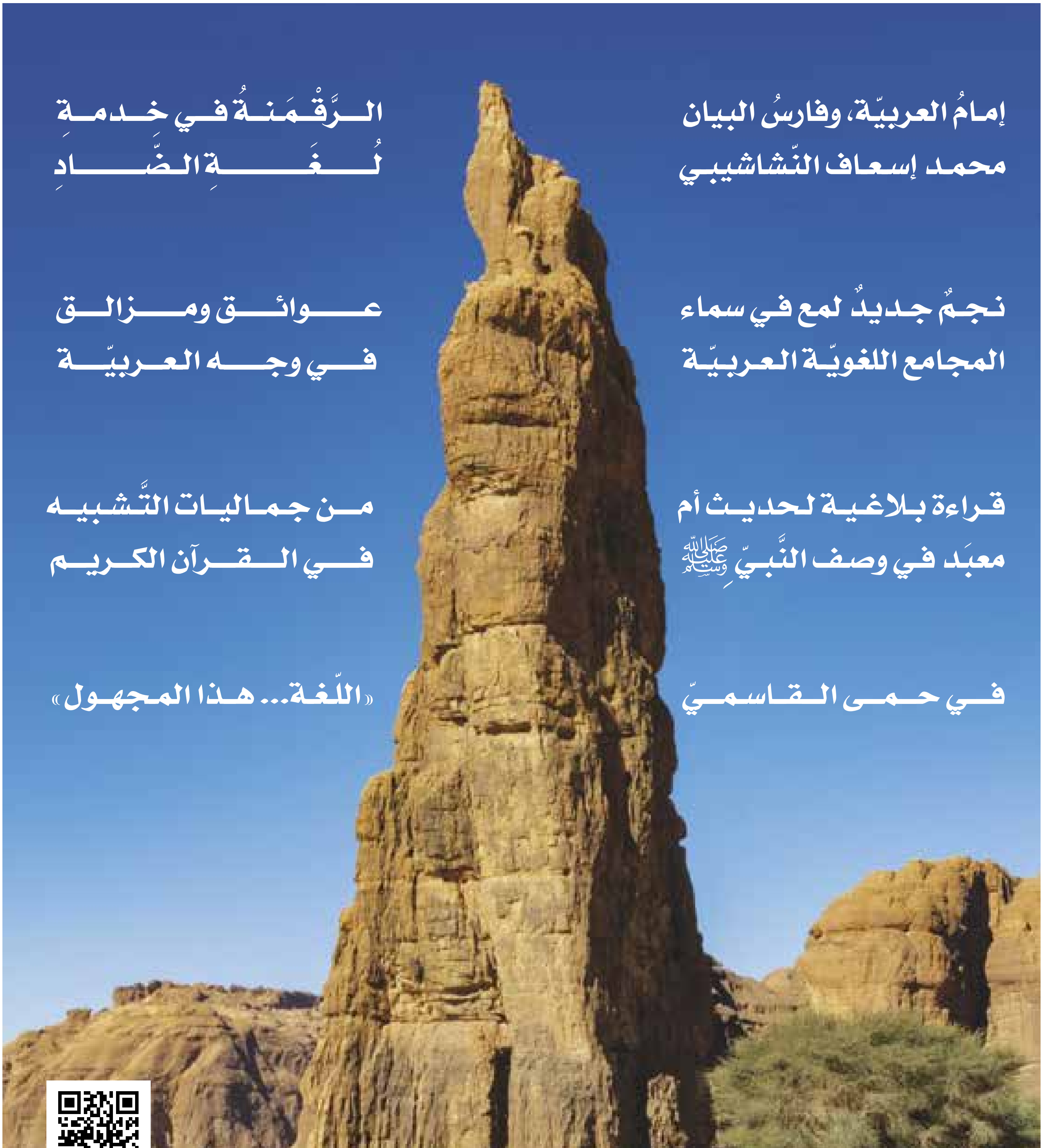

إمامُ العربيّة، وفارسُ البيان محمد إسعاف النّشاشيبي

نجمٌ جديدٌ لمع في سماء المجامع اللغويّة العربيّة

قراءة بلاغية لحديث أم معبَد في وصف النَّبيّ ﷺ

في حمى القاسميّ

الرَّقْمَنةُ في خدمة لُغةِ الضَّادِ

عوائق ومزالق في وجه العربيّة

من جماليات التَّشبيه في القرآن الكريم

«اللّغة... هذا المجهول»

نسخة بي دي إف (PDF)

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

الترشّح لـ :

جائزة الألكسو.الشارقة للدراسات اللغوية والمعجمية

الدّورة الرابعة 2020-2021

وهبت نفسي للغة العربية

صاحب السموّ الشيخ الدكتور

سلطان بن محمد القاسمي

عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة - الرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

مجلة أدبيّة لغوية تصدر عن

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السنة الثانية - العدد الخامس - مارس ٢٠٢١ م

رئيس التحرير

د. امحمد صافي المستغانمي

المشرف العام

د. مصطفى رابح بن عاشور

أعضاء التحرير

أ.د. بن عيسى باطاهر

د. فكري النجار

أ. عبد الستار الشيخ

منسق العلاقات العامة

أ. ماجد الهولي

التصميم والإخراج

محمد خيَّال

المراسلات

هاتف : 400 60 51 6 971+

فاكس : 410 60 51 6 971+

ص.ب : الشارقة ، 1973

البريد الإلكتروني : info@alashj.ae

الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae

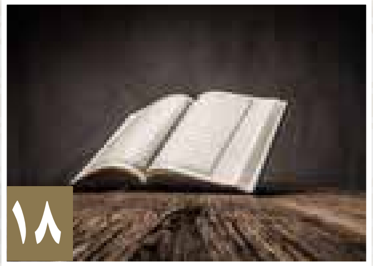

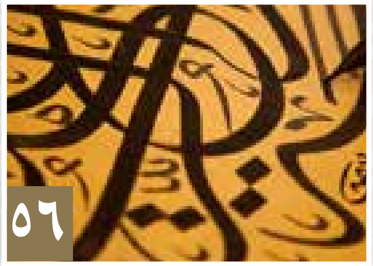

المحتويات

افتتاحية العدد	٨
جهود المجمع في تعليم العربية	١٤
نجمٌ جديدٌ لمع في سماء المجامع اللغويّة العربيّة	١٦
جولة بيانيّة مع آيات التّحدّي بالقرآن	٢٠
أسلوب الحذف بلاغيًا في القرآن الكريم	٢٤
قراءة بلاغية لحديث أم معبد في وصف النَّبيِّ ﷺ	٣٠
لغتي العربيّة بين الضّبط والإثراء	٣٤
في الموازنة بين المعجم الكبير والمعجم التّاريخيّ	٣٦
مكانة شرح الأعْلَم لشعر السّتّة عند الشّناقطة	٤٦
أثر السياق النحوي في تغيير وتحديد دلالة المفردات	٥٢
بعض خصائص العربيّة ومميّزاتها	٥٨
طَيْبة الطَّيِّبة المدينة المنوَّرة	٦٤
جنَّة الضَّاد	٦٦
في حمى القاسميّ	٦٨
وجعل بينهما مودّةً ورَحمة	٧٠

المحتويات

الرَّقْمَنَةُ في خدمة لُغَة الضَّاد	٧٢
معلقة النفحة المحمدية	٧٨
عوائق ومزالق في وجه العربيّة	٨٤
أيا كوفيدُ لا تَعْجَلْ عَلَيْنا	٨٨
المالقي ومنهجه في التّفكير النّحوي	٩٠
من جماليات التّشبيه في القرآن الكريم	٩٦
شَارِقَةُ الْخَيْرَاتِ ضَاءَتْ فَنَوَّرَتْ	١٠٠
مِنَ اللُّغَة إلى الاصْطلاح	١٠٢
«اللغة... هذا المجهول»	١٠٦
مسجد الشارقة الكبير	١١٠
مدح ولكن مشترك لفظي	١١٢
رِقَّـةٌ تَـتْـرَى	١١٥
الكتابات والمعاجم العبريّة - العربيّة الوسيطة	١١٦
نفي الفعل الماضي	١٢٢
الجسد في اللغة	١٢٨

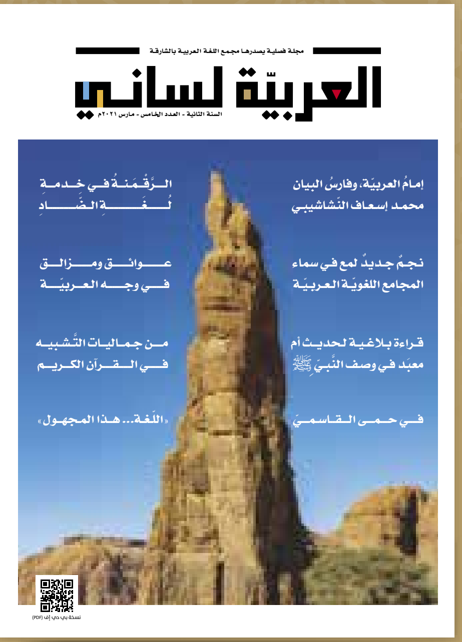

غلاف العدد

السنة الثانية - العدد الخامس - مارس ٢٠٢١ م

مجلة فصليّة يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللغة العربية وآدابها

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني amal.a@alashj.ae

لزيارة موقع مجمع اللغة العربية بالشارقة امسح رمز الاستجابة السريع بكاميرا الهاتف

إمامُ العربيّة، وفارسُ البيان، وجهبذُ التّرسُّل الأديب الأريب

محمد إسعاف النّشاشيبي

تحيّةُ إكبار، وكلمةُ إجلال، وشهادةُ حقٍّ

تُراودني نفسي منذ زمن بعيد أن أكتب في شأن من شؤون اللغة والأدب يُشجّعُ المبتدئين، ويُحفّزُ المتأدّبين، ويُحلّقُ بأذهان ذوي الهِمَم العاليّة في طلب العلوم لا سيما علوم العربيّة وفنونها. وبعد تفكير وتدبير، وإعمال للذّهن الكليل، شاقني موضوعُ بعض أعلام العربيّة الفطاحل الذين كتبوا أسماءهم بحروف ذهبيّة في جبهة التّاريخ، وَسطّرت أناملُهم الزّكيّة صفحات مشرقةً في الفنون اللغويّة والأدبيّة المتنوّعة، لعل بعضَ عبارات هذا المقال تفتح عقولا، وتحرّكُ أنفسًا، وتهزّ ضمائر في بناتنا وأبنائنا الذين استهوتهم الحضارة الغربيّة المعاصرة ببريقها فاجْتالتْهُم شياطينها أو كادت، وسَلْسَلَتْهم أغلالُ ملذّاتها أو أوشكت، وكبّلتهم شهواتها فهم مُقمَحون، لا يكادون يُسَرّون إلاّ بما هو غربيُّ الوجهة أجنبيُّ المِسْحة إفرنجيُّ الشّارة أوربيّ النّزعة أمريكيَّ القِبلة.

د. امحمد صافي المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

أقول هذا لأنّ المتدبّر في الواقع اللّغوي العربيّ ينتابُهُ كثيرٌ من الحزن، وتتغشّاه سحائبُ مُغطشةٌ من الأسى حين يقرأ بعض كتابات أبنائنا الرّكيكة الهزيلة، وحين يستمع بعض مُحاوراتهم ومُداخلاتهم إن تسنّى له أن يقرأ أو يسمع.

ترى هل عقمت أرحامُ الأمّهات اليوم أن تُنجب بناتٍ وبنين يُحسنون العربيّة ويرفعون راياتها خفّاقةً في دنيا اللغات والآداب؟ ماذا فعل فقهاؤنا القدامى، ومفسّرو القرآن الكريم، ورجالُ الحديث، والأدباء المترسّلون، واللغويّون الرّواة منهم والمنظّرون حتى اكتسبوا ذلك البيان المُدهش المُتميّز الرّقراق العذب الزّلال الذي سما بهم في جوزاء الإبانة وسامتَ ثُريّا البلاغة، وأصبحت العربيّة الفصحى ملكةً مُتجذّرةً متأصّلةً في كيان كلٍّ منهم، يتغنّون بها ويترسّلون، ويُنشدون بها الأشعار، ويَروون بها الأخبار، ويُفصحون بها في المحافل والمجامع، دون تلجلُج أو تلعثُم؟ أويستطيعُ أبناؤنا أن يصلوا إلى ذلك المستوى العالي من الإبداع اللغوي في زماننا هذا؟ وهل ستكتحلُ أعيُننا يومًا برؤية جيل سامي البيان، رقيق الوجدان، يمتلك ناصية التعبير، تسيلُ العربيّة على ألسنتهم مطواعة ليّنة، في إحكام نَسْج، وإشراق عبارة، وجمال صَوغ، وتصرّفٍ في فنون القول؟

من أجل ذلك استوقفتني سيرةُ رجل، لا أكون مبالغًا إذا ادّعيت أنّ كثيرا من المثقّفين في العصر الحديث ومُحبّي اللغة العربيّة من الشّباب اليوم لا يعرفون عنه الكثير أوْ لا يعرفون اسمه إطلاقًا؛ والسّبب يعود، في تقديري، إلى الإعلام الذي يُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، وإلى الجهات والمؤسّسات الأكاديميّة التي تُعنى باللغة العربيّة ولا ترفعُ عقيرتها مُتحدّثةً بأفضال المتميّزين من علماء الجيل الذين أبْلَوْا بلاء حسنًا في خدمة العربيّة وتقديمها للعالمين.

في حيٍّ من أحياء القُدس العتيقة، اهتزَّ بيتٌ فرَحًا بمولد فتى كان أبوه يرقُبُ مجيئه منذ زمن بعيد. سُرَّ الوالدُ وجذلت الأمُّ، وتعالت عبارات التّبريك والتّهنئة من داخل الأسرة وخارجها.

إنّه مولد محمد إسعاف النّشاشيبي. كان والدُ محمد رجلًا ميسورًا، من أبرز رجالات القدس في عصره ذكاء وعلما وبسطة في المال. عُرف بين أقرانه بحدّة الطّبع والعصبيّة المفرطة، وكان يرتادُ بعض المجالس التي كان يجتمع فيها كوكبةٌ من المتعلّمين في اللّغة والأدب والفقه من أمثال محمد جار الله، وعارف الحُسيني، وموسى عقل، وأسعد الإمام، وراغب الخالدي وغيرهم من النّبهاء والسّادة الفضلاء. كانت مجالسُهم حافلةً بالنّقاش الهادئ والحوار المتأدّب، مُفعمةً باستعراض مسائل الفقه وتجاذُب أطراف الحديث حولها، وتذاكُر الأشعار والطرائف الأدبيّة، وكان من حُسن حظّ الفتى محمد إسعاف أنّه كان يصحبُهُ والده إلى تلك الحلقات الأدبيّة والثقافيّة المتنوّعة، وما أبرك الجلسات العلميّة والثقافيّة على النّاشئة حين يستمعون ويعون، ويقلّدون ويقتدون.

ارتاد محمد إسعاف تلك المجالس، فارتسم في ذاكرته حبُّ الأدب، وأُعجب بالشّعر الذي كان الأصحاب ينظمونه فيما بينهم، والمذاكرات التي تجري على ألسنتهم، فشُغف بذلك حبًّا.

بعد مرحلة الكتاتيب، برز إسعاف بين أترابه فتى ذكيّا وسيما مُتوقّد الهمّة جادًّا مجتهدا، فاقترح الشيخ راغب الخالدي على والده أن يوفده إلى المدرسة البطرياركيّة في بيروت ينهل من علومها، ويشرب من مواردها العلميّة ما يسّره الله له، وأخذ والده بالنّصيحة، وأوصى ابنه أن يدرس علوم العصر ويعتني بالعلوم الرياضيّة والهندسيّة، ويجتهد في شتى الفنون العصريّة لأنّه كان يرغبُ أن يُشركه في أعماله وتجاراته وإدارة أملاكه بعد الانتهاء من دراسته.

تلك كانت أحلام الأب إسعاف، ولكنّ الفتى محمدًا كان قد شُغف بالعربيّة منذ صباه الأوّل، وغازلته بعيونها، وأسَرتْهُ بجمالها فما استطاع أن يَنْجُوَ من حبال وُدّها ومكايد عشقها، فانْساق وراء محبوبته يطالعُ ليلا ونهارا، مُنكبًا على كتب اللغة ودواوين الشّعر، وأسفار المجموعات الشّعريّة كالأصمعيّات والمُفضّليّات وديوان الحماسة وما شاكلها من عيون مصادر الأدب العربيّ الرّصين ممّا جادت به قرائح علماء العربيّة قديمًا وحديثًا.

تذوّقَ الأدب على نحو لم يكن مألوفا ببلده، وأكرمته العربيّة فأغدقت عليه بكثير من أسرارها الدّقيقة وألفاظها الأنيقة وأساليبها الرّفيعة، وغرس فيه الأديبُ البستانيّ حُبَّ الأدب القديم، فما كانت يدُهُ تخلو برهةً من كتاب من كتب الأدب العتيقة، وكلّفه بالبحث والتّنقيب في أصول المفردات فكانت المعاجم الأمّات حِلْسَه وصَحْبَه، وغدت كتب الألفاظ وتقويم اللسان عشيرَهُ وقعيدَهُ. أيضًا حاول أن يجتهد في دراسة اللغة الفرنسيّة فألمّ بها إلمامًا حسنًا، ورأى من خلال مطالعاته المتوسّطة أنّ الفرنسية مهما دقّت ورقّت وحسُنَ جمالُها فإنّها لا ترقى ولن ترقى إلى الغيداء المضريّة البهيّة التي قال عنها: «**أتْقَنُها الإتقانُ، وأبدعها الإبداعُ. قد جَمَعَت الحُسنَ كلّه في نظام، وبذّت لغات جميع الأنام؛ فالتّجوُّدُ مُحاصرُها حيثما سارت، والتّنوُّقُ مُعانقُها أنّى دارت. وإذا تنافرت اللغات يومًا وتساجلت جاءت فتاةُ الجزيرة سيّدةً عقيلةً وجئن إماءً....وهي لغةُ الكِتاب ولغةُ الإعراب، ولغةُ الإيجاز إذا ابتغيتَ الإيجاز، ولغةُ الإطناب إن ترد الإطناب، فهيهاتَ هيهاتَ أن تُماشيها في الفصاحة**

والبلاغة لغةٌ أو يُجارِيَها في البيان لسانٌ» من كلمة له عنوانُها: سبيكةُ العسجد في لغة محمّد.

عاد إلى بلده شابًّا يافعًا لم يتجاوز العقدَ الثّاني من عمره، مزهوًّا بعلمه، مُعجبًا بأدبه، يختالُ كالطّاووس على أقرانه بالعلم الذي حازه والأدب الذي حصّله. عادَ وبيده قصيدةٌ مطبوعةٌ بماء الذّهب منسوجةٌ بحرير الألفاظ في وداع مدرسته. وما كان القومُ يبغون أدبًا، وما كان أبوهُ يستهويه الشّعر كما تستهويه التّجارة وإدارة الأعمال؛ فارتطم النّشاشيبيّ الصّغير منذ أوّل يوم بصخرة الأسرة العاتية، ولكن لم تلِنْ له قناةٌ، ولا خار له عزمٌ، وواصل في دراسة اللغة العربيّة وآدابها حتى شهد القاصي والدّاني بنبوغه اللّغويّ وتفنُّنه في فنون القول، وبراعته في الكتابة والتّرسّل.

هذا، ولم يكن رصيدُهُ من الشّعر فارغًا، بل كانت له قصائدُ جيادٌ ومقطوعات رائعات يانعات في دنيا القريض، وإن لم تتفوّقْ قصائده على كتاباته النّثريّة التي عُنِيَ فيها بالصَّنعة اللّفظيّة إلاّ أنّه أحكمَ زمامها وامتلك ناصيتها وأجاد القول فيها، واستحسن معاصروه الكثير من عيونها. من ذلك قصيدته التي يندبُ فيها الشّعور العربيّ والأنفة العربيّة، والواقعَ غيرَ المحبوب لوطنه العربيّ الكبير التي جاء فيها:

العُرْبُ ماتَ شُعورُهُمْ   **فانْدُبْهُ دَهرَك باكيا**
ولّى فوَلّى بَعْدَهُ   **أُنسي وساءَ مآليا**
قد كنتُ أطمعُ أنْ أرى   **وطني بهيجًا زاهيا**
فوَجَدْتُهُ من كلّ علمٍ   **أو علاء خاليا**
فرَثيتُهُ وندَبتُهُ   **وسكبتُ دمعي غاليا**

لقد أوتيَ محمد إسعاف النّشاشيبي مِقْولاً ذرِبا وقلمًا سيّالا، وقريحةً خصبةً مِثراءة، وزاده الله توفيقًا في كتاباته ومقالاته أنْ عاصر جملةً من الصّحف الغرّاء والمجلاّت الأدبيّة والثقافيّة والسياسيّة في تلك الحقبة الجميلة من العقود الأولى من القرن العشرين، فصال على صفحاتها وجال، وناقش وحرّر، وحلّل فبهر، وساجل فقهر، ونقد فنصر واستنصر.

ولا يخفى على أهل الأدب ومُحبّي العربيّة أنَّ تلك الفترة الزّاهية عُرِفَت بكبار أدباء العربيّة وشعرائها، حيث كان ينشر في تلك المجلاّت أمير الشعراء أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وأحمد أمين، والرّافعي والمنفلوطي، وعبّاس محمود العقّاد، وما خبَرُ مجلّة «الرّسالة» لصاحبها العبقريّ المسدّد الموهوب المؤيّد ذي القلم السّيّال والقريحة الأدبيّة الفيّاضة أحمد حسن الزّيّات عنك أخي القارئ ببعيد.

ومن توفيق الرّحمن وحُسْن الطالع أنّ مجلّة «الرّسالة« كانت تتسابقُ إليها الأقلام، وينتظرها القرّاء بشوق، وتتناقلُها الأيدي حين تنفد أعدادها في المحلاّت والأسواق، وكيف لا تنفد الأعداد وكتّابها سادةٌ روّاد، وعباقرة أفذاذ، وجهابذة في معظم فنون القول والآداب؟

أشير أيضًا إلى أن تلك الفترة الثّريّة من عُمْر أمّتنا العربيّة عُرفَت أيضا مجلّة ألفباء الدمشقيّة الفوّاحة العطرة، وبزغت مجلّة الأصمعيّ المنتشرة، وراجت مجلّة النّفائس بما تزهو به من نفائس، وذاعت المنهل التي كانت من مناهل الأدب الرّفيع وموارده، وفي الفترة ذاتها سطعت شموس المجلاّت الأدبيّة والثقافيّة المتنوّعة في سماء الجزائر مثل الشّهاب وأختها البصائر، وهما مجلّتان لغويّتان أدبيّتان شرعيّتان إصلاحيّتان كانتا تزخران بفاخر الكتابات وروائع المقالات وبدائع الأشعار لعقودٍ من الزّمن على الرّغم من محاربة الاسْتِدْمار الفرنسي لهما، وأعتزم في المستقبل على بساط مجلّتنا هذه – بإذن الله تعالى – أن أحكي لقرّائنا الأعزّاء عن فصولٍ من هاتين المجلّتين والموادّ الأدبيّة الرصينة، والكتابات الشّرعيّة الأصيلة التي كانت تنشر فيهما.

أعودُ فأقول: استقام بيانُ أديبنا محمد إسعاف النّشاشيبي، وأشرقت فصاحتُه، وعلا كَعْبُ بلاغته، وناطحت كتاباتُهُ الجوزاء، وبلغت مقالاته عنانَ السّماء، وأسرت مقتطفاته الأدبيّة ومختاراته التي عَنْوَنَها «نُقْلُ الأديب» قرّاءَ الرسالة فَشُغِفوا بها حبّا وهياما، وكانوا يعدّون الأنفاس، ويحْسُبون الدّقائق والثّواني انتظارا لصدور العدد القادم، وتأنّقَ في اختيار جملة من روائع القصائد والفِقر الأدبيّة والنصوص الساحرة الفاتنة وجمعها تحت عنوان

«حماسة النّشاشيبي» اقتفاءً لآثار أستاذِهِ وخطواتِ قدوتِهِ الشّاعر العبّاسي عملاقِ الصّنعة اللفظيّة وحاملِ لواء زخرفها أبي تمّام الطّائي رحمه الله تعالى.

أُعجِبَ الأستاذ الشّيخ محمّد بهجت الأثري بمختارات الأستاذ النّشاشيبي فأرسل إليه المقطوعة الآتية:

سيّدي إسعاف يا أمْثَلَ   **خُلصانٍ وخِلّ**
أنا من بُستانك الزّاهِرِ   **في طيبٍ وظِلّ**
بين وردٍ باسم الثَّغْر   **ورَيْحانٍ وفُلّ**
زُمَرٌ نسَّقَها الذَّوقُ   **على أجمل شَكل**
أتملاّها بِعَيْنَيْيَ   **وأرعاها بعقلي**
أتلقّاها بِلَثْمٍ   **وتتلقّاني بِدَلّ**
جلَّ ما أهديتَ من راحٍ   **ورَيْحانٍ ونُقْل**
أسْكرَ المشمومُ نفسي   **وغذا المطعومُ عقلي**

يذكرُ رواةُ الأدب وصيارفةُ البيان أنّه أحسن الكتابة في عدد من كتبه التي خطّتها عبقريّته، ومن تلك الأسفار كتابٌ صغيرُ الحجم كثيرُ العلم جمُّ الفوائد بديعُ النّسج نشره عام ١٩١٢ للميلاد، هو كتاب: أمثال أبي تمّام، جمع فيه أمثاله، كما جمع من قبلُ الصاحب ابن عبّاد أمثال المتنبّي.

تأثّرَ بمدرسة أبي تمّام التي تُعنى بديباجة الشّعر ونصاعة اللّفظ والصّنعة البديعيّة إلى حدّ الإسراف، وإذا كان الشّعر أعطى لأبي تمّام مقاليد القيادة والتّفوّق، فإنّ النّشاشيبي سلّمت له العربيّة مقادَها، ولانت له عريكتُها، وتيسّرت له الكتابةُ الأدبيّة فأبدع في نثرها، ويكفيه فخرًا أنّ أمير الشعراء أحمد شوقي كان يُطلق عليه لقب «أديب العربيّة»، وإنّه لوِسامُ فخار وقلادةُ عزٍّ يزهو بها، وهو أهلُها ومُستحقّها.

من بديع قصائده في وطنه فلسطين:

يا فتاةَ الحيِّ جُودي بالدّماء
بَدَلَ الدَّمع إذا رُمتِ البُكاء
فلَقَدْ ولّتْ فلسطينُ وَلَمْ
يبقَ يا أُختَ العُلا غيرُ ذماء
إنّها أوطانُكم فاستيقظوا
لا تبيعوها لقومٍ دُخلاء

كيفَ ترجونَ حياةً بعدهـا

ونعيما وهنـاءً وصفـاء

يروي أترابهُ الذين عايشوه في مدينة القدس أنّه كان كثير العزلة، مُحبًّا للخلوة والانفراد، طلَّقَ دنيا الأنس والصّحاب طلاقًا باتًّا، وانتبذ عن أهله وأصحابه مكانًا قصيًّا أعدّه للقراءة والمطالعة، مُتّخذًا من كتب التّراث العربي المجيد أحبّاء خلصاء وأصدقاء أوفياء واضعا نُصبَ عينيه بيت المتنبّي الفريد:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سَرْجُ سابح
وخيرُ جليسٍ في الحياة كتابُ

ألا ما أعظمها من حكمة، وما أروعها من نصيحة لمن ألقى السّمع وهو شهيد، ولَوْ أنّ أبناء أمّة العُرب عكفوا على تراث آبائهم وأسلافهم في جميع الفنون والعلوم، لكانت الأمّة اليوم بخير وعافية ترفلُ في أثواب العزّ وتترقّى في مدارج المجد، ولكنْ لا نيأس ولا نَسْتيئس، ورجاؤنا كبير أن يبعث المنعمُ الوَهاب فينا روح النّجاح وحبّ التألّق والإبداع، ولتعودَنّ رايةُ المجد العربي والسّموّ الإسلامي تملأ الحياة العصرية بالسّعادة واليمن والبركة إن شاء الله، وما ذلك على الله بعزيز.

وبعد الحرب العالمية الثانية، انكفأ النّشاشيبي إلى التّعليم، وعاد إلى مهنة الأنبياء ينشر رسالته في تعليم العربيّة وبثّ حبّها في النّفوس، وتبصير أبناء الجيل بأسرارها ومزاياها، ووفّقه الله توفيقًا كبيرًا، وترقّى في المناصب التّربويّة إلى أن أصبح مفتّشًا عامًّا للغة العربيّة إلى عام ١٩٢٩م.

من آثاره في هذه المرحلة: «مجموعة النّشاشيبي»، و«البستان»، و«قلبٌ عربيّ وعقلٌ أوربيّ»، وأمالي النّشاشيبي»، والتّقاؤل عند أبي العلاء»، وأجملُها وأنصعُها، وأبهاها وأسماها، ولؤلؤةُ عقدها، ودُرّةُ جوهرها كلمتُهُ التي ألقاها في الجامعة الأمريكيّة في بيروت عام ١٩٢٤، وحضرها كبار الأدباء والمثقفين في مقدّمتهم الشاعر خليل مطران.

وحتّى لا يظنَّنَّ ظانٌّ أنّي قد أطْرَيْتُ الرّجل بأكثر مِمّا يستحقّ، وألبسته قلائدَ من الثّناء والمدح أوسع من نحره، وأكبرَ من مقامه الأدبي ومكانته العلميّة، فإنّي أترك المجال فيما تبقّى لي من نَفَسٍ في هذا المقال للأديب محمد إسعاف النّشاشيبي يتحدّثُ عن نفسه، ويروي حكايته مع العربيّة، وللقارئ الكريم الحصيف الرّأي السّديد الفهم أن يُحلّل ويتذوّق ويحكم، والجمالُ الفنّيّ لا يختلف عليه اثنان، والرّواءُ الأدبيُّ لا ينتطح حوله عنزان، والبهاء الأسلوبيّ يأسرُ كلّ إنسان. أرجو أن تقرأ أخي القارئ المقطوعة التالية بأناة وتروٍّ، وتستمع إليها بآذان قلبك، وتتملاّها بناظريك، وانظر ماذا ترى، واحكُمْ بالقسطاس المستقيم، وأسألك برحم العربيّة التي تجمعنا وأصرة البيان التي تربطنا أنّك إذا كنت تخالفني القول في عظمة هذا الكاتب أن تكاتبني على بساط هذه المجلّة، فإنّي أحترم آراء الآخرين، وأعدّ رأيي صوابًا يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصّواب.

قال محمّد إسعاف النّشاشيبي في مقدّمة كتابه «كلمة في اللغة العربيّة»: «**ألا إنّـهُ لَـمْ يَشْـقَ أحـدٌ فـي هـذا الوُجـود شـقاءَ هـذه اللغـة العربيّـة، ولَـمْ يُعـانِ أخـو بُـؤسٍ مـن زعـازعِ الدّهـر ولـم يُعايـنْ مـا عانتـه ومـا عاينتـهُ،**

"ولَـوْ أنَّ ما تَلْـقـى يُصيـبُ مُتـالِعـا
أو الرُّكن من سلمى إذن لَتَضَعْضعا

ولَـمْ يَـذِلَّ عزيـزٌ مـن بعـد عَزازتـه ذُلَّهـا، ولَـمْ يُضَـمْ كريـمٌ عنـد قومـه - إذْ لؤُمـوا - ضيمهـا، ولَـمْ يَزْهَـدْ جاهـلٌ مطبـوعٌ علـى قلبـه فـي أكبـر مآثـر سلفه زُهـدَ قـوم هـذه اللغـة فـي لغتهـم.

ولَمْ تُعَبْ حسـناءُ خلصتها الطّبيعةُ من كلّ شيْن كما عيبَتْ هـذه اللّغـةُ العربيّـةُ بـل الحـوراءُ الرُّضوانيّـة.

ولَمْ يُسـئْ امـروٌ إلـى عـدوٍّ أبلغَ إليـه إسـاءةَ أبنـاء هـذا الزّمـان إلـى فتـاة الجزيـرة؛ فقـد هجرهـا فريـقٌ منهـم هجـرًا وجعـل هجّيـراه ازدراءَهـا واعتـراضَ عـرضِ المُتدلّـه بهـا والاسْتسـخار مـن كلّ مُهيـبٍ بالنّـاس إلـى حذقهـا وروايتهـا.

واسـتبدلَ فريـقٌ بهـذه اللغـة الفصيحـة الصّحيحـة البليغـة الكريمـة والسّـريّة لغـةِ القـرآن المعجـز والحديـث ولغـةِ المُفضّليّـات والجَمْهـرة والحماسـة والكامل والأمالي والبيـان والتّبيين والعقد والأغاني تبـدّلَ بلغـة كلّ ذلـك لغـةَ هـذا الوقـت، وهـي لغـةٌ تُقصّـرُ يراعـةُ كلّ بليـغ عـن وَصْـف سَـخَفها وركاكتها وسـماجتها وعُجمتهـا.

فاعتـاضَ - إذ أعـرض عـن تلـك وهـويَ هـذه - الصُّفـرَ والحديـدَ عن اللُّجيـن والعقيـان وكان جهولا.

أخـذْتَ بالجُمّـةِ رأسًا أزعرا
وبالثّنايـا الواضحـات الـدُّردرا

وضـلَّ فريـقٌ عمـهٌ مـاضٍ علـى المُخيّـل فـي التّمييـز بيـن الكلام المُعجـز والقـول الـذي هـو كالأقـوال ولـم يهتـدِ إلـى الطريـق الحافـظ. وإنّـي لمّـا ظننـتُ أن لـم يبـقَ مـن هـذه اللغـة إلاّ حُشاشـةُ مُحتضَـر، ووجـدتُ تفاقُـمَ هـذا الشّـرِّ الجسيم وتأجُّـجَ نـاره فـي الأقاليـم العربيّـة، وشـاهدتُ اسـتفحالَ ذلـك الـدّاء الـدّويّ سـارعتُ إلـى إهمـاد النّـار مـن قبـل أن يأتـي يـومٌ يتعـذّرُ فيـه إهمادُهـا، وابتـدرتُ مُداواةَ الـدّاء قبـل أن يُمسـيَ عُضـالاً عيـاءً فأمليـتُ هـذه الكلمـة".

هذه كلمةُ إكبارٍ وتحيّةُ إجلال أملاها عليَّ ضميري في شأن رجلٍ من رجالات العربيّة في العصر الحديث، تأنّق في حدائق العربيّة ورياضها، ودافع عن حِماها وحياضها، وكتب فأمتع، وترسّل فأبدع، واستحقَّ بحقٍّ لقب «فارس العربيّة الغضنفر، وهمامها المُظفّر». وفي عام ١٩٤٨م غيّبت المنون جسد الأديب الأريب محمد إسعاف النّشاشيبي، ولكن ما وارت علمَه وأدبه، ونُبلَه وفضله، وعبقريّته ومَجده، وإنّه لحيٌّ فينا بآدابه وكلماته وعباراته وكتاباته.

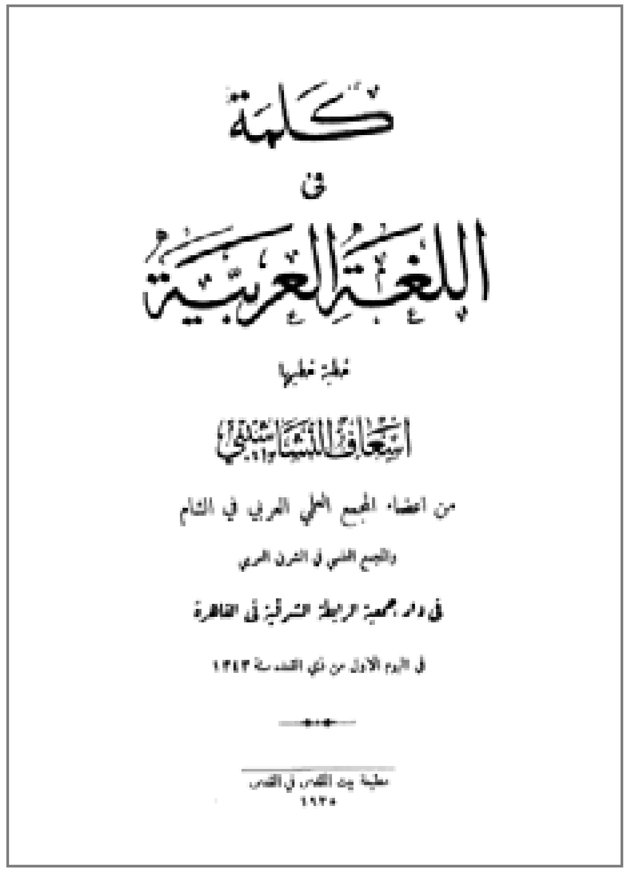

«مَجْمع اللغة العربية»

يفتح أبوابه أمام طلاب وأساتذة أكاديمية الشارقة للفنون الأدائية

وقّع مَجْمعُ اللغة العربية بالشارقة اتفاقية تعاون مع أكاديمية الشارقة للفنون الأدائية، بهدف استقبال طلاب وكوادر الأكاديمية غير العرب لتعليمهم اللغة العربية، ضمن الدورات اللغوية التي يطلقها مركز اللسان العربي التابع للمجمع، بالإضافة إلى فتح مجالات التعاون بين الجهتين على مختلف المستويات.

وجاء توقيع الاتفاقية في مقر المجمع بالشارقة، حيث وقعّها الدكتور امحمد صافي المستغانمي، الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة، والبروفيسور بيتر بارلو، المدير التنفيذي لأكاديمية الشارقة للفنون الأدائية.

وتأتي الاتفاقية ضمن رؤية مجمع اللغة العربية بالشارقة لتعزيز التمسك باللغة العربية، حيث يتطلع الجانبان إلى إكساب طلاب وكوادر الفنون المسرحية والأدائية غير العرب مهارات أساسية في اللغة العربية، واستخدام قواعدها الصحيحة في أعمالهم للمساهمة في تعزيز الوعي تجاه اللغة، بالإضافة إلى دعم مكتبة المسرح العربي بنصوص باللغة العربية الفصيحة.

وعلى هامش حفل التوقيع، أكد الدكتور امحمد صافي المستغانمي، الأمين العام لمجمع اللغة العربية أهمية التعاون والتكامل المؤسسي بين المجمع باعتباره المؤسسة الحكومية الأكاديمية المعنية بقضايا اللغة العربية في العالمَين العربي والإسلامي، وبين أكاديمية الشارقة للفنون الأدائية، التي تعتبر الأولى من نوعها في الشرق الأوسط.

وقال د. المستغانمي: «إن الاتفاقية تصب في دعم مشروع الشارقة الثقافي، وتأتي ترجمة لرؤية صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة»، مؤكداً على أن التحاق طلاب وكوادر أكاديمية الشارقة للفنون الأدائية غير العرب بدورات اللغة العربية التي أطلقها المجمع، يحقق الأهداف التي أنشئ لأجلها، كما يضمن تخريج فنانين على اتصال وثيق باللغة العربية، الأمر الذي ينعكس على جودة الأعمال الفنية الهادفة، ويجعلها في الوقت ذاته مساهمة في نشر جماليات العربية في أوساط الجمهور، لما للفن والمشتغلين به من تأثير ومقدرة على التخاطب مع المجتمع وإيصال الرسائل الإيجابية بلغة سليمة وجاذبة للمتلقي.

ومن جانبه قال بروفيسور بيتر بارلو، المدير التنفيذي لأكاديمية الشارقة للفنون الأدائية: «لدى الأكاديمية مسؤولية تجاه الحياة الفنية والثقافية والاقتصادية للمجتمعات عامة حيث نسعى جاهدين لإيجاد أفضل الوسائل لطلبتنا وموظفينا حتى يتمكنوا من تقديم أعمال مميزة وقوية من مختلف الثقافات، وترسي شراكتنا مع مَجمع اللغة العربية المسار المشترك للاحتفاء بفنون الأداء والإنتاج في المنطقة».

ميلاد مجمع اللغة العربية بتشاد
ضرورة أملاها الواقع، وتلبيّة مجتمع أدبيّ رائع

نجمٌ جديدٌ لمع في سماء المجامع اللغويّة العربيّة

تشاد بلدٌ عربيٌّ، ولا أجد وصفًا يقع على هذا البلد أصدقَ من وصف أحد أساتذتنا له بأنّه: «بلدٌ واقعُهُ يختلفُ عن موقعه»، فكثيرًا ما يُصادفُ التّشاديّون المغتربون خاصّةً في البلاد العربيّة مَنْ يُعْجَبُ بهم وهم يتحدّثون العربيّة بطلاقة، ولا يجدون في مخاطبة العربيّ بلهجته مشقّةً ولا شدّة، مهما كانتْ طبيعةُ هذه اللّهجة، وهذا العَجَبُ له ما يبرّره، فهو نابعٌ من السُّمرة الغالبة على سحناتهم، ومن موقع تشاد في جنوب الصّحراءِ الكبرى بقلب القارّة الأفريقيّة؛ ذلك أنّه يُستبعد عقلًا أنْ يتكلّمَ العربيّة أهلُ دولة أفريقيّة تتوسّط القارّة، وتلهج بها ألسنتهم دون تمتمةٍ أو جمجمة، وهو تساؤل له حظٌّ من المنطق والسّلامة.

الدكتور/ أحمد عثمان أبو الفتح

اللغة العربية في تشاد لها قصَّةُ حضارة عريقة في هذه المناطق، وألقُ تاريخ توهَّجَ يومًا فكان شعلةَ آمال جموحة، وكانت مِنطادًا حلَّقَ بإنسان هذه المناطق إلى آفاق الكمال والجمال. قدَّرَ الله أن تشق أودية وصحارى لتحلَّ بأدغال أفريقيا كيما تؤدي فيها دورًا إنسانيًا عظيمًا ألا وهو (التعارف) الذي أراده الله تعالى حين قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات:١٣]. نعم شاء الله أن تحُلَّ بمكان حوى من الثقافات عوالمَ متنائيةً ولغات متباينة، ليكون اللسان الإنسانيّ الموحّد لهذه الأمم المقرب بينها، خرج هذا اللسان من إطاره الإثني العربيّ والجغرافي في شبه الجزيرة العربية ليكون اللسان العالميّ، ولا غرو فإنه لسان أبي البشرية آدم عليه السلام، ولا عجب أن تعلق بألسنة بنيه حيثما حلّوا لتلتهب بها!

واللغة العربية في تشاد هي قصة حضارة! نعم هي كذلك حيث كانت لغة الدّعوة لما أطلت بشائرها بروابي منطقة كوار شمال تشاد عام ٤٣هجرية، وحينما بخبخ صحبُ عُقبة بن نافع رضي الله عنه؛ حاملين أرواحهم في أيديهم لتكون كلمة الله عالية في هذه الدنيا، ولتكون لدين السلام الراية العليا. كانت العربية آنذاك اللسانَ الذي تبلبل في كل فم بشريّ، فعشق الناسُ بيانَها واستعذبوا ألحانها فكانت الرُّوحَ والهوى! فهي اللسان الأقدم تاريخيّا، واللسان الذي تُمارَسُ به الشعائر الدينية، وكانت ولا تزال لغة التعليم ووعاء الفكر والحضارة في هذا الجزء المهمّ من العالم، وقد حفظت التراثَ الإفريقيّ؛ وأصبحت الأداة الفاعلة في التأليف بل كانت وعاء لما جادت به قرائحُ الشعراء وإبداعات الفنانين. وأثرت على الألسنة الإفريقية وتركت فيها أثرًا بالغًا في الأنظمة اللغوية المختلفة.

اللغة العربية في تشاد لها وضعٌ مختلف من حيث الأصالة؛ إذ كانت اللغة الرسمية في الدواوين الحكومية، والأوامر السّلطانية، والمراسلات بين الحواضر في ذلك الزمن سواء بين الممالك الإفريقية، أو مراكز الحضارة العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي والشرق العربي الإسلامي أو الإسلامي غير العربي. وقد خلَّدَ لنا التاريخ مجموعةً من النصوص العربية في تلك السلطنات القديمة: منها ما كان أمرًا سلطانيًا يتناول قضية اجتماعية، أو سياسيّة، أو علمية، ومنها ما كان رسائل تُبُودِلَتْ بين هذا الديوان أو ذاك! ومنها ما كان تعبيرًا عن الأحاسيس والمشاعر كما نلاحظ عند شاعر كانم إبراهيم بن إسحاق، والشعراء من بعده سواء في مملكة كانم أو باقرمي أو سلطنة وداي.

واللغة العربية في تشاد برغم هذا الألق الحضاري والتأريخي إلا أنّها اليوم بدأت تشعر بالغربة، وبدأ عشق الإنسان الإفريقي لها يتلاشى بسبب غرامه بألسنة أخرى، وبسبب عوامل يضيق المجال لحصرها فتحتّم على الغيورين من أبنائها خدمتها والتّمكين لها وتطويرها من خلال مراكز تعليمها وتعلُّمها، ومن هذه المؤسسات مجمع اللغة العربية بتشاد.

لعل ثمة سائلا يتساءل لماذا هذه الهيئة الجديدة؟ وهل ثمة ما يدعو إلى مثل هذه المبادرة؟ الإجابة على مثل هذا التساؤل تأتي من وجهات عديدة، لكلّ وجهة أهميّتُها ودواعيها: نقول إنَّ إنشاء مجمع اللغة العربية أملته الضرورة والحاجة الملحّة التي تدعونا بشكل يومي هي خدمة هذه العربية: اللغة الوطنية العالمية الحضارية؛ فواحدٌ من هذه الدّواعي هو الوفاء لتأريخنا وتأريخها في هذا البلد العريق الضّارب بأطنابه في عمق التاريخ الأفريقي، واحتفاء بدورها العظيم في كل شعب الحياة المختلفة: في الدين والاتّصال والتّعليم والفكر والأدب والثقافة، وكذلك وفاء لرموزها الذين أدّوا دورهم بجدارة في هذا الكون وتركوا في أعناقنا دَيْنًا مستحقًا. فمنذ ما يربو على مئة عام، تراجع دور العربية في بعض الميادين لظهور لغات عالمية أخرى استولت على اهتمامات النُّخب الفكرية والثقافية والسياسية ممّا جعل العربية تدور في مؤسّسات تفتقد إلى الحيويّة والتّألّق. وانعكس هذا الوضع على مسيرتها؛ فبدأت في الانكماش والضّمور ونشطت صيحات الدّعوة إلى العاميّات ونعرات كتابة اللغات المحلية واستخدامها بديلا عن العربية في التعليم والإعلام؛ فكان ذلك داعيًا يتعاظم في الاتّساع كل حين، وأدّى إلى ضعف في استخدام اللغة واعوجاج أساليبها. فاستلزم ذلك كلّه هبَّةً تنجد تعثرها وتقوّمَ أساليبها، وتبثُّ فيها روح العصر، وتعيد لها ألق النّصر بتكوين هيئة علمية تسهر على المحافظة عليها.

هذه الهيئة هي: مجمع اللغة العربية بتشاد، وهي جهة أكاديميّة تُعنى بشؤون اللغة العربية، وتهتم بإصلاحها، وهي بهذا الوصف لا تعدو أن تكون منبر خبرة يصعد إليه ذوو الكفاءة والخبرة، فهي مثابة معرفية بحتة؛ بعيدة عن العمل السياسي والنقابيّ وما يتعلق بهما. فمن بين ما يهدف إليه مجمع اللغة العربية بتشاد تشجيع الناس على استعمال اللغة العربية الفصحى في كل المحافل، والمحافظة على سلامتها، والعمل على تيسير أساليبها من خلال ما تقدّمه البحوث العلمية، وتشجيع التعليم بها عبر نشر المدارس ومراكز مَحْو الأمِّيّة ومعاهد تعليم وتعلّم اللغة العربية للناطقين بغيرها. كما يهدف إلى ابتكار المصطلح العلميّ الذي تدعو إليه الحاجة والترويج له من خلال وسائل الإعلام المختلفة، وهذا بالتنسيق مع المجامع اللغوية الأخرى. وكذلك القيام بدراسات استشرافيّة لمستقبل اللغة العربية في تشاد ووسط إفريقيا، وتشجيع البحث العلمي المتعلق بالتّمكين للغة العربية، وأهداف أخرى ليست أقل ممّا ذكر. وربما يلتقي المجمع فيما ذكر مع كثير من المؤسّسات المدنية والأكاديمية ولكنه يتميّز عنها بأنه مثابة خبرة للباحثين المهتمين بأمر اللغة العربية الذين

قدّموا ويقدّمون بحوثًا في هذا الشأن.

ونحن في هذه السانحة نذكر من باب الاعتراف بالجميل جهود أعلام أفْنَوْا حياتهم في خدمة الإنسان والإنسانية منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، لم يبخلوا بلحظة من حياتهم طالما الآخرون في حاجة إليها! وكان إيجاد مجمع في هذه البلاد حلمًا من أحلامهم نذكر هنا ونقف إجلالا لجهود الشيخ الإمام رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بتشاد الدكتور حسين حسن أبكر رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، فقد فكّر هو وبعض الإخوة قبل نحو ربع قرن من الزمان تقريبًا في إنشاء هذا المجمع ولكن قدّر الله أن يكون ميلاده بعد ربع قرن من ذلك الاجتماع، بعد تحفيز كبير من مدير المركز التربوي لدول الخليج، الدكتور عيسى صالح الحمادي وما إن تمخضت فكرة المجمع ليأتي دور مجمع اللغة العربية بالشارقة في تبنّي الفكرة بمتابعة الدكتور محمد صافي المُستغانمي الذي مازال يوجّه ويرشد بأفكاره السّديدة إلى أن جاءت الرعاية السامية من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة يحفظه الله ويرعاه الذي احتضن المجمع بحنانه، ومدّ عليه فيضًا من سخائه خدمةً للغة العربية وتمكينًا لمكانتها ليس في مجمع اللغة العربية بتشاد فحسب بل في وسط أفريقيا كلها، وجعل المجمع يقف شامخًا بالعربية إيمانًا منه بخدمة اللغة العربية التي امتدّت في أدغال أفريقيا جنوب الصحراء بفضل الله تعالى، حفظ الله سموّه وأمدّ في عمره وبارك في جهوده وسدّد خطاه، ونسأل الله تعالى أن يكون هذا في ميزان حسناته.

وأخيرًا نشكر كلَّ من فكّر وبادر، ومن ساعد وآزر، من الإخوة العلماء أعضاء المجمع في إنشاء هذا الصرح الشامخ والعرين الذي تأوي إليه العربيّة في بلادنا الحبيبة، وعاشت الشارقة عاصمة للثقافة واللغة، ومسرحا للفنون والآداب، وقبلة يؤمّها العلماء والمثقفون واللغويّون من كل حدب وصوب، وجزى الله الكريم الوهّاب شيخها وحاكمها المثقّف العالم المؤرّخ النّحرير خير الجزاء على ما قدّم، ويقدّم بسخاء لخدمة العربيّة وعلوم الإسلام في كل عصر ومصر، وأثابه خير ما يجزي قائدا عن أمته.

جولةٌ بيانيّة مع آيات التّحدّي بالقرآن

د. عادل أحمد الرويني
أستاذ البلاغة والنقد

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة:[٢٣-٢٤]

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطّور: ٣٣-٣٤]

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]

فهذهِ مِنْ آيات التَّحدّي لمعارضة القرآن الكريم، ومِنَ الملحوظِ زيادة «مِنْ» في آية البقرة دون بقيَّةَ الآياتِ، ونتساءلُ هنا عن السِّرِّ في ذلك، وقبل أنْ نستعرضَ بعضَ آراء المفسِّرين والبلاغيّين أحبُّ أنْ أُشيرَ إلى بعض النِّقاط:

أولًا: تعدَّدت الآراءُ في مقدار التَّحدّي، فَهُناك مَنْ يرى أَنَّ المرادَ بالسّورة في الآيات المعنى اللُّغويّ لا المفهوم الاصطلاحيّ، وبذلك يَقَعُ التَّحدّي ولو بآيةٍ أو ما فَوقها [ينظر: نظم الدرر للبقاعي جـ١، ص١٦٤ ، وشرح جمع الجوامع للإمام جلال الدين المحلي جـ١، ص٦٥].

ويرى الفخر الرّازي أنَّ التَّحدّي لا يَقَعُ بالسُّور القِصار إلّا إذا بلغت هذه السّورة في الفصاحة حدَّ الإعجاز [مفاتيح الغيب جـ١، ٥١٤].

والرّأيُ المختار عندي هو ما ذَهَبَ إليه صاحب التَّحرير والتَّنوير في تحديد مقدار التَّحدّي في قوله: «وإنّما وقعَ التّحدّي بسورة، أي: وإنْ كانت قصيرةً دون أنْ يتحدّاهم بعددٍ منَ الآياتِ؛ لأنَّ مِنْ أفانينِ البلاغةِ ما مَرجِعُهُ إلى مجموع نظْمِ الكلام وصَوغِهِ بِسَبَبِ الغرضِ الّذي سيقَ فيه مِنْ فواتح الكلامِ بِخَواتمه، وانتقالِ الأغراضِ، والرُّجوعِ إلى الغرَضِ، وفنونِ الفَصْلِ والإيجازِ والإطنابِ والاستطرادِ والاعتراضِ. وقد جعلَ شرف الدّين الطّيّبيّ هذا هو الوجه لإيقاع التَّحدّي بسورةٍ دونَ أَنْ يجعلَ بعَددٍ مِنَ الآياتِ» [نظم الدرر جـ١، ص٣٣٩، بتصرف].

ثانيًا: اختلفَ المفسِّرونَ في توجيهِ تعدُّدِ آياتِ التَّحدّي مِنْ حيثُ التَّرتيبُ، والمختار عندي هو التَّدرُّج في التَّحدّي، ونَمَطُ مطلبِ التَّحدّي يدلُّ على ذلكَ؛ إِذْ نرى فيه تنزيلًا مِن الأكثرِ إلى الأقلِّ. [ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١١٠، وغرائب القرآن ١٢ / ١١٥ وبصائر ذوي التمييز، ولطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، ١ / ٢٤١ -٢٤٢، تحقيق: محمد علي النجار، طبعة القاهرة، ١٩٦٩م].

وقد تعدَّدت آراء المفسّرينَ والبلاغيّين في توجيه «مِنْ» في قوله «مِنْ مِثْلِهِ»، فقد ذَكَروا أَنَّ (مِنْ) في الآية إمّا أَنْ تكونَ ابتدائيَّةً إنْ عادَ الضَّمير في (مِثْلِهِ) على المُنَزَّلِ عليه، وإمّا أَنْ تكونَ للبيانِ إنْ عادَ الضَّميرُ على المُنزّل، أو أَنْ تكونَ زائدةً أو أَنْ تكونَ تبعيضيَّةً أي: بمقدارِ سورة، وقد اختصَّت آية البقرة بزيادة (مِنْ) في المتحدّى به وكَون المتحدّى به سورة.

وقد سبقت الإشارة إلى تعدُّدِ بعض الآراءِ في توجيه (مِنْ) في آيةِ البقرةِ دونَ أنْ تُحدِّدَ هذهِ الآراء سِرَّ زيادتِها في آية البقرة، وإنْ كانتْ هناكَ محاولةٌ لذلك من الزَّركشيّ، حيث قال: (لمّا كانت سورةُ البقرةِ سنامَ القرآنِ وأوَّلَهُ بعد الفاتحة حَسُنَ دخولُ (مِنْ) فيها لِيُعلَمَ أنَّ التَّحدّي واقعٌ على جميعِ القرآن مِنْ أوَّلِهِ إلى آخرِهِ... بخلاف غيرِها مِنَ السُّورِ فإنَّها لو دخلها (مِنْ) لَكانَ التَّحدّي واقعًا على بعضِ السُّورِ دونَ بعض[1].

وأَقِفُ مع مَنْ يتساءل في التَّعليقِ على هذا الرَّأيِ حيثُ (لَمْ يحدِّدْ لنا نوع (مِنْ) هذِهِ وكيفَ أفادت أنَّ التَّحدّي واقعٌ على جميعِ سُوَرِ القرآنِ في آية البقرة، وتقييد التَّحدّي ببعض السُّور لو دخلت في آيتَي يونُس وهود، ثُمَّ إنَّ آيةَ البقرة وإنْ كانت أوَّلَ الآيات الثَّلاث ترتيبًا في المصحف فإنَّها آخرُها نزولًا، فَكيفَ فَهِمَ المنزَّل عليهم آيتَي هود ويونُس قبل أَنْ تُنزَّلَ آية البقرة، وإنْ كانوا فَهِموا مِنْهُما أَنَّ التَّحدّي واقعٌ على جميعِ سُوَرِ القرآن فما الّذي أضافتْهُ آيةُ البقرة إلى ما فَهِموه؟[2].

الحقيقةُ أنَّني لَمْ أَجِدْ في آراء المفسِّرين الّذين تعرَّضوا لهذهِ الآيات ما يُشبِعُ نَهَمَ الباحث، وما يروي ظَمَأه البلاغيّ على كَثْرةِ ما قرأت، وقد كانت لي نظرةٌ أُخرى مُتأنيَّةٌ في هذه الآيات وربَّما لَمْ ينتبهْ إليها أَحَدٌ مِنَ الّذينَ قرأتُ لهم فيها.

إنَّنا إذا تأمَّلنا آيات التَّحدّي المذكورة في السُّورِ المكيَّةِ نَجِدُ أَنَّ التَّحدّي لَمْ يَكُنْ مباشرةً وإنَّما كانَ بواسطة ﴿قُلْ فَأْتوا﴾ و﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَت...﴾ فالتَّحدّي هنا بواسطة الرَّسولِ ﷺ؛ لذا كان التَّحدّي أوّلًا بِمِثْلِ القرآن، ثُمَّ بِعَشْرِ سُوَرٍ، ثُمَّ بِسورَةَ مِنَ القرآن الكريم، أمّا آيةُ البقرةِ فَقَدْ جاءَ التَّحدّي فيها مباشرةً مِنَ الله –تعالى– لهؤلاءِ المعاندين، فَقَد أُسقِطَت الواسطة ﴿قُلْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ فَلَمْ يَقُلْ: ﴿قُلْ فَأْتوا﴾ فالتَّحدّي هُنا مباشر في الآيةِ مِنَ الله –تعالى–، هذا التَّحدّي المباشر مِنَ الله –تعالى–

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ١ /١١٥، وينظر تعليق د / عبد الفتاح لاشين عليه في كتابه: من أسرار التعبير في القرآن – حروف القرآن ص١١١، مطبعة عكاظ للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، محمد الأمين الخضري، ص: ٤٤٣.

ناسَبَهُ التَّرقّي في التَّحدّي الّذي وَصَلَ إلى غايتِهِ في هذه الآية؛ لذا زيدَتْ (مِنْ) في آية البقرة، لِتَدُلَّ على التَّبعيض، والمراد: فَأْتوا بِبَعض سورةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

وهذا هُوَ الفرقُ في المعنى بَيْنَ هذه الآية وآية يونُس؛ لأنَّ المُرادَ هناك: فَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِه، ولكنْ في البقرةِ وَصَلَ التَّرقّي في التَّحدّي إلى قِمَّتِهِ فَزيدَتْ (مِنْ) لِتَدُلَّ على المعنى المُشار إليه، ولِتُرْخي عَنانَ التَّحدّي، ولِيَصِلَ التَّساهُلُ فيها إلى قِمَّتِه، كُلُّ هذا تناسب وجلال الخالق –سبحانه–؛ لأنَّه المُتحدّي المباشر في هذِهِ الآيةِ الكريمةِ.

ولنَنْظُرْ إلى تكرار نونِ العَظَمةِ في قوله –تعالى– ﴿نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا﴾ وما تُضيفُهُ مِنَ الهَيبة والعَظَمة، وهذه الغايةُ في التَّرقّي ناسَبَها أَنْ تكونَ آيةُ البقرةِ هي آخرَ آياتِ التَّحدّي نزولًا، لِتَبْقى إلى أَنْ تقومَ السّاعةُ تَقْرَعُ آذانَ كُلِّ مُتَحَدٍّ، وتُزَلْزِلُ كَيانَ كُلِّ مُرْتابٍ؛ لِيَكونَ عَجْزُهُمْ بَعْدَ ذلكَ أبلَغَ وأبدَعَ، كما أَنَّ تكرارَ هذه النّون فيه تثبيتٌ لِيَقينِ كُلِّ مؤمنٍ صادقٍ، وفي ذلك دليلان على إثباتِ النُّبوَّةِ، أَحَدُهُما: صحَّةُ كَوْنِ المتحدّى به مُعجِزًا، والثّاني: الإخبارُ بالغَيبِ أنَّهم لَنْ يفعَلوا، وهذا لا يَعلَمُهُ إلّا الله[3].

ولَعَلَّ ممّا يساعِدُ على إدراكِ قوَّةِ هذا التَّحدّي وغايَتِهِ –أيضًا– ما أُتبِعَتْ بهِ آيةُ التَّحدّي في البقرة بِقَولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا وَلَنْ تَفْعَلوا﴾ فَهُنا نَفْيٌ وتأكيدٌ على عَدَمِ القُدرةِ على المعارضةِ حالًا ومآلًا، وهذا التَّذييلُ القاهِرُ لآيةِ التَّحدّي في البقرةِ يَتَناسَبُ مع التَّحدّي المباشر مِنَ الجبّارِ سبحانَه، وهذا الجَزْمُ والحَزْمُ الّذي يُمثِّلُهُ السُّكون في (لَمْ ولَنْ) تَهْدَأُ نبرتُهُ قليلًا في سورتَي يونُس وهود ﴿وَادْعوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صادِقين﴾.

أَحْسَبُ أَنَّ هذا أَيضًا يتناسَبُ مع التَّحدّي بواسطة الرَّسول ﷺ فَجاءَ أَقَلَّ حِدَّةً، وأَهدأَ صَوتًا؛ لذا كان لِوُرودِ (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ أَثَرُهُ البالِغُ في أَداءِ المعنى.

وأَلمحُ في تَوالي الفتْحِ والسُّكونِ في قوله ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا وَلَنْ تَفْعَلوا﴾ تصويرًا لهؤلاء المُعانِدين وقد أَعْياهم هذا التَّحدّي المباشر من الجَليلِ –جَلَّ شَأْنُهُ– حيث إنَّ هِمَمَهُمْ في المعارَضَةِ

(٣) البحر المحيط، جـ١، ص٢٤٨.

قَدْ ضَعُفَتْ، وأَنَّ رَغْبَتَهُمْ فيها قَدْ خَمَدَتْ، وأَنَّ محاولاتِهم قد صُرِعَتْ، أَلا يوحي تَعَدُّدُ السَّواكِنِ بأَنَّ هِمَمَ القوم ومحاولاتِهم قد صارت هامدةً راكدةً بلا حركةٍ فَبُتَّ بذلك عجزُهُمْ عن المعارضَةِ وحُسِمَ؟ أظنُّ أنَّ هذه السَّواكنَ قدْ حاكَتْ هذه المحاولات تمامًا، بَلْ ونقلَتْ إلينا انكسارَ القومِ وحالَهم بعد عجزِهِمْ عَنِ المعارضَةِ، نقلَتْ هذا بعد سُقوطِهم في وَهْدَةِ العَجزِ، في صورةٍ مُشعَّةٍ برَّاقَةٍ، رسَمَتْها الحروف، بل سواكِنُ الحروفِ.

ويَحْسُنُ أَنْ أُشيرَ في نهايةِ المَوضِعِ إلى وَجْهِ ارْتِباطِ آياتِ التَّحَدّي بِمَطالِعِ سُوَرِها، فَفي آيةِ البَقرةِ جاءتْ آيةُ التَّحدّي بعدَ بيانٍ قاهرٍ ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا وَلَنْ تَفْعَلوا﴾ تناسُبًا مع المطْلعِ، وبَيانًا لِكَمالِ هذا الكتابِ، ونفيًا لِكُلِّ رَيبٍ يَخدِشُ هذا الكمالَ[4].

وأُضيفُ أيضًا وجهًا آخرَ مِنْ وجوهِ التَّرابُطِ بينَ المطلعِ وآيةِ التَّحدّي في سورَةِ البقرةِ، ألا وهو أَنَّ البقرة هي الوحيدة الّتي كان التَّحدّي فيها مباشرة دون واسطة (قُلْ) كما سبقَ القَول، وهذا يَتَناسبُ مع بدايةِ مَطلَعِ السّورة الّذي لَمْ يَرِدْ فيه ذِكْرٌ لرسولِ الله ﷺ ولنقرأ بداية مطلع البقرة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾[5].

أمّا في سُوَرِ يونُس وهود والإسراء، فقد جاءَ التَّحدّي فيها بواسطة الرّسول ﷺ وفي مطالِعِ هذه السّورةِ ذِكْرٌ لِرَسول الله ﷺ وفيه مناسبةٌ للتَّحدّي بواسطةٍ في هذهِ الآياتِ، وهذا وَجْهٌ مِنْ وُجوهِ التَّرابُطِ بينَ هذه الآياتِ ومَطالِعِ السُّوَرِ، فَفي يونُس نَجِدُ قولَهُ –تعالى– في بدايةِ السُّورةِ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: ١–٢] والتَّرابط واضحٌ بينَ السِّحْرِ والافتراءِ، فَكِلاهُما كَذِبٌ وتَدْليسٌ واختِلاقٌ، وهناكَ وَجْهٌ آخرُ يَربِطُ الآيةَ بِمَطلعِ السّورةِ ومقصودِها، حيثُ إنَّ سورةَ يونُس مِنْ أكثرِ السُّورِ «إثباتًا للوحي وللرِّسالةِ، وتحدِّيًا بالقرآن، وبيانًا لإعجازه». وقد اشتَمَلَ المطلَعُ على المقصد، ودلالة التركيب في قولِهِ ﴿أَنْ أَوْحَيْنا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ مُشيرةٌ إلى أمرَين أوَّلُهُما «صِدْقُ الوحيِ لأنَّهُ مِنَ اللهِ، وصِدْقُ الرَّسولِ الّذي جاءَ بِهِ، وهذانِ الأمرانِ هُما مُتعلّق الإنكارُ ومَثارُ التَّعجُّب[6]»، وقد كانتْ شُبهَتُهم في آيةِ التَّحدّي أنَّه –ﷺ افتراه، وقوله تعالى ﴿أَوْحَيْنا إلى رَجُلٍ مُنْهُمْ﴾ ردٌّ على شُبهَتِهم تلك.

أمّا مطلَعُ سورة هود ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هود: ١–٢] فَدلالةُ المطلَعِ مُشيرَةٌ إلى الكتابِ المتَحدّى به، ومُشيرةٌ إلى صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ وفي هذا ارتباطٌ وثيقٌ بِقَولِه في آيةِ التَّحدّي ﴿أَمْ يَقولونَ افْتَراهُ﴾ وهذا قَبَسٌ مِنْ قوله ﴿إِنَّني لَكُمْ مِنْهُ نَذيرٌ وَبَشيرٌ﴾، حيث فيه رَدٌّ عليهم في صَدْرِ المطلَعِ، وهذا دليلٌ على صِدْقِ الرَّسولِ والرّسالةِ، وما جاءَ به ﷺ وقوله في آيةِ التّحدّي ﴿وَادْعوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دونِ الله...﴾ ناظِرٌ إلى ما ذُيِّلَتْ به الآيةُ الأولى ﴿حَكيمٌ خَبيرٌ﴾ فَأَنّى لمخلوقٍ أَنْ يَأْتِيَ بما أتى بِهِ الحَكيمُ في أفعالِهِ –سبحانَه– الخبيرُ العالِمُ بِكَيْفيّاتِ الأُمورِ؟!

ومِنَ المفيدِ الإشارةُ إلى أَنَّ مطالِعَ (البقرة–يونُس–هود) بدأتْ بالحروفِ المقطَّعةِ الدَّالّةِ على التّحدّي كما ذَهَبَ إلى ذلك أغلبُ العلماءِ، وهذهِ علاقةٌ وَثيقةٌ بينَ الآياتِ ومَطالِعِ سُوَرِها، ولكنْ هناكَ سُوَرٌ كثيرةٌ مُفْتَتَحَةٌ بالحروفِ المقطَّعةِ وليسَ فيها آيات التّحدّي، فما ذَكرْتُهُ ليسَ قاعدةً مُطَّرِدَةً.

أمّا آيةُ التَّحدّي في سورةِ الإسراءِ، فلأنَّ التَّحدّي فيها وَقَعَ بواسطة (قُلْ) فإنَّنا نَجِدُ الرَّسول ﷺ يُذكِّرُ بِصِفَةِ العبوديَّةِ في صَدْرِ السّورة

﴿سُبْحانَ الّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ﴾، وقولُهُ في آيةِ التّحدّي: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أَنْ يَأْتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأْتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيرًا﴾ناظرٌ إلى قولِهِ سبحانَهُ في صَدْرِ السّورةِ ﴿سُبْحانَ﴾ فَهَذا العَجْزُ المطْبِقُ مِنَ الإِنْسِ والجِنِّ مَعَ اجتِماعِهِم –للإِتْيانِ بِمِثْلِهِ– تقابِلُهُ القُدرَةُ المطْلَقَةُ والتَّنزيهُ الكامِلُ عنْ كُلِّ نَقْصٍ في حَقِّ الخالقِ جلَّ جلالُهُ –والله أعلم–.

(٤) علاقة المقاصد بالمطالع في القرآن الكريم ص٦٨، د / إبراهيم الهدهد.

(٥) تفسير المنار للشيخ محمد عبده – تأليف السيد محمد رشيد رضا، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

(٦) علاقة المطالع بالمقاصد، ص١١٤.

أسلوب الحذف بلاغيًّا في القرآن الكريم

للدكتور محمَّد رضا الشَّخص

عرض وقراءة
حسن الربيح

مكانة الحذف عند النّحاة والبلاغيّين:

تقوم هذه الورقة على مقاربة أسلوب الحذف بلاغيًّا من خلال إقامة حوارٍ استنطاقيّ ونقديّ مع كتاب صدر حديثًا في هذا المجال، وسنتعرّف على مُجمل تفاصيله في هذه القراءة التي تسلك منحى عرض المحتوى، وتسجيل ما يعنُّ لها من ملحوظات واستدراكات على الكتاب.

كان العرب يعدُّون البلاغةَ الإيجاز، وعلى ذلك جَرت مقولاتٌ من قَبِيل: خيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ، حتَّى إنَّ جعفرًا بنَ يحيى البرمكيّ كان يقول لكتَّابه: «إنِ استطعتُم أن يكونَ كلامُكم كُلُّه مثل التَّوقيع، فافعلُوا». [الجاحظ، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، ج١ ص ١١٥].

ومن صور الإيجاز: الحذف، وهو كثير في كلام العرب، ويكاد يكون الصّورة المُثلى للإيجاز.

وبالمقابل يأتي الإطناب ومن صُوره الذِّكر والتّكرار وله بلاغته، ولكن ليس بمثل بلاغة الإيجاز وكثرة استعماله في النّصّ الأدبيّ، وكما قال ابن جنِّي (ت: ٣٩٢هـ): «إنَّهم إذا كانوا في حال إكثارهم وتوكيدهم مُستوحِشين منه، مُصانعينَ عنه، عُلِم أنَّهم إلى الإيجاز أَميل، وبه أَعنى، وفيه أَرغب؛ ألا ترى إلى ما في القرآن وفصيح الكلام: من كثرة الحذوف». [الخصائص، ت: محمد النجار، ج١، ص ٨٦].

يقول سيبويه (ت: ١٨٠هـ) منوِّهًا بظاهرة الحذف في الكلام: «اعلم أنَّهم ممَّا يحذفون الكَلِم، وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويُعوِّضون، ويستغنون بالشَّيء عن الشَّيء الذي أصله في كلامِهم أنْ يُستعمل حتَّى يصير ساقطًا». [سيبويه، الكتاب، ت: عبد السلام هارون، ج١، ص ٢٤، ٢٥].

ويقول عبد القاهر الجرجانيّ (ت:٤٧١هـ) مُشيدًا بأهميَّة الحذف في بليغ الكلام: «هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المَأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسِّحر، فإنَّك ترى به ترْكَ الذِّكر أفصحَ من الذِّكر، والصَّمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطقْ، وأتمَّ ما تكونُ إذا لم تُبِنْ». [دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر، ص ١٠٦].

عرض مجمل:

البلاغيّ يبحث عن الغاية والغرض من الظّاهرة، أمَّا النّحويّ فينشغل بأسبابها وطُرقها، وما بين أيدينا كتابٌ يجمع بين ذوق البلاغيّ وذَوْق النّحويّ وذوق الأديب، إنّه كتاب «بلاغة أسلوب الحذف في القرآن الكريم»، للدكتور محمَّد رضا الشَّخص[1].

قسَّم المؤلِّف فصول الكتاب إلى مجموعتين: المجموعة الأولى القسم النّظريّ وقد امتدّت على بساط خمسة فصول، والثّانية القسم التّطبيقيّ وأخذت أربعة فصول فاكتمل الكتاب في تسعة فصول.

ويأتي اختيارنا لهذا الكتاب لأسباب منها: أهميّة الموضوع الذي يتحدَّث عنه في الدّرس البلاغيّ، وكذلك جِدَّة البحث؛ كونه صدَرَ حديثًا، والمأمولُ أنّه سيُسْهم في الإضافة والتّنبيه إلى مسائل جديدة، والوقوف على نتائج قد تفتح أبوابًا أخرى لبحوث قادمة، والأهميّة الثّالثة هي التّنويه بجهود هذا الرّجل الذي تنوَّعت نشاطاته بين التّأليف والمحاضرات المنبريَّة والأدب، ولم يأخذ حقَّه من التّعريف والتّكريم.

استجلاء وقراءة:

الحذف يأتي بمعنى القطع من الشّيء وإسقاط الشّيء ورميه وضربه، ويأتي بمعنى هيَّأه وصنعه، ومن المجاز: حذفَهُ بجائزة أي: وَصَلَه بجائزة ونحوها، كلُّ هذه المعاني اللّغويّة أشارت إليها الدّراسةُ لربط المعنى اللّغويّ بالمصطلح، وذلك في بداية الفصل الأوّل من القسم النّظريّ.

ثم تطرَّق مُؤلِّفُنا إلى مُرادفات مصطلح الحَذف عند البلاغيّين والنّحاة وهي: الإضمار والاختزال والاتّساع والاختصار والإيجاز والطّرح والتّرك والطَّيُّ والتّقدير والاستتار. ولكن يبدو أنَّ تتبُّع المرادفات كان في كتب القدماء؛ لذا فمن الممكن أنْ يُستَدرَك على هذه المرادفات مصطلح الانزياح، وهذا استدراك من الدّراسات

(١) الدّكتور محمد رضا بن عبد الله الشّخص من مواليد الأحساء ١٣٧٥هـ، باحث وأديب وشاعر، صدرت له حتى الآن ستة كتب، وله تحت الطّبع ثلاثة دواوين شعريّة وبحوث أخرى، وله مشاركات بحثيّة في عدد من المؤتمرات العلميّة في دول غربيّة وعربيّة، بالإضافة إلى إحياء أمسيات شعريّة، ومحاضرات منبريّة مسجلة على اليوتيوب. هو أستاذ مشارك بقسم اللّغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب، جامعة الملك سعود بالريّاض.

الحديثة، حيث عدَّ بعضُ الدّارسين الحذفَ ضمن مفهوم الانزياح على مستوى تركيب الجملة، فهو يؤدّي وظيفةً من وظائف الانزياح وهي العُدول عن الذّكر، وقد أشار إلى هذا الدّكتور نور الدّين السَّد في أطروحته: (الأسلوبيّة وتحليل الخطاب)، حين عرَّف الانزياح قائلًا: «انحراف الكلام عن نَسَقه المألوف، وهو حدث لغويٌّ، يظهر في تشكيل الكلام وصياغته، ويمكن بوساطته التَّعرُّفُ على طبيعة الأسلوب الأدبيّ، بل يمكن اعتبار الانزياح هو الأسلوبَ الأدبيَّ ذاته». [ج١ ص ١٧٩].

وأودُّ أن أنبِّه هنا إلى أنَّ الحذف في القرآن لا يُقصَدُ به المعنى اللّغويّ الذي يُحيل إلى القطع من شيء مُثبَت في الكلام ومذكور، لأنَّ الدّخول في حرفيَّة مفردة المصطلح قد يُوهم بأنَّ الحذف في القرآن يُنقِص من كماله الأدبيّ، وأنّه قاصر عن إيصال المعنى، فيحتاج إلى تقدير ما يعبِّر عنه بالمحذوف، وبالتّالي فلا يصحُّ أنْ نستعمل كلمة حذف مع القرآن، غير أنَّ المقصود هو أوسع من ذلك، فالمعنى أصبح مفهومًا ضمن المفاهيم البلاغيَّة، والحذف في البلاغة يكون ممَّا تمَّ تقديره من الكلام على سبيل الظّهور مجازًا، وليس من أصل النّصّ المثبت.

في الفصل الذي خصَّه للبحث في تفسير معاني القرآن بنماذج من القرن الثّاني حتى السّابع الهجريّ، كأبي عبيدة والفرّاء والأخفش الأوسط والزّجّاج وابن جرير الطّبريّ والزّمخشريّ والقرطبيّ، وكذلك الفصل الذي خصَّه للبحث في كتب الإعجاز القرآنيّ بدءًا من القرن الرّابع إلى القرن العاشر الهجريّ، بنماذج محدَّدة بدءًا من الرُّمّاني والخطّابي والباقلّاني وعبد القاهر الجرجانيّ والفخر الرّازيّ وابن الزّملكانيّ وانتهاء بالزّركشيّ، والسّيوطيّ، وفي فصل خصَّه لكتب وصفها بأنّها كتبُ بلاغة، من القرن الثّالث الهجريّ إلى القرن الرّابع عشر، واختار نماذج بدءًا من (البيان والتبيين) للجاحظ، و(كتاب الصّناعتين) لأبي هلال العسكريّ، و(سرّ الفصاحة) لابن سنان الخفاجيّ، و(المثل السّائر) لابن الأثير، و(مفتاح العلوم) للسَّكّاكي، و(الإيضاح) للخطيب القزوينيّ، وانتهاء بـ(الطّراز) ليحيى بن حمزة العلويّ.

في هذه الفصول الثّلاثة تناول كيفيَّة معالجة هذه الكتب لأسلوب الحذف، وما تمخَّض عن ذلك من نتائج لها علاقة بالتّأسيس والتّنظير، ولا شكَّ أنَّ الأثر لجهود هؤلاء العلماء بمختلف عصورهم، في غاية الأهميّة؛ نظرًا لتطور المعارف من عصر إلى عصر، ونظرًا لاختلاف توجُّهات هؤلاء العلماء الفكريّة والمذهبيّة في التّأويل، وتباين آرائهم في التّعامل مع النّصّ القرآنيّ في ظاهرة الحذف.

وفي فصل جدير بالقراءة، وهو في اعتقادي سرُّ البَحث المكتشف، تناول المؤلِّفُ علاقة أسلوب الحذف (بنظريّة النَّظم) المقترنة بعبد القاهر الجرجانيّ، وإن كانت جذورها تمتدّ إلى سيبويه والجاحظ واتَّضحت أكثر عند الخطّابيّ والقاضي عبد الجبّار المعتزليّ ممَّن سبقوا الجرجانيّ كما يذهب مؤلِّفنا.

في هذا الفصل يبيِّن العلاقة الوثيقة بين أسلوب الحذف ودلالة التّركيب النحويّ، ويضيف إلى أهميَّة الحذف في تركيب الجملة بأنَّه يخلِّصها من الإطالة والتّرهل، ويخلِّصها من بعض القيود المُلزِمة في وجود مبتدإ وخبر مثلا، ويُسهم في جماليّة بعض التّراكيب كمراعاة الفاصلة لصالح جماليّة السّجع، كما أنّه يسهم في ابتكار تراكيبَ لغويّةٍ متنوّعة، وأخيرًا يُمكِّن التركيب من إلقاء الضّوء على الغرض من الموضوع، وبالتّالي يصبح الحذف نمطًا من أنماط النَّظم.

الوصول إلى هذه النّتيجة في وجهة نظريّ يُعَدُّ فتحًا جديدًا في بلاغة الحذف، حيث جعل المحذوف كالظّاهر لقوّة تأثيره في المعنى وفي جماليّة إيقاع الجملة وفنّيَّتها، وربَّما كان أكثر تأثيرًا من المذكور، وهذا ما يُؤكِّد حاجة الجملة إلى الحذف؛ لتكونَ أكثر بلاغةً وعُذوبةً، فهو يقترب جدًّا من التَّسمية الحديثة: (الكتابة فنُّ المحو).

أسلوب الحذف وعلاقته بالكاتب والنّصّ والمُتلقّي:

وإذا كان الحذف أسلوبًا من أساليب الكتابة فهو يدخل في معادلة التّلقّي التي تقوم على: الكاتب، والنّصّ، والمتلقّي. وقد أشار مؤلّفنا إلى أثر الحذف على النّصّ بأنّه يحميه من التّرهل والضّعف، وبالتّالي يسهم في تماسك النّصّ وإحكامه، فيتبقّى لدينا علاقة الحذف بالكاتب والمتلقي والتي لم تُشِرْ إليها الدّراسة.

ونستشفُّ هذه العلاقة من خلال تسمية ابن جنّيّ (ت: ٣٩٢هـ) حين تحدَّث عن الحذف في (باب شجاعة العربيّة) [راجع: الخصائص، ج٢ ص٣٦٠]، وهي تسميةٌ أدبيّة طريفة. ويسترسل ابن جنّيّ في إحدى وعشرين صفحة متحدّثا عن أنواع الحذف دون أن يذكر لنا لماذا عدَّ الحذف من شجاعة العربيّة؟

وقد علّل السّيوطيّ (ت: ٩١١هـ) بقوله: «وسمَّى ابنُ جنّي الحذف شجاعة العربيّة، لأنّه يُشجِّع على الكلام» [السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن، ج٣ ص ١٩٣]، بمعنى أنَّه يُحفِّز المتلقّي على مشاركة الكاتب في الكلام. ولكنَّ هذا التّعليل غيرُ كافٍ كما يبدو لي، فعبارة ابن جنّي ترمي إلى شجاعة ذلك الكاتب الواثق من قدرته ومهارته الكتابيّة؛ فالكتابة ميدانٌ والكاتب يقتحمها متسلّحًا بأساليب الإيجاز تلك التي يدافع بها ويهاجم؛ فيسدِّد ويُصيب المعنى، ومن شروط الشّجاعة القدرة والإقدام والثّقة، من هنا يكون الحذف علامةَ شجاعة للكاتب.

أمَّا عن علاقة الحذف بالمتلقّي، فبالإضافة إلى التّحفيز، فهناك افتراضٌ مُبطَّنٌ من قبل الكاتب في المتلقّي بأنَّه صاحبُ ذكاء ونباهة، ألم يقولوا :إنَّ اللبيب بالإشارة يفهمُ؟ فالحذف يُسهم في استثارة المتلقّي وإيقاظ تركيزه في الكلام لالتقاط ما وراء السّطور، بشرط أن تكون إمكانيّة إدراك المعنى وفهمه متحقِّقةً في النّصّ .

ذِكْرُ كلِّ شيء في الجملة حتَّى ما هو مقدَّر، قد يوحي بأنَّ في المتلقّي بلادة، ومن الجميل أنْ يُخاطَب المتلقّي على اعتبار أنه فَطِن للكلام؛ ليكونَ مشاركًا في تكوين المعنى، وعلى تعبير مؤلّفنا: «تحقيق المشاركة بين المنشئ والمتلقّي في تصوُّر المعنى العام»، فلربَّما أضاف معنى آخر، وهكذا نحظى بأكثر من معنى من قبل المتلقّين على اختلاف إدراكهم.

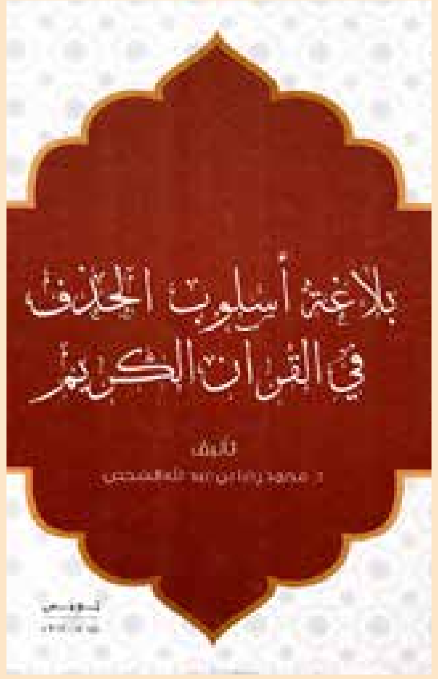

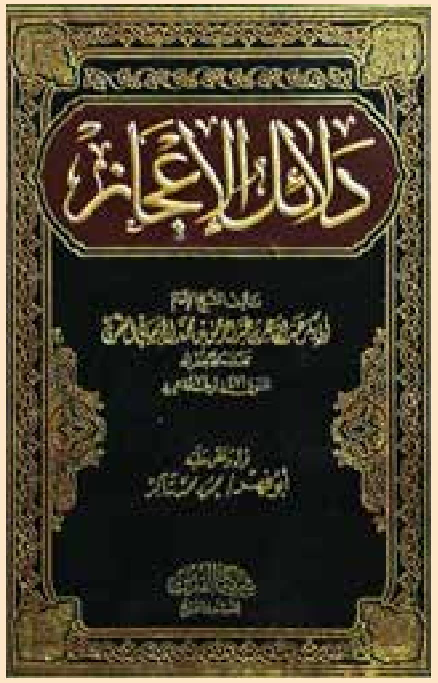

القسم التّطبيقيّ:

عادة في التّطبيق يتمُّ رَصْدُ الأمثلة، وإجراء القواعد عليها، بالشّرح والتّحليل والإحصاء والاستنتاج إلى غير ذلك من أدوات الإجراء، ولكن أنْ يتحوَّل هذا الإجراء إلى غوص على طريقة المفسِّر اللّغويّ، فهذا نادرٌ جدًّا في الدِّراسات التّطبيقيّة، فما بين أسلوب المفسِّر الموسوعيّ المنظَّم في تتبُّع كلِّ ما يتعلّق بالظّاهرة لإغناء نَهَم الباحث، وأسلوب العاشق للغة في إرضائه للحذف، ما بين هذين الأسلوبين يُشرق المعنى ويتجلّى السِّرُّ في المبنى، وبإمكان القارئ الوقوف على مثال واحد ليلمس ذلك بنفسه.

في هذا القسم من الكتاب والذي يُعَدُّ الكِفَّةَ الثّانيةَ لميزان الدّراسة، نقف على جملة ممَّا اشتغل عليه المؤلِّف عمليًّا، حيث جلَّى أسلوب الحذف من خلال المسند إليه والمسند ومتعلَّقات الفعل والجمل في كثير من الأمثلة القرآنيّة.

شدَّني في فصل حذف الجمل وصلته بالسّرد القصصي الفكرة التي عبَّر عنها بأسلوب (قصّ المناظر)، ومثَّل لها بشواهد من قصّة نبيّ الله سليمان عليه السّلام مع بلقيس، هذه الفكرة تتدخَّل في

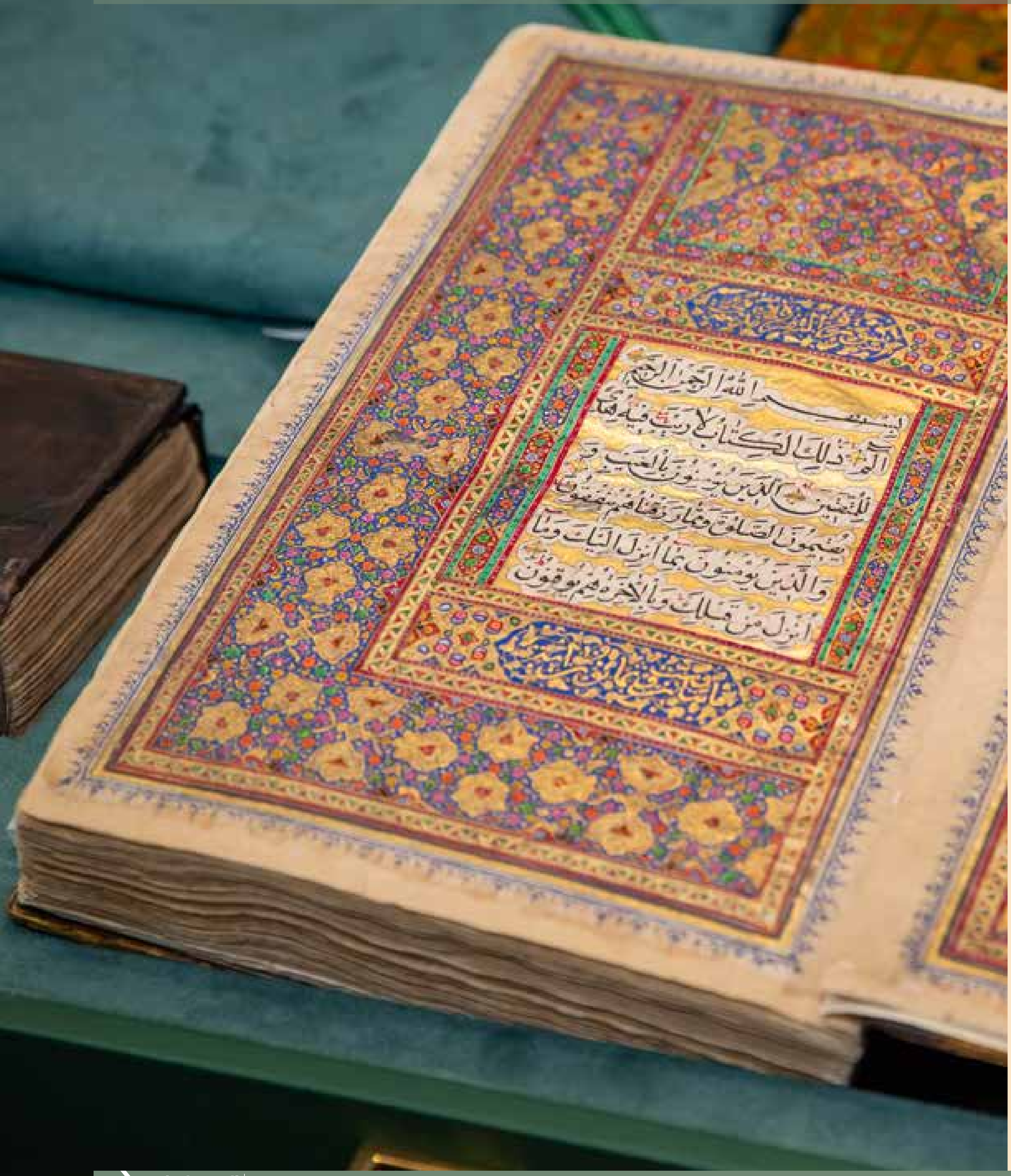

تقنية تركيب الصّورة، والتي تُعدُّ من تقنيات الإخراج السِّينمائيّ، ممَّا يَجعلنا نقول إنَّ الحذف ليس في ميدان الجملة فقط.

في الخاتمة نقف عند مجموعة من النّتائج التي توصَّلت إليها الدّراسة، نوجزها فيما يأتي:

١- العلاقة بين المعنى اللّغويّ والاصطلاحيّ.

٢- الرّبط بين نظريّة الحذف ونظريّة النّظم.

٣- الكشف عمّا هو جديد في مفردة البحث وطرقها ووظائفها.

إشارات ونظرات حول الكتاب:

ولنا أنْ نثبت هنا بعض التّقييمات التي هي بمثابة النّظرة العامة حول ما يحويه الكتاب من ملاحظات وتنبيهات، وهي تغطِّي جانبًا من القراءة التّفاعليّة، وقد اقتصرت في تدوينها على ثلاثة محاور هي:

١_لم يصرِّح المؤلِّف بالمنهج الذي اتَّبعه في دراسته في المقدِّمة، ولكنه من خلال إشارة عابرة في (ص ٢١٨) يضطرُّ للتصريح فيقول: (لأنَّ الدراسة هنا تعتمد المنهج الوصفي في تحليل النّصّ القرآنيّ).

فالدّراسة تقوم على جانب نظريّ تعرِّف من خلاله ظاهرة الحذف وتفسِّر الظّروف المحيطة بها بغية الوصول إلى نتائج موضوعيّة، وهذا الجانب الوصفيّ لا يكاد يخلو أيُّ بحث علميّ منه.

أمَّا الجانب الآخر، فهو تطبيقيّ يقوم على تحليل عناصر موضوع الحذف من خلال الآيات القرآنيّة، وفي عرضه للآراء نجد التّفسير والنّقد والاستنتاج وكل ذلك ضمن المنهج التّحليليّ.

والمزج بين المنهج الوصفيّ والتّحليليّ أمر لا بدَّ منه؛ لأنَّ الثّاني يكمِّل إجراءات المنهج الأوّل، ويساعد في بلوغ نتائج تعكس ما كان في القسم التّعريفيّ.

٢_ الإحالات التي في الهامش معظمها يخصّ الدراسات القديمة، ومن خلال إشارات وآراء المحقّقين الحديثين المختلفة وتعليقاتهم على هذه المصنّفات اللّغويّة والبلاغيّة، بالإضافة إلى الإحالات على دراسات حديثة، إلَّا أنَّ صوتها خجول أمام هيبة المصنّفات القديمة، ونحن نعرف أنَّ التّنوع في الإحالات والموازنة بين ما هو قديم وحديث يقوّي الدّراسة ويعصم نتائجها من الأحكام النّاقصة أو المكرّرة.

٣_بعض الأخطاء المطبعيّة وهذا أمر لا يخلو منه أيّ كتاب، ولكنّ الأخطاء وصلت إلى حدٍّ لا يمكن تجاهلها لدى القائمين على الطّباعة.

ومهما يكن من ملاحظات، فقد أسهمت الدّراسة إسهامًا كبيرًا في تحريك ما هو راكد في كتب البلاغة، وما هو مغفول عنه في الآيات من دقائق بلاغيّة، كما أنّها نبَّهت إلى وظائف جديدة لم يلتفت إليها الباحثون السّابقون حسب كلام المؤلّف، وهذه الوظائف لا تكتفي ببيان الغرض، بل تقوم على ربط أسلوب الحذف بكامل النّصّ، والمقارنة بين أسلوب النّصّ القائم على الحذف والأسلوب القائم على ذكر المحذوف.

ما وراء الكتاب:

ظهر لنا في المقدّمة أنَّ هذه الدّراسة جاءت لتأكيد دور البلاغة العربيّة في تبيان جماليّات القرآن الكريم، ولا شكَّ أنَّ المؤلّف أخلص لهذا الغرض بعددٍ من الأسئلة التي تحيط بأسلوب الحذف في القرآن الكريم، كما هي محدَّدة في المقدّمة، أمَّا ما لم يصرّح به الكتاب، فنستطيع أن نستشفَّه من خلال المادة الدّسمة التي قدَّمها لنا، وكأنَّ هذا الزّاد قُدِّم لإغراء الكتّاب والأدباء في النّظر إلى مسألة الإيجاز من نافذة الحذف التي تُطِلُّ على عوالم شتَّى في فنون القول.

ومن جانبٍ آخر، فإنَّ المؤلّف يؤكّد من طرف خفيّ على قراءة النّصّ القرآنيّ مِنْ خلال التّقدير، لا من خلال ظاهر الآيات، وهذه القراءة تُعطي فُسحة، ومجالًا أكبر للقراءة التّأويليّة على وفق ضوابط يحكمها المنهج والسّياق، وبالتّالي فهو يؤكّد على أهميَّة التّفسير اللّغويّ، وقراءة النّصّ القرآنيّ عبر اللّغة قبل كلّ شيء؛ ليكون المنطلق لكلِّ زاوية نظر في القراءة، وكون القرآن الكريم نصًّا أدبيًّا بامتياز، يعتمد بالدّرجة الأولى اللّغة في إيصال رسالته، فهذا مبرِّر للأدوات اللّغويّة ومناهجها بأنْ تحتلّ المكانة الأولى في تفسير القرآن الكريم.

قراءة بلاغية

لحديث أم معبَد في وصف النَّبيِّ ﷺ

الحمدُ للهِ الذي خَلقَ فسوّى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا خيرِ الورَى، وعلى آلِه وصَحبِه ومَن بهِمُ اقتدَى، وبعدُ؛ فإنَّ نبيَّنا محمّدًا ﷺ هو خيرُ الخَلقِ وأفضلُ البريّة. أحسنُ النّاسِ سَمْتًا وخُلُقًا، وأكمَلُهم هيئةً وخَلْقًا، ولكمالِ خِلْقتِه وخُلُقِه لم يُوَفِّه مَن وصفَهُ حَقَّ وَصفِه، وكانَ ممَّن وصفَ طلَّتَه البهيّةَ، وقسَماتِ وجهِهِ السويّةَ، امرأةٌ تُكنى بأمِّ معبدٍ الخزاعيّة، مرَّ بها النبيُّ ﷺ في هجرتِه من مكّةَ إلى المدينةِ، رأتْ على يدَيه الخيراتِ، وحلَّتْ بِمَقْدَمه عليها البرَكاتُ، فلمّا أنْ أرادَتْ وصفَهُ انطلقَ لسانُها بكلماتٍ هي غايةٌ في الدِّقةِ والبراعةِ، أبهرت بها مَن جاءَ بعدَها مِن أهلِ الفَصاحةِ والبَلاغةِ.

د. معتز وسام المحتسب
باحث في مركز إحسان لدراسات السُّنّة النَّبويّة

فالنَّبيُّ ﷺ حينَ أذِنَ له ربُّه بالهجرةِ إلى المدينةِ، خرجَ من مكّةَ ومعَهُ صاحبُهُ أبو بكرٍ الصدِّيقُ –رَضِيَ اللهُ عنه– ومولى أبي بكرٍ عامرُ بنُ فُهيرةَ، وخرج معهم عبدُ اللهِ بنُ أُرَيقِطٍ اللَّيثيُّ يدلُّهم على الطَّريقِ، وفي طريقهم إلى المدينةِ ألجأَهُمُ الجوعُ والعَطَشُ إلى خيمتَينِ في مكان يُدعى قُدَيدًا، وهُما لامرأة تُكْنى بأمِّ معبدٍ، وهي عاتِكةُ بِنتُ خالدٍ الخزاعيَّةُ، فاسْتَطْعَموها فَلَمْ يَكُنْ عندَها إلا شاةٌ عَجْفاءُ ليسَتْ بذاتِ درٍّ، فَمَسَحَ النَّبيُّ ﷺ ضَرْعَها، فامتلأَ بِبَركتِه لبنًا، فَشَرِبوا مِنْهُ بعدَ أَنْ سقى أمَّ معبدٍ وأشبَعها، ثمَّ ارتحلوا عنها، فلَمّا رَجَعَ زَوجُها أبو معبدٍ ورأى اللَّبنَ عَجِبَ ممّا رأى؛ إذْ لا حَلوبَةَ في البيت، فقالَتْ له: مَرَّ بنا رَجُلٌ مُبارَكٌ، مِن حالِه كذا وكذا، قالَ: صِفيهِ لِي يا أُمَّ مَعْبَدٍ، فقالَتْ:

«رَأَيْتُ رَجُلًا ظاهرَ الوَضاءةِ، أَبْلَجَ الوَجْهِ، حَسَنَ الخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلةٌ، وَلَمْ تُزْرِ بهِ صَعْلةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، في عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وفي أَشْفارِهِ وَطَفٌ، وفي صَوْتِه صَحَلٌ، وفي عُنُقِه سَطَعٌ، وفي لِحْيَتِه كَثافةٌ، أَزَجُّ أَقْرَنُ، إنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقارُ، وإِنْ تَكَلَّمَ سَما وَعَلاهُ البَهاءُ، أجْمَلُ النّاسِ وَأبْهاهُ مِن بَعيدٍ، وَأَحْلاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَريبٍ، حُلْوُ المنْطقِ؛ فَصْلٌ، لا نَزْرٌ وَلا هَذَرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ، رَبْعَةٌ؛ لا يُتَشَنَّى مِنْ طُولٍ، وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ؛ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلاثةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إنْ قالَ أَنْصَتُوا لِقَوْلِه، وإنْ أمَرَ تَبادَرُوا إلى أَمْرِه، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لا عابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ. قالَ أَبُو مَعْبَدٍ: هُوَ واللهِ صاحِبُ قُرَيْشٍ الَّذِي ذُكِرَ لنا مِن أَمْرِهِ ما ذُكِرَ بِمَكَّةَ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، ولأَفْعَلَنَّ إنْ وَجَدتُ إِلى ذَلِكَ سَبيلًا».

والمتأملُ في هذهِ الكلماتِ يجدُها على مستوىً عالٍ من الفصاحةِ في الأسلوبِ، والدِّقّةِ في التَّعبيرِ، فمِنَ السِّماتِ العامَّةِ لهذا النَّصّ:

- عذوبةُ الألفاظِ وسلاسَتُها وتناغُمُها وتآلُفُ بعضِها مع بعضٍ.
- الإيجازُ في اللَّفظِ، مع الإيفاءِ بالقَصْدِ؛ فهذهِ الكلماتُ الموجَزةُ أعطَتْ وَصْفًا متكاملًا للنَّبيِّ ﷺ
- ظهورُ المحَسِّناتِ البديعيَّةِ في الكلامِ دونَ تكلُّفٍ أو تصنُّعٍ.
- براعةُ الصُّوَرِ الفنيّةِ ودِقّةُ التَّشبيهاتِ.
- التَّسلسلُ المنطقيُّ في ذكرِ الأوصافِ؛ وذلك بِتَقديمِ الأوصافِ العامّةِ على الخاصَّةِ، وتقديمِ الصِّفاتِ اللازمةِ على المتعدِّيةِ.
- المراوحةُ بينَ الجُمَلِ الاسميّةِ والفعليّةِ، مع تغليبِ الجُمَلِ الاسميةِ لدَلالَتِها على الثُّبوتِ، ومقامُ الوَصفِ يَقتضي ذلك.

وهذا تحليلٌ تفصيليٌّ للنّصِّ:

بدأَتْ أمُّ معبَدٍ في وصفِ النَّبيِّ ﷺ بقولِها: « رَأَيْتُ رَجُلًا ظاهِرَ الوَضاءةِ» وفي ذلك حُسْنُ ابتداء؛ إذْ ذكرَتْ وصفًا عامًّا هو أوَّلُ ما يلفتُ نظرَ الرّائي؛ أيْ إنَّ النّاظرَ إلى النبيِّ ﷺ أوَّلُ ما يراهُ يرى رجلًا استجمعَ الوَضاءةِ في مظهَره، ويؤكّدُ ذلك استعمالُ المصدرِ (الوَضاءة) وإضافة لفظ (ظاهر) إليه، فقد عدلَت عن التَّعبيرِ بالصِّفة المشبَّهة (وضيء) بأن تقول: «رأيتُ رجلًا وضيئًا»، وتعبيرُها أبلغُ في الدَّلالةِ على استجماعِ الصِّفة وتمكُّنِها في الموصوفِ؛ لدلالةِ المصدرِ على كاملِ المعنى، إضافةً إلى الاستغراقِ الذي يُفيدُهُ دخولُ الألف واللّامِ على المصدرِ، وكأنَّ الوضاءةَ كلَّها ظاهرةٌ فيه ﷺ.

ثمَّ أعقبَتْ ذلك بِوَصْفِ أشرفِ أعضائه ﷺ الّذي هو الوَجهُ، فقالت: «أبْلَجَ الوَجْهِ» وذلك حسنُ اختيارٍ منها بِتَقديمِ ما لهُ شَرَفٌ على غيرِه، فوَصَفَت الوَجْهَ بالبَلَجِ وهو الإشراقُ، وهذا المعنى داخلٌ في قولِها المتقدّمِ: «رأيتُ رجلًا ظاهرَ الوَضاءةِ»، إلّا أنَّها أرادَتْ تخصيصَ الوَجهِ لِشَرفِه على سائرِ الأعضاءِ، ولأنَّه مَكْمَنُ التَّفاضلِ في الحُسْنِ والجمالِ، وفي ذلك إطنابٌ بِذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ.

بعدَ ذلك ذكرَتْ أنَّه «حَسَنُ الخَلْقِ»، وليسَ في هذا تكرارٌ لِقولها «ظاهرَ الوضاءةِ»؛ إذ الوضاءةُ الإشراقُ، وتظهرُ للنّاظرِ من الوَهْلةِ الأولى، أمّا حُسنُ الخَلْقِ فهو جمالُ الخِلقةِ وسلامتُها من العيوبِ والنَّقائصِ الخَلْقيّةِ، ويظهرُ ذلك للرَّائي بعدَ التأمُّلِ وإمعانِ النّظَرِ.

ثُمَّ قالَتْ: «لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلةٌ، وَلَمْ تُزْرِ بهِ صَعْلةٌ» وفي هذا تأكيدٌ لحُسْنِ الخَلْقِ بِنَفْيِ بعضِ العيوبِ الخَلْقِيّةِ، فالثُّجْلةُ كِبَرُ البَطنِ، والصَّعْلةُ صِغَرُ الرَّأسِ، وفي استخدامِها الفعلَ (لم تَعِبه) مع (الثُّجْلة)، والفعلَ (لم تُزرِ بهِ) مع (الصَّعلة) = حسنُ اختيارٍ للألفاظِ؛ فقد عبَّرت بِنَفْيِ العيبِ مع كِبَرِ البطنِ، وبِنَفْيِ الإزراءِ مع صِغَرِ الرَّأسِ؛ لأنَّ كبيرَ البطنِ قد يُعابُ ولكنَّه لا يُزدَرى ولا يُحتقَرُ غالبًا، وإنَّما الّذي قد يُزدَرى ويُحتَقَرُ صغيرُ الرَّأسِ، وبين (ثُجْلة) و(صَعْلة) سَجْعٌ حسنٌ.

ثُمَّ ذكَرَتْ أَنَّهُ ﷺ «وَسِيمٌ قَسِيمٌ»، وفي هذا تتميمٌ ( ) لقولها: «حَسَنَ الخَلْقِ»، فالوَسامة والقَسامة أَمْرانِ زائدانِ على حُسْنِ الخَلْقِ، فالوَسيمُ هو الحَسَنُ الوَضيءُ، كأنَّ الحُسْنَ صارَ له سِمةً وعلامةً، والقسيمُ هو جميلُ الوَجْهِ، كأنَّ كلَّ موضعٍ منه أخذَ قِسمًا من الجمالِ مع تلاؤمٍ وتناسُقٍ. وفي قولها: «وَسِيمٌ قَسِيمٌ» جِناس غير تامٍّ بين (وسيم) و(قسيم)، وفيه أيضًا حَذْفُ المسنَدِ إليه –وهو المبتدأ– لِظُهورِه والعِلْمِ بهِ، والتَّقديرُ: هو وسيمٌ قسيمٌ، فالجُملةُ اسميَّةٌ، وفي هذا عُدولٌ عن التَّعبيرِ بالجُملةِ الفعليّة للدّلالةِ على ثُبوتِ ما سَتَذْكُرُ مِنْ صِفاتٍ.

بعْدَ ذلك وصَفَتْهُ بأنَّهُ ﷺ: «في عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وفي أَشْفارِهِ وَطَفٌ، وفي صَوْتِهِ صَحَلٌ، وفي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وفي لِحْيَتِهِ كَثافةٌ، أَزَجُّ أَقْرَنُ»، وهذه جُملةٌ من الأوصافِ الخاصّةِ ذكَرَتْها للدَّلالةِ على وسامةِ النَّبيِّ ﷺ وقَسامَتِه، فهذا إطنابٌ بِتَفْصيلِ ما أَجْمَلَتْهُ في قَولِها: «وَسيمٌ قَسيمٌ»، فالدَّعَجُ: شِدّةُ سوادِ الحَدَقةِ في شِدّةِ بياضِ ما حولَها، ووَطَفُ الأشفارِ: طولُ الأهدابِ؛ وهي الشَّعَرُ النّابِتُ في طرَفِ الجَفنِ، والصَّحَلُ في الصَّوتِ: بُحّةٌ يسيرةٌ فيه تجعلُه أجملَ وأنقى مِنَ الصَّوتِ الحادِّ، والسَّطَعُ في العُنُقِ: طولٌ فيها، والأَزَجُّ: مَنْ كانَ في حاجبَيهِ دِقّةٌ مع طولٍ وتَقوُّسٍ، والأَقرَنُ: مقرونُ الحاجبَينِ، وقد كانَ بين حاجبَيهِ ﷺ اتّصالٌ يَسيرٌ يَظْهَرُ لمَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ. وفي قولِها: «في عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وفي أَشْفارِهِ وَطَفٌ، وفي صَوْتِهِ صَحَلٌ، وفي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وفي لِحْيَتِهِ كَثافةٌ» خمسُ جُمَلٍ اسميّةٍ تقَدَّمَ فيها المسنَدُ (الخبر) على المسند إليه (المبتدأ)، وفي هذا التَّقديمِ تشريفٌ لما تَضَمَّنَتْهُ هذهِ الأخبارُ مِنْ ذِكْرِ العَينَينِ والأشفارِ والصَّوتِ والعُنُقِ واللِّحيةِ، ووقَعَ المسنَدُ في هذه الجُمَلِ نكرةً، ودلالةُ هذا التَّنكيرِ هي أنَّ اتِّصافَهُ ﷺ بهذهِ الأوصافِ إنمّا هو بالقَدْرِ الذي يُعَدُّ حُسنًا وجمالًا؛ لأنَّ الزِّيادةَ على ذلك القدْرِ قد يكونُ معيبًا، وهذا المعنى لا يحصُلُ لو كان المسنَدُ إليهِ مُعَرَّفًا بالألِفِ واللّامِ الّذي يُفيدُ الاستِغراقَ المنافي للمَقصودِ.

ثُمّ قالَتْ: «إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقارُ، وإِنْ تَكَلَّمَ سَما وَعَلاهُ البَهاءُ»، وفي هذا الكلامِ عدولٌ من جانبَين: جانبٍ معنويٍّ وجانبٍ لفظيٍّ، أمّا المعنويُّ فهو الانتقالُ من الصِّفاتِ الحسيّةِ إلى صفاتٍ معنويّةٍ، فبعدَ أن ذكرَتْ بعضَ مظاهرِ جَمالِهِ الحسِّيِّ، وصفَتْه بالوَقارِ حالَ صمتِهِ وبالبَهاءِ حالَ تكلُّمِهِ، وهي صفاتٌ معنويّةٌ، وأمّا العُدولُ اللَّفظيُّ فهو الانتقالُ إلى التَّعبير بالجملةِ الفعليّةِ التي تدُلُّ على التجدُّدِ، والنُّكتةُ في ذلك أنَّ ما سبقَ كانَ من الصِّفاتِ اللازمةِ الثّابتةِ فَناسَبَ أن تُعبِّرَ عنه بالجُمَلِ الاسميّةِ، أمّا الوقارُ والبهاءُ فقد قيَّدَتْهُما بِحالِ الصَّمتِ أو التَّكلُّمِ وهُما مُتَجَدِّدان ولا يجتمعان في وقتٍ واحدٍ. والتّعريفُ في كلمتَي (الوقار) و(البهاء) يُفيدُ الاستغراقَ وبُلوغَ الغايةِ في هاتَينِ الصِّفتَينِ، بخلافِ ما لو قالت: «فعليهِ وقارٌ» و«علاهُ بهاءٌ». وفي قولِها: «فعليه الوقارُ» استعارةٌ؛ فقد شبَّهَت الوَقارَ الذي يَظهَرُ على النَّبيِّ ﷺ حالَ صمْته بالتّاجِ يعلو فوقَ رأسِهِ، وفي قولها: «علاه البهاءُ» استعارةٌ أيضًا؛ فقد شبَّهَتِ البَهاءَ الذي يبدو من النَّبيِّ ﷺ عندما يتكلّمُ بشيءٍ وضيءٍ يعلوهُ ويُظلِّلُه. وبين لفظَيْ (فعليه) و(وعلاه) جناس غير تامٍّ. وفي استعمالِ حرفِ الجرِّ (على) معَ الوقارِ، واستعمالِ الفعلِ الماضي (علا) معَ البهاءِ لَفْتةٌ لطيفةٌ؛ وهي أنَّ قولَها: «فعليه الوَقارُ» جملةٌ اسميّةٌ، وهي دالّةٌ على الثُّبوتِ والاستقرار، وهذا يُناسِبُ حالَ الصَّمتِ والسُّكونِ، أمّا قولُها: «علاه البهاءُ» فجملةٌ فعليّةٌ دالّةٌ على الحركةِ والتَّجدُّدِ، وهذا يُناسِبُ حالَ التَّحدُّثِ والتّكلُّم، ويمكن أن يقالَ: إنَّ قولَها: «فعليه الوَقارُ» يشيرُ إلى أنَّ الوقارَ والسَّكينةَ تتنزَّلُ عليهِ ﷺ مِن فوقُ، أما قولها: «علاهُ البهاءُ» فيشيرُ إلى أنَّ البهاءَ والإشراقَ يخرُج منه ﷺ ثم يعلوه.

ولم تكتَفِ أمُّ معبدٍ بِذِكْرِ صفاتِ الحُسنِ والجمالِ عندَ النَّبيِّ ﷺ ، بل زادت على ذلك أَنْ فَضَّلَتْهُ على مَن كان مَعَهُ فقالت: «أَجْمَلُ النّاسِ وَأَبْهاهُ مِن بَعِيدٍ، وَأَحْلاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ»، وهذا إطنابٌ؛ لأنّ هذا المعنى سبق في قولها قبلُ: «حسن الخلق»، ولكنّ هذا الإطنابَ فيه فائدة؛ إذ الحُسْنُ والجمالُ من الأمورِ النّسبيّة، فقد يكون المرءُ في نفسِه جميلًا، لكنَّه إذا ما اقترنَ بغيرِه قد يفقدُ شيئًا من ذلك الحُسْنِ، لذا نبَّهت أمُّ معبدٍ على هذا الأمرِ وبينَّتْ أنَّهُ ﷺ متصدِّرٌ في الحسنِ والجمالِ حتّى وإنْ كانَ معَ غيرِه، وسواءٌ رآهُ النّاظرُ مِنْ بعيدٍ أم من قريبٍ، واختيارُها الوصفَ بالجمالِ والبهاءِ مع البُعْدِ، والوصفَ بالحلاوةِ والحُسْنِ معَ القربِ كانَ دقيقًا؛ لأنَّ الحُكْمَ بالجمالِ والبهاءِ يظهرُ للنّاظرِ من بعيدٍ، أمّا الحكمُ بالحلاوةِ والحسنِ فإنّه يحصلُ للمُتأمِّلِ المدقِّقِ من قريبٍ. وفي هذه الجملة حُذِفَ المسنَدُ إليه للعِلْمِ به، والتَّقدير: «هو أجملُ النّاسِ..»، ويُلحَظُ أنَّها رجعَتْ إلى التَّعبيرِ بالجملَةِ الاسميّة، وذلكَ لِتَقريرِ ثُبوتِ ما سَتَذْكُرُه. وبين (بعيد) و(قريب) طِباقٌ حسنٌ.

ثمَّ وصفَتْ كلامَهُ فقالَتْ: «حُلْوُ المَنْطِقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ وَلا هَذَرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ»، فبدأَتْ بِتَشْبيهِ كلامِهِ بشيءٍ حُلوِ المذاقِ كالعسلِ ونحوِهِ، وهذا على سبيلِ الاستعارةِ، فلما كانَ منطِقُه ﷺ في أذنها طيِّبَ المسمَعِ شبَّهَتهُ بشيءٍ طيِّبِ المذاقِ، ثمَّ ذكرَتْ أنَّ كلامَهُ «فصْلٌ لا نزْرٌ ولا هَذَرٌ»، أيْ إنَّ كلامَه وسَطٌ بينَ النَّزْرِ والهذَر فاصلٌ بينهما، والنَّزر هو القليلُ، والهَذَرُ هو الكثيرُ، فبَيْنَ اللَّفظَين طِباقٌ، فليسَ كلامُهُ بِقليلِ لِعِيٍّ أو عجْزٍ، ولا بكثيرٍ مُمِلٍّ، والمقصودُ أنَّ كلامَه ﷺ واضحٌ بيِّنٌ مِن غيرِ إقلالٍ يُحدِثُ في المعنى إخلالًا، ولا إكثارٍ يورِثُ في النَّفسِ إملالًا. ثمَّ شبَّهَتْ كلامَهُ ومنطِقَهُ بخَرَزاتِ عِقْدٍ تَتَحدَّرُ، والجامعُ بينَ المشبَّهِ والمشبَّهِ بِهِ هو السَّلاسةُ في كلٍّ. وفي قولها: «حُلْوُ المَنْطِقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ وَلا هَذَرٌ» حذفت المسندَ إليه في موضعَينِ، الأوّلُ في قولِها: (حلوُ المنطقِ)، والتقديرُ: هو حلوُ المنطقِ، والمقصود به النبيُّ ﷺ، والآخَرُ في قولِها: (فصلٌ)، والتّقديرُ: كلامُهُ فَصْلٌ، وحذفُ الأولِ لظهورِهِ وكمالِ العلمِ بهِ، والثّاني لدِلالةِ السِّياقِ عليه.

بعدَ ذلكَ انتقلَتْ إلى وصفِ قامَتِهِ فقالت: «رَبْعةٌ؛ لا يُتَشَنَّى مِنْ طُولٍ، وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ»، فبدأَتْ بجملةٍ اسميّةٍ محذوفةِ المبتدأ للعِلْمِ بهِ، والتّقديرُ: هو ربعةٌ، والرَّبعةُ هو متوسطُ القامةِ بينَ الطُّولِ والقِصَرِ، ثم أكَّدت ذلكَ بقولِها: «لا يُتَشَنَّى مِنْ طُولٍ، وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ» ففيهِ إطنابٌ بالتَّذييلِ، وبين (طول) و(قصر) طباقٌ، ومعنى (لا يُتَشَنَّى): لا يُعاب، مِن: شانَ يشينُ شينًا، ومعنى (لا تَقتحِمُه): لا تحتقره، والمقصود: وصفُه –صلّى الله عليه وسلَّم– باعتدالِ القامةِ، فلا يُعابُ لِطولٍ مُفرِطٍ ولا يُحتقَر لقِصَرٍ بَيِّنٍ، واختيارُها الفعلَ (يُتَشَنَّى) مع الطُّول والفعلَ (تقتَحم) مع القِصَرِ فيه دقّةٌ؛ لأَنَّ من كانَ مُفرِطًا في الطُّولِ قد يُنظَرُ إليه على أنّ فيه شيئًا من الشَّينِ، أمّا من كان قصيرًا فيزيدُ على الأوَّلِ بأنَّه قد يُحتَقَرُ ويُسْتَصغَر شأنُه، ثم إنّها لم تذكرِ فاعلَ الفعلِ (يُتَشَنَّى) وبَنَتْهُ للمفعولِ، وذكرَتْ فاعل (تقتحم)؛ لِيَعُمَّ النَّفيُ كلَّ فاعلٍ في الأوّل؛ لأنّه ﷺ كانَ أقرَبَ إلى الطُّولِ مِنْهُ إلى القِصَر، وهذا الطّولُ لا يَراه أحدٌ شينًا.

ولم تُغفِل أمُّ معبَدٍ من كانَ مع النبيِّ ﷺ، فقد ذكَرَتْ مكانتَهُ بينَهم وقالت: «غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ»، فَشَبَّهَت النبيَّ ﷺ بينَ رفيقَيهِ بالغُصنِ بينَ غصنَينِ في حُسنِ الهيئةِ والقامةِ، وعلَّلت ذلك فقالت: «فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلاثةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا»، وهنا ذكرت المسندَ إليه (المبتدأ: هو) على خلافِ ما سبقَ في مواضعَ من كلامها، وذلك للتَّخصيصِ حين ذُكِرَ معَهُ غيرُه.

ثمَّ ختَمَتْ وَصْفَها للنَّبيِّ ﷺ بِذِكْرِ توقيرِ صَحْبِهِ له وتعظيمِهم إيّاه فقالَتْ: «لَهُ رُفَقاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إِنْ قالَ أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ، وإِنْ أَمَرَ تَبادَرُوا إِلى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لا عابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ»، وفي هذا براعةُ خِتامٍ لِكَلامِها، إذْ بيَّنَتْ في هذه الخاتمة أَثَرَ الصِّفاتِ الخَلْقِيّةِ والخُلُقِيّةِ للنَّبيِّ ﷺ في مكانتِهِ الاجتماعيّةِ، فالمحفود: هو المخدومُ، والمحشودُ: الّذي يجتمعُ النّاسُ إليهِ. ومعنى قولِها: «لا عابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ»: ليس بِعابِسِ الوجهِ، ولا منسوبًا إلى قِلّةِ العقلِ وكثرةِ الخطأِ بسببِ الهرمِ، صلواتُ ربي وسلامُهُ عليه.

وبهذا الأسلوبِ البارعِ كانَ وصفُ أمِّ معبدٍ النَّبيَّ ﷺ، فقد وصفَتْ شيئًا من محاسنِ خِلْقَتِهِ ومكارمِ خُلُقِهِ، وما ترتَّبَ على ذلك مِن علاقَتِهِ بمَن حولَه وحُسنِ معاملتِهم له.

لغتي العربيّة

بين الضّبط والإثراء

د. عبد الكريم صالح الزَّهراني
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

عزيز على القلم أنْ يصف جلالًا، إذا وقَع في هيبة الجمال والكمال، إنّها لُغتي التي اكتمل بناؤها، واتّسقت تراكيبُها، وانتظمت ألفاظُها، فجاءت أساليبُها مكتملةَ الصّنعة، ومتّسقةَ البناء، منضبطةً في غير اقتصاد، ولها ثراء من غير اضطراب. وقد وقع في فكري أنْ يكون حديثي في هذه المقالة حول الضّبط والإثراء فهما همّان تحركت من أجلهما الهِمم، وعُقدت لهما العزائم، فظهر لنا عجيبُ ما كتبوه، وبديعُ ما صنعوه؛ إذ دار كلُّه في فلك الضَّبط والإثراء، وكلاهما يستدعي صاحبه، ولا شكَّ أن الضَّبطَ والإثراءَ سبقهما مراحلُ عديدة، وخطواتٌ مديدة. فالقياس، والتّقليب، والدوائرُ العَروضيَّة، قوانينُ مُحْكمةٌ، وقواعدُ شاملة منضبطة للضّبط والإثراء، وهما ما سعى إليهما علماء العربيّة قديمًا، وما زال السّعيُ إليهما في العصر الحديث حثيثًا.

ويتصدّر المشهدَ في العصر القديم الخليلُ بنُ أحمد الفراهيديّ (ت: ١٧٠هـ)، فقد أسّس للقياس ووصل الغاية فيه، وصنع كتابَ العين على نظام التّقليب، وقد أثّر في الحركة العلميّة بعده، ووضع الدّوائر العَروضيَّة المتكاملة، فلم يستطع أحدٌ أنْ يأتي بإيقاع خارج إيقاع دوائره. وقد كان هذا الصّنيع استثمارًا بديعًا من الخليل بنظرته الحصيفة للحركة العلميّة فوجَّهها توجيهًا غيَّرَ المسار لقواعد رياضيّة تُحصي وتختصر الجهد والوقت، وتضبط، وتُثري. وقد كان الاستقراء لدى الخليل استقراءً تَصنيفيًّا، واستقراءً رياضيًّا.

ويُعَدُّ هذا الاستقراء من أهمّ خطوات المعجم التّاريخيّ، وسنذكر في هذا المقال ما وصل إليه علماءُ العربيّة من قياس، وتقليب، ودوائر عروضيّة، لنعقد المقارنة بين عصرين هدفهما الضّبط والإثراء؛ لكي نُسهمَ في شحذ الهمم، ونقدحَ زناد الفكر، ونبيّن طريق الاستقراء التّصنيفيّ للمُعجم التّاريخيّ للغة العربيّة الذي بدأ العمل لصناعته، والتّخطيط لحاجاته، والتّصنيف والتّوزيع لعمله، فسيكون استثمارًا بديعًا لاختزال الحوسبة العربيّة في ثوبه، والإفادة منه، وسيجد الباحثون في تصنيفاته ضالّتهم؛ ففيه الفوارقُ اللفظيّة، والتّبايناتُ الشّكليّة، والمتشابهاتُ الوضعيّة، وسيكون –بإذن الله– صناعةً معجميّة عظيمة، تنير الطّريق للباحثين في المجالات اللّغويّة المختلفة.

وسيكون الحديث عن الضّبط والإثراء من خلال تأسيس علماء اللّغة العربيّة لثلاث قضايا، هي: القياس النّحويّ، والتّقليب المعجميّ، والدّوائر العَروضيَّة للشّعر العربيّ، وبهذا يستوفي الحديث جميع المستويات اللّغويّة، المفردة والتّركيب، والنّصّ الأدبيّ، فَقد كان جمع اللّغة في حقول دلاليّة محدّدة بدايات أوليّة للمعجم العربيّ.

وقد رسمَ لنا الخليل طريقًا ومنهجًا واضحًا في نظامين عظيمين: نظام التّقليب للمعجم العربيّ، ونظام الدّوائر العَروضيَّة للشّعر العربيّ وأوزانه، مع وصول الخليل بن أحمد الفراهيديّ للغاية في القياس فقالوا عنه إنَّه: «كان الغاية في استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه»(١)، وقد عدَّه ابن جنّيّ (ت: ٣٩٢هـ) «سَيِّد قومه، وكاشف قناع القياس في علمه» (٢).

(١) أخبار النحويين البصريين: ص ٣١. وبغية الوعاة: ١/٥٥٧.

الخليل الفراهيدي

فالقياس قديم في العربيّة، لجأ إليه النّحاة منذ وضعوا أُسُسَ علم النّحو، وبدأ التّأليف فيه بعد أن أصبح علمًا قائمًا بذاته؛ فيروي ابن سلّام الجمحيّ (ت: ٢٣١هـ) في كتابه طبقات فحول الشّعراء ما نصّه: «وكان أوّل من أسسّ العربيّة، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها: أبو الأسود الدؤليُّ»(٣)، وذكر ابن سلّام أيْضًا أنَّ عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ (ت: ١١٧هـ): «كان أوّل من بَعَجَ النَّحوَ ومَدَّ القياس والعلل» (٤).

ولا ريب أنَّ النّحاة بعد الخليل، بصريّهم وكوفيّهم، قد نهلوا من معين علمه، وعَبُّوا من بحر فكره وعقله، فهذا سيبويهِ تلميذُهُ قد اعتدَّ بالقياس اعتدادًا كبيرًا، وكتابُهُ خيرُ دليل على ذلك. وفيه يقول ابن جنّيّ: «ولمّا كان النّحويّون بالعرب لاحِقين، وعلى

(٢) الخصائص: ١/٣٦٢.
(٣) طبقات فحول الشعراء: ١ / ١٢
(٤) السابق: ١/١٤.

سَمْتهم آخذين، وبألفاظِهم مُتحلِّين، ولمعانيهم وقصودهم آمِّين، جاز لصاحب الكتاب هذا العلم الذي جمع شعاعَه، وشرَع أوضاعه، ورَسم أشكالَه، ووسم أغفالَه، وخلجَ أشطانه، وبعج أحضانه، وزمَّ شوارده، وأفاء فوارده، أن يرى فيه نحوًا ممَّا رأوا، ويحذوه على أمثلتهم التي حذوا، وأن يعتقد في هذا الموضع نحوًا ممّا اعتقدوا في أمثاله، لا سيَّما والقياس إليه مُصْغٍ، وله قابل، وعنه غير متثاقل»[٥].

وقد جاء بعد سيبويه نحاة اهتمّوا بالقياس، وأَوْلَوْهُ عنايَتهم، ومنهم أبو الحسن الأخفش (ت: ٢١١هـ) الذي لازم سيبويه وتتلمذ له، وأخذ عنه، وألَّف في القياس كتاب المقاييس في النَّحو[٦]، ومنهم أبو عثمان المازنيّ (ت: ٢٤٧هـ) الذي كان يقول: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم»[٧]، وليس كتابه «التّصريف» الذي شرحه ابن جنّي إلا دليلا على اعتنائه واهتمامه الكبير بالقياس على كلام العرب، ومنهم: أبو العباس المُبرِّد (ت: ٢٨٦هـ) الذي قال فيه الأزهريّ: «كان من أعلم النّاس بمذاهب البصريّين في النّحو ومقاييسه»[٨]، وقد وصفه ابن جنّي بقوله: «يُعدُّ جَبَلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا، وهو الذي نقلها وقَرَّرها، وأجرى الفروع والعِلَلَ والمقاييسَ عليها»[٩]، وقد عَدَّهُ الدّكتور شوقي ضيف (ت: ٢٠٠٥م) -رحمه الله- آخر أئمة المدرسة البصريَّة الـمُهِمِّين[١٠].

وأما نظام التّقليب في معجم العين فكان هدفُه الإثراء اللّغويّ، ومنهج التّقليب أثَّر في الفكر اللّغويّ من بعد وضعه، فلا تكاد تجد مؤلَّفًا بعد كتاب العين إلا يشير إليه أو يدور في فلكه، فهو استثمار لتوجيه التَّفكير لجمع اللّغة وتقليبها على وجوه مختلفة، ليتمَّ استنطاق التّراكيب وقياسُها على الصّحيح؛ فهي عمليّة مكتملة لإثراء اللّغة وضبطها.

وأمّا نظام الدّوائر العَروضيَّة فقد جاء مكتملًا منضبطًا؛ إذ ذكر

(٥) الخصائص لابن جني: ١/٣٠٩-٣١٠.
(٦) الفهرست لابن النديم: ص ٧٥. وانظر المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، ص ٩٤.
(٧) المنصف: ص ١٧٥-١٧٧. وانظر الخصائص: ١/٣٢٨.
(٨) تهذيب اللغة للأزهري:١/٢٤.
(٩) سر صناعة الإعراب لابن جنّيّ: ١/١٤٠.
(١٠) المدارس النحوية، د. شوقي ضيف: ص١٤٢.

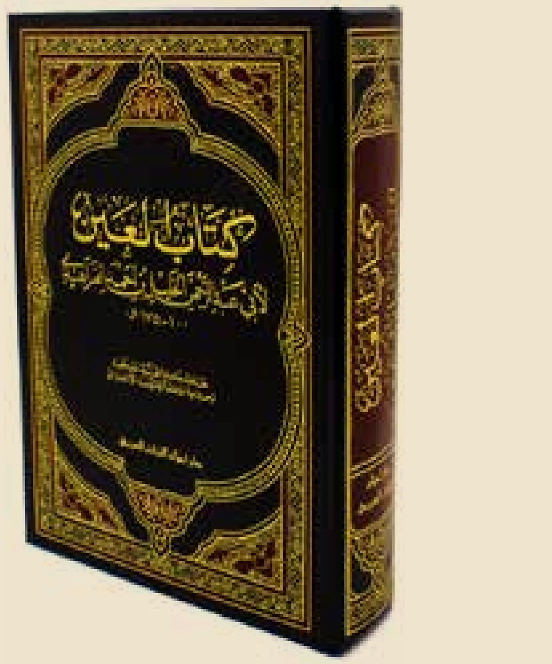

العلماء أنّه عِلْمٌ وُلِدَ مكتملا؛ فهدف الخليل من هذا النّظام كان للضّبط والإثراء، فالخليل كان يُحصي المتحرّك والسّاكن، وتتابع ذلك في دوائر تتكوّن منها التّفعيلات المكوّنة للأبيات الشّعريّة.

وقبل تحديد الأدوات التي استعملها الخليل في ضبط بُحور الشّعر نودّ توضيح ثلاث خطوات منهجيّة قام بها في وضع علم العَروض، وهي سابقة لهذا العلم، بَل هيَ من المسلّمات التي لا بد منها حتّى استقام هذا العلم وتمّ بناؤه، وهيَ:

١- الاستقراء: وتتطلّب هذه العمليّة جمع كميّة كبيرة من الشّعر الجاهليّ وشعر صدر الإسلام وبني أميَّة، وبذل فيها الخليل جهدًا كبيرًا، وأنْجزها على أتَم وجه. وكانت نتائجها مُطْمَئِنة؛ وَقَد لَخَّصت الدَّوائر العَروضيَّة ما تَوصّل إليه الخليل، كما أنَّها جاءت شاملةً جميع الإيقاعات سواء كانت مُستعملة أو مُهملة.

٢- التّحليل: وتحليل الخليل الذي أجراه على العيِّنة التي اختارها يقوم على تجزئة الكلّيات، ثمَّ تصنيف الجزئيَّات على أساس الاتّفاق؛ فقد وجد أنَّ البيت ينقسم إلى شطرين، وكلّ شَطر يضمُّ تفعيلات، والتّفعيلات مكوّنة من أسبابٍ وأوتاد، ومن ثَمَّ وضع المتشابه والمتّفق والمختلف في خمس دوائر، كلٌّ نوع مع ما يناسبه.

٣-وضع القوانين واختيار الأدوات: جمع الخليل شعر العرب، واستعرضه، ونظر فيه؛ وكان كما يرى بعض الباحثين- أوَّلَ عمل قام به أنَّه صنَّف الشّعر إلى أجزاء؛ فوجدها خمسة عشر جزءًا -أو ستَّة عشرَ جزءًا كما نرى نحن-، ثُمَّ جعل هذه الأجزاء في مجموعات، ولم يتمَّ له ذلك إلا بعد تجزئة الأبيات إلى أصغر وحداتها وهي التّفعيلة، ومن ثَمَّ تقسيم التّفعيلة إلى أسباب وأوتاد ثمّ صنَّفها بعد بناء الجزئيّات.

وتُعدُّ الدّائرةُ العَروضيَّة التي وضعها الخليل هي وحدة القياس التي اختزل فيها جميعَ المراحل التي نرى أنّه مرَّ بها في تفكيره، وهي الهدف الأخير للخليل بعد التّصنيف، وقد كانت وحدة قياسيّة رائعة؛ فمن خلالها نتمكّن من فحص البيت؛ لنعرف مكانه من البحور، كما ندرك من خلالها موطن الخلل. ولم يتم ذلك للخليل إلا لقوّته ومعرفته بالجزئيّات التي يتكوّن منها البيت، وقد حدّد الخليل الأدوات التي استعملها ليتمكّن من فحص البيت ومعرفة بحره وسلامته من الكسر كما يأتي:

- التّفعيلة: حدّد الخليل التّفعيلة التي يتكوّن منها البيت. ولمعرفة الخليل أنّ الشّعر عبارة عن أصوات، وأنّ الوحدة الصّوتيّة تنتمي إلى صوتين هما: الحرف المتحرّك والحرف السّاكن، استطاع بهذه الأداة أنْ يختزل جميع الأصوات من خلال التّفعيلات فوجدها تنتمي إلى فئتين، هما: تفعيلات مكوّنة من خمسة أحرف، وتفعيلات مكوّنة من سبعة أحرف.

والتّفعيلات الخماسيّة هي: فاعلن، وفعولن. والتّفعيلات السّباعيَّة هي: مستفعلن، ومتفاعلن، ومفاعيلن، ومفاعلتن، وفاعلاتن، ومستفع لن، وفاع لاتن، ومفعولاتُ.

- الدّائرة: تُعدّ من الأدوات التي استعملها الخليل لحصر تتابع المتحرّك والسّاكن. وقد وجد الخليل أنّ الشّعر العربيّ في إيقاعاته ينتمي إلى خمس دوائر. وهذه الأداة هي الوحدة النّهائيّة لقياس النّاتج؛ وتُعدُّ أهمَّ وحدة لقياس صحَّةِ الهدف وبناء القاعدة العَروضيَّة، ومن خلال هذه الدّوائر استطاع الخليل أنْ يحصر الشّعر العربيّ في هذا القياس البديع كما يأتي:

-الدّائرة الأولى: هي دائرة المختلف. ومن خلال اسمها تُدرِك أنَّ تفعيلات بحورها مختلفة بين الخماسيّة والسّباعيّة.

وتضمُّ هذه الدّائرةَ ثلاثةَ بحور مستعملة هي: الطَّويل، والبسيط، والمديد.

-الدّائرة الثّانية: دائرة المؤتلف. وسمّيت بالمُؤتلف؛ لائتلاف أجزائها وتماثُلها[١١]، وفيها بحران مستعملان، هما: الوافر، والكامل.

-الدّائرة الثّالثة: هي دائرة المجتلب. وسمّيت بالمجتلب؛ لأنَّ أجزاءها اجتلبت من دائرة المختلف؛ فمفاعيلن من الطّويل، ومستفعلن من البسيط، وفاعلاتن من المديد[١٢]. ولا يوجد مُهمل في هذه الدّائرة. وهي مسدّسة الأجزاء وأبحر هذه الدّائرة هي: الرّمل، والهزج، والرّجز.

-الدّائرة الرّابعة: وهي دائرة المشتبه. وسمّيت بالمشتبه؛ لاشتباه أبحرها؛ لأنَّ مستفعلن في الخفيف والمجتثّ مفروقة الوتد وفي غيرها مجموعة، وفاعلاتن في المضارع مفروقة الوتِد وفي غيرها مجموعة[١٣]. وفيها ستة أبحر مستعملة هي:

(١١) في علميّ العروض والقافية، د. أمين علي السّيّد، دار المعارف بمصر، ط ١، د. ت.، ص١٥٥.
(١٢) العيون الغامزة على خبايا الرّامزة، للدّماميني، تحقيق الحساني عبد الله، مطبعة المدني: ص: ٥٣.
(١٣) الزّحاف والعلّة رؤية في التّجريد والأصوات والإيقاع، د. أحمد كشك، مكتبة النّهضة المصرية، ط١، ص٧٧.

أبي العباس المبرّد

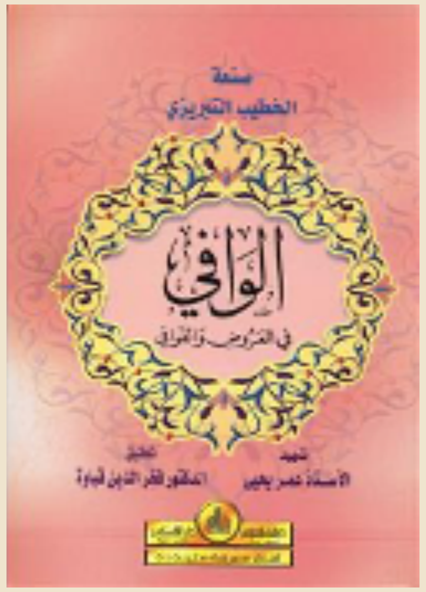

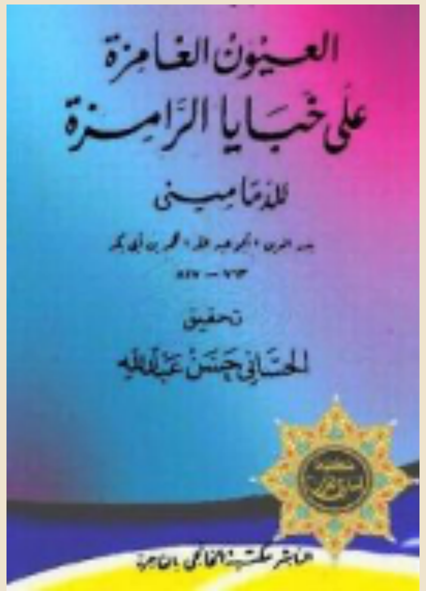

الخفيف، والمضارع، والمقتضب، والمجتثّ، والسّريع، والمنسرح.

- **الدّائرة الخامسة:** وهي دائرة المتّفق. وفيها بحران، هما: المتقارب، والمتدارك. وسمّيت بدائرة المتّفق لاتّفاق أجزائها(١٤).

ولعلك تلحظ أنّ هناك هدفًا واحدًا كان يسعى الخليل إلى تحقيقه من خلال دوائره هو وضع قياس يستطيع استخدامه الجميعُ لمعرفة بحور الشّعر العربيّ العموديّ، وعندما نسعى لتحقيق الهدف نفسه بآليّة أخرى واستخدام الحاسب الآليّ فلا شكّ أنّ أوْجُه التّلاقي بين إحصاء الخليل والحاسب الآليّ سيكون موحّدًا في كثير من قضاياه، وإليك لمحةً عن هذه الوجوه.

تتلاقى فنونٌ كثيرة وعلومٌ شتّى في رصد الإيقاع، كما أنّها تتضافر لتحديد الإيقاع العروضيّ، والعجيب أنّ المتحدّثين عن هذا العلم قالوا: إنّه نشأ فجأةً دون مقدّمات وتدرّج في النّشأة حتّى وصَل إلى كماله بل وُلِد كاملا، وهذا أمر يؤكّد لنا العبقريّة التي كان يتمتّع بها الخليل؛ فقد استطاع أن يصنع علم العروض ويلتقطه من بين معالم ومعارف كان يتمتّع بها، فقد شكّله الوضع اللّغويّ من جهة، كما شكّله علمُ الإيقاع من جهة أخرى، وقد أعطاه الإحصاء الرّياضيّ للحروف السّاكنة والمتحرّكة، مع بيان تتابعها بُعدًا ثلاثيًّا، وبذا كَمُلت صورته بين هذه العلوم، ولو تعدّيت في طرف اختلّت مَعالمه في الطّرف الآخر، فكان لزامًا على الخليل بن أحمد العربيّ أن يأخذه ويلتقطه من بين هذه العلوم، وهذا يؤكّد الخبرة التي كان يضطلع بها « رحمه الله » في علوم كثيرة. وعلم اللّغة والواقع اللّغويّ العربيّ أحدُ الأركان والخطوط التي تضع مَعلمًا من معالم علم العروض؛ فالصّوت وتحديده لا يتجاهله علمُ العَروض، كما أنّ علم الإيقاع له مصطلحٌ يشترك مع علم العَروض في استعماله لفظًا ومعنًى، كما أنّ الإحصاء الرّياضيّ يحسم لنا عدد الحروف وتتابع الحركات والسّكنات.

نستطيع القول: إنّ المشترك بين دوائر الخليل والحاسب الآليّ هو الكشف عن البحر باستعمال نظريّة الإحصاء والتّتابع؛ فكانت الدّائرة وَحْدة قياس استطاع الخليل بواسطتها الكشفَ عن البحور الشّعريّة، والحاسب الآليّ اتّخذ مكان الدّوائر طُرقًا علميَّة تُعطي وتفرز النّتائج التي وَجدها الخليل من خلال الدّوائر العَروضيَّة.

ولنا تجربة في وضع برنامج لمعرفة الشّعر وتمييز بحوره، وصحيحه من مكسوره، اتّفقنا مع الخليل في استعمال تلك الرّموز التي استعملها للحرف المتحرّك، والسّاكن؛ حيث رُمِز للحرف المتحرّك بشرطة مائلة (/) ورُمز للسّاكن بدائرة (O)؛ ليؤكّد لنا أنّ الزّمن الصّوتي للحرف المتحرّك أكبر قدرًا من الحرف السّاكن في زمن نطقه.

(١٤) العيون الغامزة، ص ٦١.

وقد ركّزنا على الحساب الزّمني الذي كان هدفًا واضحًا عند الخليل؛ إذ كانت التفعيلات نماذج كميّة تحوي في إطارها كثيرًا من النّسب الزّمنيّة، ومنها على سبيل المثال: فاعلاتن؛ حيث جاءت على صور متعدّدة فزمنها واحد وبصور مختلفة(١٥)، وهذا ما تثبّت في المعالجة الآليّة لدينا وخاصة فيما يتعلّق بالقاعدة الصّوتيَّة التي وجب أنْ نحوّلها إلى زَمنها الصّوتيّ.

إنّ الهدف الذي كان يسعى إليه الخليل هو إثراء اللّغة وضبطها وزيادة حجمها لفظًا وأسلوبًا، وللوصول إلى هذا الهدف اتّبع الخليل منْهجًا اشتمل على ثلاث مراحل، هي: الجمع، والاستقراء، والتّحليل. وهذه الأهدافُ نفسُها يُمكن تحقيقُها بواسطة التّقنية الحديثة، واستثمار إمكانات الحاسب الآليّ، وهذا ما يحدث بالفعل في المعجم التّاريخيّ الذي يشرف على إنجازه مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة. حفظ الله القائمين على هذا المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، وسدّد خطاهم ووفّقهم للوصول إلى غايتهم.

(١٤) الزّحاف والعلّة رؤية في التّجريد والأصوات، ص ٤١٠.

في الموازنة بين المعجم الكبير والمعجم التّاريخيّ

د. مصطفى يوسف
باحث بمجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة

مع تدشين العمل بالمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة برعاية كريمة من سموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسميّ حاكم الشّارقة حفظه الله ورعاه فإنّه بات من الأهميّة بمكان عقد موازنة بين المعجم الكبير الصّادر عن مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة (وصل إصداره الآن إلى حرف الزّاي)، والمُعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة المرتقب، حيث ظهر لدى بعض علماء العربيّة لَبْسٌ أو غموض حول التّداخل بين المُعجمين؛ إذ يحسب كثير من النّاس أنّ المعجم الكبير هو نفسه المعجم التاريخيّ، ولا يدرك الفارق بينهما؛ ومن ثَمَّ وجب عقد هذه الموازنة.

حاجة العربيّة إلى معجم تاريخيّ:

تتّضح الحاجة الملحّة إلى صُنْع معجم لُغويٍّ تاريخيّ للّغة العربيّة من خلال النّقاط التّالية:

١- عدم تسجيل المعاجم القديمة للمعاني الجديدة التي استحدثها شعراءُ العرب وأدباؤهم وعلماؤهم وفلاسفتُهم عندما وُضعت هذه المعاجم؛ حيث استخدموا هذه المعاني لأغراضهم الفنيّة، فلم يدخل كثيرٌ منها في معاجم اللّغة، فظلّت متناثرة فيها، يتناقلها الأدباء ويرويها الرّواة، فإذا أردت الرّجوع إلى تاريخ الاستعمالات التي توارد على الألفاظ ولم تحصرها المعجمات؛ لأنّها تدخل في باب المجاز أو الاستعمال العلميّ- فإنّك لن تجد ما يفي بذلك .. إذن فمفردات اللّغة العربيّة مَحصورة من ناحية، ومشتّتة من ناحية أخرى، محصورة في المعاجم من حيث معانيها الحقيقيّة، ومشتّتة من حيث المعاني المجازيّة التي تواردت عليها، أو الاستعمالات العلميّة والفلسفيّة والتّصوّفيّة، أو غير ذلك مما تنقلت إليه الألفاظ.

٢- بيان التّناول التّاريخيّ والتّغيّر الدّلاليّ للّغة العربيّة عبر كل العصور وفي مختلف الثّقافات. يقول أستاذنا الدّكتور كمال بشر: «وأظنّه ليس بِدعًا أو خيالًا أنْ نَأخُذ في الحسبان عاملًا من أهمّ العوامل التي تفي بحقّ اللّغة العربيّة علينا أو بحقّ أجيال أهلها- ذلك العامل في رأينا ورأي الثّقات العارفين - هو محاولة صُنع معجم تاريخيّ لها يحكي مسيرتها عبر الزّمان والمكان، أسوة بما صُنع لكثير من اللّغات التي حظيت بهذا الصّنيع، ووفاءً بحقّها واعتزازًا بدَورها في بناء قوميّات أصحابها. ولا يخفى على أيٍّ منّا أنّ إصدار معجم تاريخيّ للّغة العربيّة كان وما زال وسيظلّ حلمًا لكلّ المشتغلين والمهتمّين باللّغة العربيّة على اختلاف جنسيّاتهم ومشاربهم بل وتخصّصاتهم، ولن يتوقّف التّفكير في هذا الحُلْم إلا بإصدار هذا المعجم».

٣- المعجم اللّغويّ التّاريخيّ- كما قرّر فيشر في مقدّمته- يجب أنْ يحوي كلّ كلمة تُدووِلت في اللّغة؛ فإنَّ جميع الكلمات المتداولة في لغة ما لها حقوق متساوية فيها، وفي أنْ تُعرَض أطوارها التّاريخيّة في معجماتها.

٤- المعجم التّاريخيّ سيُحدث ثورةً في الدّراسات التاريخيّة واللّغويّة، وسيكشف للباحثين عن كنوز كانت دفينة، وعن معارفَ لم تكن مُتاحةً من قبل؛ فالمُعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة ليس فحسب ديوانًا للعربيّة يضمّ بين دفّتيه مفرداتها وأساليبها، مبانيها ومعانيها، ما استُخدم منها وما أُميت أو هُجر، ما حدث لها من تغيّر عبر الأزمان والأصقاع، بل سيكون كذلك ديوانًا لتاريخ العرب والمسلمين، ديوانًا للأحداث الكبرى من فتوح وحروب وهجرات وكوارث، ديوانًا لحياتهم الاجتماعيّة بنُظُمها وبمظاهرها الماديّة والروحيّة، ديوانًا لأفكارهم ومشاعرهم، ديوانًا لعلومهم، ومعارفهم وخبراتهم، ديوانًا لعلاقتهم بالشّعوب الأخرى ولتأثيرهم فيها وتأثّرهم بها. يقول أستاذنا الدّكتور محمّد حسن عبد العزيز: «ولا نبالغ إذا قلنا: المعجم هو الوجْه الآخر للحياة الإنسانيّة بكلّ تجلّياتها الماديّة والرّوحيّة».

٥- إنّ اقتصار المعاجم العربيّة التي وصلتنا عن أسلافنا على إثبات معاني المفردات والتّراكيب، وذكر اختلاف هذه المعاني باختلاف مَبناها الشّكليّ- هو عمل جليل الفائدة لا شكَّ؛ بيد أنّ شعراء العرب وأدباءهم وعلماءهم وفلاسفتهم قد أدخلوا على معاني هذه الألفاظ معانيَ جديدةً استخدموها أداءً لأغراضهم الفنيّة؛ فلم يَدخل كثير من هذه المعاني معاجم اللّغة ومظانّها، فظلّت متناثرةً يتناقلها الأدباء، ويرويها الرّواة، فإذا أردتَ الرّجوع إلى تاريخ الاستعمالات التي توارد على الألفاظ ولم تحصرها المعجمات، لم تقعْ في معاجم اللّغة على شيء من ذلك، وكذلك كتب التّراث؛ فلا نجد فيها إشارة إلى التّطوّر التّاريخيّ لمدلولات الكلمة الواحدة.

٦- أنّ النّقص الظّاهر في المُعجمات التي صنّفها العربُ يرجع إلى أنّ مُصنّفيها ما كانوا يجمعون كل مفردات اللّغة؛ بَل كانوا يَجمَعون الفصيح منها فقط، ومُنتهى الكمال لمعجم عصريّ أنْ يكون تاريخيًّا.

أهميّة المعجم الكبير، ومدى التّداخل بَينه وبين المُعجم التّاريخيّ:

لا شكّ أنّ المعجم الكبير الذي يُعنى بإصداره مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة يُعدّ نواةً طيّبةً للمعجم التّاريخيّ، غير أنّ الأوّل

لمْ ينصّ على التّرتيب الزّمنيّ للمعاني ولمْ يَنُصّ على تَطوّرها، ولم يُعْنَ في الوقت ذاته باستقصاء نصوص الشّعر والنّثر على اختلاف عُصورها، فقد جاء في مقدّمة المُعجم الكبير: «وقد قرّر المجمع أوّلَ ما قرّر حين أراد الأخذ في وضع هذا المعجم أنّه لنْ يكون مُعجمًا تاريخيًّا للّغة العربيّة؛ لأنّ المُعجم التّاريخيّ يحتاج إلى أعمال تمهيديّة لم يُؤخذ فيها بعد، فليس بدٌّ لوضعه من استقصاء نصوص الشّعر والنّثر على اختلاف عُصورها وبيئاتها وتسجيل ما في هذه النّصوص من الألفاظ وتسجيل الأزمنة التي استُعملت فيها، واستخراج ما يُنتجه ذلك من الأحكام العامّة التي اقتضاها التّطوّر بالقياس إلى معاني الألفاظ وصُورها على اختلاف العصور، وهو جُهد يحتاج إلى أن يُفرَّغ لَهُ عددٌ غيرُ قليل مِن الباحثين المُختصّين الذين يُحسنون العلم بأصول اللّغات ومناهج تطوّرها، حَسب اختلاف العُصور واختلاف البيئات وتباين الظّروف المُحيطة بالأجيال التي تتداول لغة من اللّغات».

يرى الدّكتور عبد العزيز التّويجري في بَحثه المُعنون بـ«المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة في ضوء مُتغيّرات الألفيّة، المنشور في العدد «١١٠» من مجلّة المجمع القاهريّ أنّ هناك تداخلا بين المعجم التّاريخيّ والمعجم اللّغويّ على مستوى المنهج، وعلى مستوى البنية الفنيّة، في آن واحد؛ ممّا يتطلّب أنْ يتكامل العمل في المعجمين على النّحو الذي يَتحقّق معه الانسجام والتّناسق، ولكن هذا ليس هو الوضع الذي لا يتمّ العمل إلّا في إطاره؛ لأنّه ما دام المُعجم الكبير للّغة العربيّة لم يكتمل،، فلا مندوحة لنا عن الشّروع في صنع المعجم التّاريخيّ على أساس ما يتوافر لدينا من معجمات للّغة العربيّة مختلفة الألوان حتّى هذه المرحلة، وإنْ كنّا قدْ خالفنا في ذلك المنهج الذي سلكه واضعو المعجمات التّاريخيّة للّغات العالميّة الحيّة. ويخلص الدّكتور التّويجري إلى أنّنا بانتهاج هذا الأسلوب نكون قد ذلّلنا عَقبة كؤودًا وواجَهْنا تحدّيًا أوّليًّا، وَتمهّدت السّبل أمامنا للتّغلّب على التّحديّات الأُخرى التي تعترض المُعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، ومنها الرّبط بين التّاريخ اللّغويّ وبين المرحلة المعاصرة التي نجتازها. وهو الأمر الذي يَتّصل بالمَجال الزّمنيّ بتأريخ اللّغة. ممّا يطرح هذا السّؤال: هل نقفُ عند المرحلة التي انتهت إليها كتابة المعجم اللّغويّ، أمْ نتوسّع في المجال الزّمنيّ حتّى نبلغ في شرح معاني الألفاظ ودلالاتها في المرحلة المعاصرة؟ على سبيل المثال، لفظ (أُصوليّ) في المعجم الوسيط يُعرّف كما يلي: (الأُصول: أصول العُلوم: قواعدها التي تُبنى عليها الأحكام والنّسبة أصوليّ) في حين أنّ لفظ (الأصوليّ) اليوم له معانٍ أخرى، إضافةً إلى المعنى الأصليّ، بحيث صار المعنى مرادفًا لمعانٍ لا تمتُّ بسبب إلى الأصل، وهكذا دواليك.

وقد قدّم الدّكتور ناصر الدّين الأسد بحثًا بعنوان «هل المعجم الكبير لمجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة يُغني عن المعجم التّاريخيّ اللّغويّ؟» في مُؤتمر الدّورة الثّانية والسّبعين بمَجمع القاهرة خَلص فيه إلى أنّه إذا طُبّق منهج المعجم الكبير بتفصيلاته كلّها التي ورد ذكرها في مقدّمته، وقدْ طُبّق بعضها أو أكثرها فيما صَدر من أجزاء، ولو جُمعت له المَظانّ المُختلفة من النّقوش الجاهليّة، إلى قصص أيّام العرب، إلى كلام سجع الكهّان، وَخطب حكماء العرب، وشعر شعرائهم في جاهليّتهم، مرورًا بعهد الوحي وصدر الإسلام إلى الزّمن الذي يقرّرُه مجلس المجمع ومؤتمره، واستُعملَ في ذلك الحاسوب مع خبراء متخصّصين، لكان بين أيدينا معجمنا الكبير في طبعته الجديدة، ولكان معجمًا تاريخيًّا بحقٍّ دون أنْ نسمّيه كذلك، ولتحقّقَ لنا بأقلّ من التّقديرات الماليّة والإداريّة التي اشتملت عليها بعض الدّراسات عن المعجم التّاريخيّ والتي هوّلت الأمر، ورأت أنّ ما عِند غيرنا خيرٌ ممّا عِندنا، في حين كنّا السّابقين في إصدار معجم تاريخيّ لُغويّ هو معجمنا الكبير الذي لا يحتاج إلّا إلى مراجعة وإلى استكمال تطبيق أُسس منهجه التي نصّ عليها في مقدّمته. أمّا الدّراسات اللّغويّة واللّسانيّة فهي أمور مهمّة، ولكنّها لا تدخل في صميم المعجم ولا يحتملُها، وربّما كان من الخير أنْ تُنشرَ في كتب منفصلة تصدر عن المعجم من خارجه كما هو الشّأنُ في الكتب والأطالس التي تُصدرها دوائر المعارف الموسوعات الكبرى.

ولكنّ النّظرة المتأنّية للأجزاء الصّادرة من المعجم الكبير وبين المنهج المقترح للمعجم التّاريخيّ فإنّه يتضح لنا وجودُ نقاط اتّفاق ونقاط اختلاف بين المعجم الكبير والمعجم اللّغويّ التّاريخيّ:

أوجه الاتّفاق:

١- كلا المعجمين يَمتازُ بصفة المَوسوعيّة والشّموليّة؛ فقد جاء في مقدّمة المعجم الكبير أنّه يحتوي على جانب لغويّ عُنيَ بأنْ تُصوّرَ اللّغة تصويرًا كاملًا فيجد فيه طلاب القديم حاجتهم، ويقف عُشاقُ الحديث على ضالّتهم. وفيه أخيرًا جانبٌ موسوعيّ يقدّم ألوانًا من العلوم والمعارف تحت أسماء المُصطلحات أو الأعلام. وروعيَ في هذا الجانب الجمعُ بين القديم والحديث ما أمكن، فذكر معطيات العلم العربيّ، وأُضيف إليها ما جاء به العلم الحديث، وفي هذا كلّه عمق ودقّة، وأصالة وتجديد، ويُسر وتيسير. وَقد أُنفق فيه ما أُنفق من جهد وزمن، وجُمعت من أجله موادّ كثيرة، مُحّصت وصُفّيت، ثمّ ضُغطت ورُكّزت، ولا تزال مع هذه غزيرة، ولا أدلَّ على غزارتها من أنّ الجزءَ الأوّل لَهُ لم يتّسع إلا لباب الهمزة، ويقع في نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير، ولن تقلّ عنه الأجزاء التّالية عمقًا وغزارة.

أمّا بالنّسبة للمعجم اللّغويّ التّاريخيّ، فإنّه يتّضح من خلال النّماذج التي قمت بتحريرها في كتابي (المواد والمداخل في المعجم اللّغويّ التّاريخيّ المنشور عن عالم الكتب بالقاهرة ٢٠١٤م) أنّ الشّموليّة والموسوعيّة شرْطٌ أساسيٌّ لبناء مادّته وجمع أصوله، فالمعجم – من المتصوّر– أنْ يضمَّ بين دفّتيه كلَّ كلمة قالتها العرب، وانتهاءً بما أجازته المجامع اللّغويّة العربيّة والاستعمال المعاصر والمعاجم الحديثة، فضلًا عن تقديم الشّواهد نثرًا وشعرًا على ذلك، مع ضرورة بيان التّطوّر التاريخيّ للمعاني.

٢- منهجية كلا المعجمين: من حيث دقّةُ التّرتيب ووضوحُ التّبويب، فقد أوضح المعجم الكبير في مقدّمته المنهج الذي يسير عليه، وقد اقترح المجلس العلميّ للمعجم التّاريخيّ باتّحاد المجامع اللّغويّة العربيّة منهجًا للمعجم اللّغويّ التّاريخيّ يمتاز أيضًا بدقّة التّرتيب، ووضوح التّبويب.

٣- كلا المعجمين يحتاج في إعداد مادّته إلى مُحرّرين أَكْفاء مُدرَّبين في صناعة المعاجم، بالإضافة إلى فريق من الخبراء المتخصّصين الذين لهم قَدَمٌ راسخة في اللّغة وعلومها، وفي اللّغات السّامية والفارسيّة والتّركيّة وغيرها، ثمَّ العرض على لجان متخصّصة من كبار رجال الأدب واللّغة والعلوم والفلسفة... إلخ.

٤- كلا المعجمين يَعتمد على إدخال التّقنية الحديثة المتمثّلة في الحاسب الآليّ، وما يمكن تخزينُه من ملايين الشّواهد سواء في الشّعر أو النّثر؛ ممّا يُوفر وقتًا وجهدًا كافيين للإسراع بالعمل

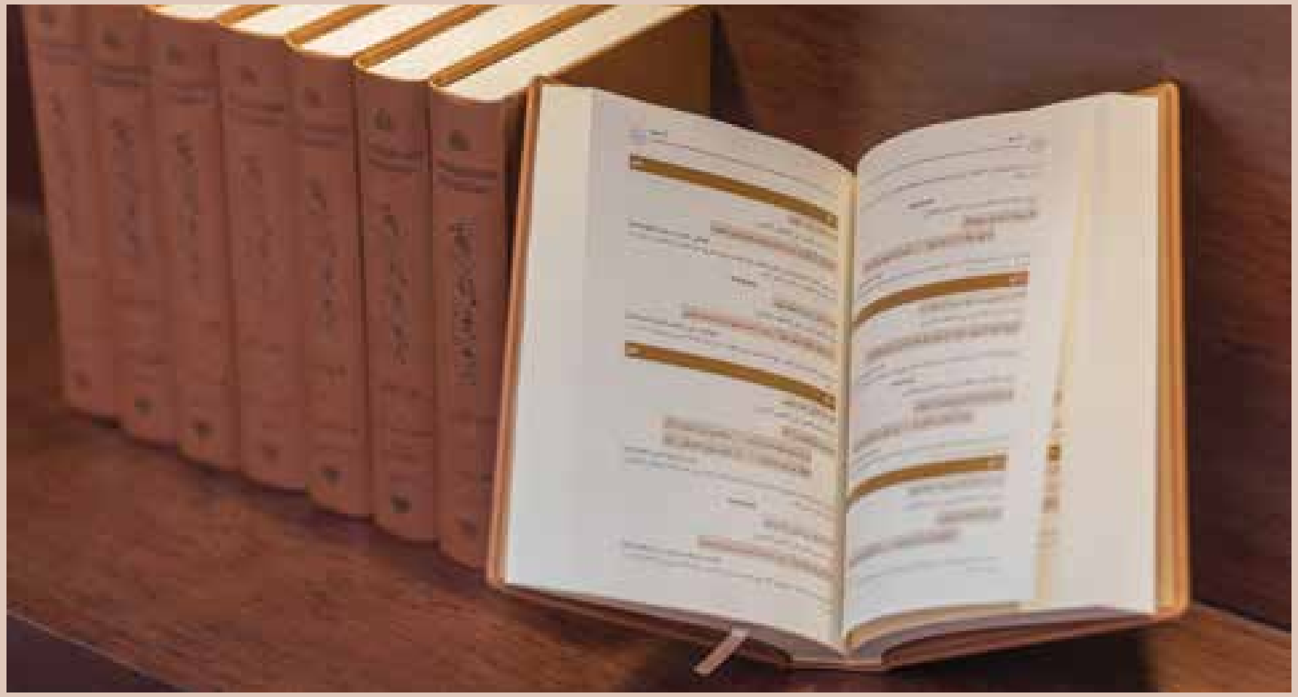

وإنجازه بشكل أسرع دقّة.

٥- المادّة التي يَعتمد عليها كلا المعجمين واحدة؛ فمادّة المُعجمين هي القرآن الكريم والحديث النّبويّ وأقوالُ الصّحابة والتّابعين والمأثور من المُلَح والطّرائف والأمثال والنّوادر، والشّعر باختلاف عصوره ابتداءً من العصر الجاهليّ وانتهاءً بالعصر الحديث.

٦- كلا المعجمين يَستفيض في ذكر الشّواهِد سواء من القرآن الكريم، أو الحديث النّبويّ، أوْ أقوال الصّحابة والتّابعين، أو المأثور منَ المُلح والطّرائف والأمثال والنّوادر، أو الشّعر باختلاف عصوره.

٧- كلا المعجمين يرى أنّ اللّغة كلٌّ متّصلُ الأجزاء يرتبط حاضرُه بماضيه، وهما معًا يُعِدّان لمستقبله، وللعربيّة قديمُها الخالد، وحاضِرُها الحيّ، ومُستقبلها الزّاهر، ومن الظّلم أنْ نقف بها عند حدود زمنيّة معيّنة. وينبغي أنْ يعبِّر المعجم الحديث عن عصور اللّغة جميعها، وأنْ يُسْتَشْهَد فيه بالقديم والحديث على السّواء.

٨- يتّفق المعجمان أيضًا في بيان تاريخ وفاة كلّ شاعر عند الاستشهاد بشعره، وإنْ كان المعجم الكبير لا يُعْنَى بترتيب المعاني تاريخيًّا أو زمنيًّا بصفة عامة، إلا أنّه يُعْنَى بترتيب الشّعراء حسب تاريخ وفاتهم داخل المعنى الواحد، فلا يسبق شاهد لشاعر من العصر العبّاسي شاهدًا لشاعر من العصر الجاهليّ مثلًا؛ كذلك فإن المعجم اللّغويّ التاريخيّ يُعْنَى بترتيب المعاني بصفة عامّة، فنجد المعاني مرتّبة حسب تاريخ أوّل قائل للمعنى، فنجد مثلًا: الشّاعر الجاهليّ، ثم الشّاعر الإسلاميّ، ثمّ الأمويّ، ثمّ العباسيّ، ثمّ الشّاعر الحديث ... وهكذا.

٩- يتّفق المعجمان أيضًا في شرح الكلمات الغامضة- أو التي تحتاج إلى تفسير حسب سياقها- الواردة في الشّواهد الشّعريّة والنّثريّة.

أوجه الاختلاف:

١- يختلف منهج المعجم الكبير في ترتيب المعاني عن منهج المعجم اللّغويّ التاريخيّ؛ فالمعاني في المعجم الكبير تُرتَّب متدرّجة من الأصليّ إلى الفرعيّ، ومن الحسّيّ إلى المعنويّ، ومن الحقيقيّ إلى المجازيّ، ومن المألوف إلى الغريب، أما في المعجم اللّغويّ التّاريخيّ فإنّ المعاني تُرتَّب تاريخيًّا؛ فأوّل معنى ورد للكلمة في العصور القديمة وليكن العصر الجاهليّ ثمَّ العصر الإسلاميّ... وهكذا، دون مراعاة لعوامل الأصليّ أو الفرعيّ، والحسيّ أو المعنويّ، والحقيقيّ أو المجازيّ، والمألوف أو الغريب؛ فالغاية في المعجم التاريخيّ غاية تاريخيّة بَحتة لرصد التّطوّر اللّغويّ عبر العصور المُتعاقبة للّغة العربيّة، أمّا المعجم الكبير فلا علاقة له بالتّاريخيّة، يقول مجمع القاهرة نفسه عن المعجم الكبير: وقد نَحَّتِ اللّجنةُ عنه فكرة أنْ يكون تاريخيًّا؛ لأنّ ذلك يقتضي استقصاء النّصّوص الشّعريّة والنّثريّة في مختلف دواوين الشّعر العربيّ من العصر الجاهليّ إلى العصر الحديث، وبالمثل في مختلف الكتب والآثار الأدبية على مرّ العصور، وفي الأقاليم العربيّة المختلفة، ولا تستطيع أنْ تنْهض بذلك عصبة من العلماء والباحثين، وهو ما تهدَّد معجم «فيشر»، مع أنّه اقتصر فيه على أطوار الكلمات حتّى نهاية القرن الثّالث الهجريّ؛ فما بالنا لو حاول المجمع أنْ يضيف إلى معجمه الحقب التّالية؟!.

٢- الاستشهاد في المعجم الكبير لا يخضع لمعيار ثابت؛ بمعنى أنّه قد يُستشهد على المعنى الواحد بشاهدٍ أو أكثر لشعراء من العصر نفسه، أما بالنّسبة للمُعجم اللّغويّ التاريخيّ فإنّه يُستشهد بأسبق شاعر ذكر هذا المعنى في هذا العَصر المُسْتَشْهَد به، وربما يُستشهد بشعراء آخرين من عصور تالية، للدّلالة على ثَبات المَعنى فقط، أو للدّلالة على تطوّر المعنى إلى معانٍ أخرى.

٣- فكرة إبراز التّطوّر الدلالي للمعاني تُعَدُّ هدفًا أساسيًّا من أهداف المعجم اللّغويّ التّاريخيّ؛ حيث يظهر جليًّا لمستخدم المعجم التاريخيّ المعنى الأصليّ الذي انبثقت وتطوّرت عنه معانٍ أخرى في عصور تالية، وهذه الفكرة غير واضحة وغير مقصودة في المعجم الكبير.

٤- مصادر المادة المعجميّة في المعجم الكبير معلومة ومحدّدة، فهي تبدأ بجمع المادّة في جذاذات من المعاجم القديمة كالتّاج واللّسان والمصباح المنير وأساس البلاغة وكتب الأفعال لابن القوطيّة وابن القطّاع والسّرقسطي، وكذلك ديوان الأدب للفارابي، والحيوان للجاحظ، والجيم لأبي عمرو الشّيبانيّ، بالإضافة إلى كتب المُفَضّليات والحماسة والنّوادر ومعجم الأمثال ومعجم الأعلام للزّركليّ وكتب غريب الحديث وتراجم الصّحابة والتّابعين، بالإضافة إلى المعجم الوسيط... إلخ. أمّا بالنّسبة لمصادر المعجم اللّغويّ التّاريخيّ، فلابد أنْ تكون غير تقليديّة، وأنْ تكونَ ملائمة لروح العصر، ومستفيدة من التّكنولوجيات الحديثة والتّقنيات الهائلة في البرمجيّات والحاسوب وطرق التّخزين الإلكترونيّة؛ وذلك عن طريق إعداد مدوّنة لغويّة تكون بمثابة قاعدة معلومات محوسبة تضمّ نصوصًا لغويّة كاملة، نثريّة وشعريّة، يتمّ اختيارها طبقًا لمعيار لغويّ واضح من أجل استخدامها في البحث بوصفها نموذجًا ممثِّلًا للّغة، وتُخزَّن المدوّنة في الحاسوب بطريقة معياريّة تسمح للباحث اللّسانيّ بالبحث والاسترجاع؛ فنصوصها موثَّقة من حيث مؤلِّفوها ومصادرها وتاريخها، وتزوِّد المدوَّنة اللّغويّة الجيِّدة الباحث بمعلومات إحصائيّة عن شيوع اللّفظ (الحرف، والكلمة، والتّعبير الاصطلاحيّ والسّياقيّ، والتّركيب اللّغويّ) عبر الفترات المختلفة من حياة اللّغة أو في نصوص موضوع معيّن، ولكي تكون المُدوَّنة اللّغويّة موثوقة صادقة التّمثيل للّغة، ينبغي أنْ يتمّ اختيار نصوصها بصورة مدروسة متوازنة نسبيًّا، من حيث المكان والزّمان والموضوع، إضافة إلى الاستعانة بالمحرّرين والخبراء الأكْفاء في اللّغة العربيّة، مع إتقانهم التّام للتّعامل مع الحاسوب وأعمال البَرْمجة والتّخزين، على أنْ يقوم بالمراجعة والتّنقيح أساتِذة اللّغة المتخصّصون في كلّ فروع المعرفة.

مكانة شرح الأعْلَم لشعر السّتّة عنـد الشّناقـطـة

د. التّقيّ ولد الشّيخ
أستاذ بجامعة شنقيط العصريّة

يطمَحُ هذا البحث إلى إنارة بعض جوانب اهتمام الشّناقطة باللّغة العربيّة والمجهود القيّم الذي بذله علماؤهم من أَجل إبقاء أشهر نصّ لشرح الشّعر القديم في الغرب الإسلاميّ حيًّا مُتداوَلًا بين طلّاب المَحاضر التي هي حاضنة العلم الأُولى في موريتانيا. وبالنّظر إلى قول الأصمعيّ «**فرسان أهل العلم بالشّعر أقلّ من فرسان الحرب**» تجشّم اللّغويّون صعوبة التّأليف في هذا المجال، فأخرجوا لنا شروح المجاميع، وشروح الدّواوين، وشروح القصائد المفردة؛ تحدوهم في ذلك دوافعُهم المختلفة، والتي من آكدها وأكثرها اطّرادًا، النّزوع إلى خدمة القرآن الكريم، الذي نزل بلغة العرب «**التي يعتبر الشّعر ديوانها المثقّف لأخبارها وأيّامها وحِكَمها، وسائر ما خُصّت به من فضائلها، وكان أشرف من كلامها المنثور**»[١]

ولا يعني طغيانُ الدّافع الدّينيّ التّعليميّ على المؤلّفين في هذا المجال، عدمَ وجود دوافع أُخرى، كما هو الحالُ في تأليف الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي[٢] الذي يشير إلى أنّه إنّما ألّف تحت طلب أحد الأعيان في زمانه «وقد سُئلتُ شرْحَها (يعني أشعار الشّعراء السّتّة) وتقريبَها وتهذيبها»[٣].

ومن بين شروح الشّعر كان احتفال الشّناقطة بشرح الأعلم بارزًا في مقرّراتهم التّعليميّة؛ حيث ضربوا الذّكر صَفْحًا عمّا سواه من شروح الشّعر القديم، فكيف حضر نصُّ الأعلم في تداول الشّناقطة؟ وما ملمح احتفائهم به وبمنهجه في محاظرهم[٤]؟

حضور شرح الأعلم الشّنتمريّ في الدّرس اللّغويّ الشّنقيطي

رغم تعدّد المؤلّفات التي تناولت أشعار الشّعراء السّتّة، فإنّ مُدوّنة الأعْلَم، قد سَحَبت ذيل النّسيان على ما سواها من هذه المؤلفات في الغرب الإسلاميّ؛ حيث كانت زادَ متعلّم اللّغة وعتادَهُ وكان للأندلسيّين، فيما مضى وللمغاربة، وَلوعٌ شديدٌ بمجموع الأعْلم الشّنتمريّ «أشعار الشّعراء السّتّة»[٥] وكان للشّناقطة نصيبُهم من احتذاء أُسلوبها وطريقتها، في تقريب الألفاظ، وإيضاح المعاني، بل كانت في مقدّمة المسطرة التّعليميّة «ففي علوم النّحو واللّغة، فإنّ نظمَ ابن آجرّوم، وألفيّة ابن مالك، من المصادر الرّئيسيّة للتّعليم، كما أنّ شرح الأعلم الشّنتمريَ للشّعراء السّتّة الجاهليّين، من أهمّ الكتب المعتمدة لدراسة هذا الشّعر»[٦]. ولم تنلْ مدوّنةٌ من المدوّنات اللّغويّة ما نالت تلك المدوّنة من اهتمامهم، حيث «يأتي ديوانُ الشّعراء السّتّة في المرتبة الأولى تواترًا، ولم تحْظَ المعلّقاتُ، ولا ديوانُ الهُذليّين إلّا بقدر أقل»[٧]، حتّى أصبحت هذه المدوّنة في الدّرس المحضريّ، معروفة بين المقرّرات باسم «السِّتّة» نسبة إلى عدد شعرائها، وأكثرُ مَنْ تعرّض لشرح هذه المدوّنة من الشّناقطة، لا يُصرّح بدوافعه، إلّا أنّنا نعتقد وُقوفَ الدّافع الدّينيّ المتعلّق بخدمة القرآن، وراء جلّ تلك التّآليف، والتّعليقات، والطُّرر، وتتعزّز مكانة ذلك الدّافع بفتوى كبار العلماء بأفضليّة التّفرّغ لتعلّم اللّغة العربيّة على التّفرّغ للعبادة فقد كان لمرابط محمد فال ولد متالي[٨] مُولعا بالعربيّة خصوصًا ويُحرّض النّاس عليها، وله في ذلك:

تَعَلُّـمَ اللّغة شَرْعًـا فَضِّل
يُؤْخذُ ذا مِنْ قَـوْلِـه وَعَلّما
على التَّخلي لِعِبادَةِ العَلِـي
آدَمَ الأسْماءَ إلـزم التّعلُّما

وقد بَلَغ اللّغويّون الشّناقطة في التمكن من ناصية اللغة شأوا، وأصبحت أقوالهم في اللّغة حُجّة مُقنعة لمن سواهم[٩] «وممّا شجَّع

(١) مقدمة الأعلم (يوسف بن سليمان بن عيسى نحويّ اشتهر بالأعلم وهو من أَهل شنتمرية الغرب، توفي سنة ٤٧٦هـ بإشبيليّة)

(٢) وزير ولغويّ أديب. عاش في القرن الخامس الهجريّ.

(٣) شرح الأشعار السّتّة الجاهليّة للوزير أبي بكر عاصم بن أيّوب البطليوسي تحقيق: ناصف سليمان عوّاد، ومراجعة: لطفي التومي، المعهد الألمانيّ للأبحاث الشّرقيّة، بيروت، ص ٤.

(٤) هي جامعات بدويّة متنقّلة، تلقينيّة، فرديّة، بعضهم ينطقها بالظّاء، والبعض بالضّاد؛ فالأول على اعتبارها مصدر (حظر) أيِّ أقام حظيرة وهي سياج يقام على مكان الصّلاة والتّدريس وعلى مرابِض الحيوانات، والبَعض يجعلها من (حضر) فيراها علمًا على الحضور والمحاضرات التي يقوم بها شيخ المحضرة، مستشهدًا بقول لبيد:

ف الوادِيانِ وكلُّ مَغْنًى مِنْهُمُ   وعلى المياهِ مَحاضِرٌ وخِيامُ

(٥) مقدّمة مصطفى السّقا لمختارات الأعلم، مكتبة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، مصر الغورية، ١٩٤٨ .

(٦) الشّعر والشّعراء، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٧) ولد صدفه، مرجع سابق، ص ٤٥

(٨) الوسيط في تراجم أُدباء شنقيط، أحمد بن الأمين، ط ٤، ١٩٨٩، مطبعة المدنيّ، ص ٣٤٤.

(٩) حيث احتجّ محقّق كتاب « الخصائص» لابن جنّي محمد علي البجاوي على قلب كلمة (زبرجد) ببيت ابن الطلبه اليعقوبي :

عليها سموطٌ من محال مُلَوَّبٍ   من التِّبْر أوْ منْ لؤلؤ وزبردج

النّاس على التّوجّه إلى تعلّم اللّغة العربيّة وعلومها، نظرةُ نخبة الزّوايا ممثّلة في الشّيوخ والشّعراء، لهذه المادّة، باعتبارها وسيلةً لمعرفة أُمور الدّين، وشرط فتوّة في مجتمع الزّوايا»[١٠]. ولا تزال بعض الجهات تتندّرُ على منطقة «القبلة» في جنوب موريتانيا للأولويّة الكبرى التي يُولونها لمعلقة امرئ القيس؛ وينشدون في ذلك على لسانهم محرّفين بيت ابن عاشر المغربيّ[١١]:

أوّلُ واجبٍ على مَنْ كلّفا
أنْ يعرفَ اللهَ ويَعْرِفُ (قِفا)

ومع الدّافع الدّينيّ ربّما حضر الدّافع الغيْريُّ كما صرّح ابن ذي الخلال أنّه ألّف كتابه في شرح ديوان السّتّة، لضبط هذا الشّعر، ونزولًا عند رغبة رجل لم يرد ذكره بالاسم، ولا نستبعد أنْ يكون الدّافعُ الذّاتيّ وراءَ ذلك الحَراك الشّرحيّ في القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر الهجريّين؛ إذ إنّ معرفة أوابد الشّعر ومعانيه، مَلْمَح من ملامح الفتوّة، ومِجنٌ من اللّحن الذي كان التّعبير به سمةً بارزة، انجرّت عنها نقائضُ والمشاعرات في ذلك العصر[١٢] وقد لُحِّن الحارث ولد محنض في مسألة نحويّة، ناصره فيها بعضُ معاصريه كالمختار ولد المعلّى[١٣] قائلا من أبيات:

مُلحِّنُ الحارثِ في نحوهِ
عَنْ حَتْفِه بِظُلْفِه باحثْ

وقد يكون دافع المعارضة[١٤] والمحاكاة للشُّرّاح الأوائل، وراء بعض تلك الشّروح.

(١٠) الشّعر الشّنقيطي في القرنين ١٢ و١٣ هـ، دراسة في المرجع والبنية والقراءة، الدّكتور عبد الله بن محمد سالم ابن السّيد، مطبعة المنار، انواكشوط - موريتانيا، ٢٠١٢، ص ٥٢ .

(١١) أول واجب على من كلفا ممكنا من نظر أن يعرفا

(١٢) ففي هذ العصر كانت مشاعرات الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديا ومحمدو ولد محمدي العلوي، من جهة وسيدي عبد الله ولد أحمدام واديبج الكمليلي، من جهة أخرى وغير هذه المشاعرات مما هو معروف السبب.

(١٣) شاعر مرموق أخذ عن الحارث الشقروي . انظر ديوان المختار ولد المعلى الحسني، تحقيق: عبد الله السالم ولد المعلى الحسني الشنقيطي، دار يوسف بن تاشفين ومكتبة الإمام مالك، انواكشوط، ط ٢٠٠٥، ص ٢٩ .

(١٤) يقول الباحث الدكتور عبد الله ولد السيد إن المعارضة هي سمة في الثقافة الشنقيطية بما في ذلك المعارضة في التأليف، والمعارضة نمط أدبي شعري يرمي الشاعر من ورائه إلى محاكاة قصيدة لشاعر آخر ليظهر عبقريته وتمكنه من زمام الشعر، ومن أمثلتها في الشعر العربي معارضة أحمد شوقي لميمية البوصيري، أما في الشعر الشنقيطي فقد حفل القرن الثالث عشر بالمعارضات الشعرية كمعارضة ابن الطلبه لميمية حميد بن ثور ولجيمية الشماخ بن ضرار، وكمعارضة الشيخ محمدو ولد حنبل لمقصورة أبي صفوان الأسدي .

مناهج الشّناقطة في التّعاطي مع مدوّنة الأعلم:

لقد سلك الشّرّاح الشّناقطة طرائقَ قددًا، في سبيل تسهيل النّصوص، وإذا كان الأعْلَمُ الشّنتمريّ قد شرح شعر السّتّة «شرحًا يقتضي تفسير غريبه، وتبيينَ معانيه، وما غمُض من إعرابه»[١٥]، وسعى للاختصار الذي تبعه فيه البطليوسيّ، حين سُئل شرح وتقريب، وتلخيص وتهذيب، أشعار تلك المدوّنة؛ فإنَّ غياب ديباجة أكثر شروح الشّناقطة للشّعر الجاهليّ تداولًا، تؤدّي إلى حصول غَبَش في معرفة منهجيّتهم التي اعتمدوها، والتي يُمكن بالاستقراء رَسْمَ بعض ملامحها، خاصّة وأنَّ أشهر ثلاثة شروح متوفرة لا تعطي الجواب عن سؤال المنهجيّة؛ إذ لم يقدّم صاحب «دواء السّكتة» لمؤلّفه، ولم يختتمه بما تُستشفُّ منه الأدوات التي استخدمها في سبيل إبلاغ رسالته التّعليميّة[١٦] كما لم تَشِفّ مقدمة ابن ذي الخلال المقتضبة[١٧] الغليل فيما يتعلق بتلك الأدوات، أمّا خاتمته فلم يزِدْ فيها على أنْ كتب حاذيتَ فيه يوسف بنَ سليمان، الملقّب بالأعلم، لأنّه السّابق في هذا الميدان ودفَفْتُ[١٨] على إثره بالضّبط والتّحرير، وتبيين الخافي من التّغيير؛ إمّا بتبديل العبارة

(١٥) الأعلم (المقدمة)

(١٦) توجد من كتاب «دواء السكتة» نسختان بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، إحداهما من عمل المؤلف، تناول فيها شعر امرئ القيس والنّابغة وعلقمة، وعاجله الحمام قبل أنْ يتم الجزء الثاني الذي ذكر عزمه على إتمامه . وهذه النسخة لا ديباجة لها ولا خاتمة وهي عند المعهد مسجلة تحت الرقم ٥٣٩ . والنسخة الثانية، تحت الرقم ١٧١٤، وقد أُضيف لها شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، وهي أيضًا بدون ديباجة وقد صُدِّر لها ب- : قال الشيخ الفقيه العلامة المتبع الورع الزاهد الأواه المنيب التقي الصالح الناسك سيدي أبوبكر بن أحمد بن محنض بن هايت نفعنا الله ببركته : قال امرؤ القيس بن حجر (..) وكتب في نهاية شرح الدواوين الثلاثة الأولى : كمل السّفر الأول من الدّيوان وبه كمل شعر علقمة ويتلوه - إن شاء الله - الثاني وبالله أستعين لا رب غيره، وصلى الله على من لا نبي بعده رسول الله - صلى الله عليه وسلم تسليما - ولا حول ولا حول ول لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد ذكر المختار بن حامدن أنّ الحارث بن محنض الشقروي، هو من أكمل «دواء السّكتة»، الحياة الثقافيّة، الدّار العربيّة للكتاب، ١٩٩٠، ص ٥٩ .

(١٧) ورد في مقدّمة ابن ذي الخلال الحمد لله الذي خلق السّماوات والأرض وجعل الظلمات والنّور، وأجرى من صدور العلماء ينابيع البحور، وجعل لنا في اختصارها دراية، نقف منها دون النهاية على كفايه، وبعد فإني لما رأيت تقديم قصائد الستة عند الناس، وإهمالهم ضبطها بين جاهل وناس، هيأت من المستطاع، لمن أراد مجاورة الرّوض إلى القاع؛ فلفقت منه ما تأتّى، من دفاتر شتَّى، عزَّ تلخيصها في دفتر، واتّفاقها لمحرر في محضر، وعلى القاموس واللسان جل الاعتماد، فإن أُعيد ضمير على غير مذكور فهما المراد ؛ وأُشير للأول ب- وَ وللثاني ب- سَ .

(١٨) دفت الجماعة أو الإبل دفًّا ودفيفاً : سارت سيراً ليِّنا.

ينظر : المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيّة، جمهوريّة مصر العربيّة، مكتبة الشّروق / ط٤، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ج ١، ص ٢٨٩ (باب الدال) .

أو بخفيّ الإشارة[١٩] ولم يشكّل الحارث بن محنض نشازاً عن صاحبَيْه، فلم تكن لمؤلّفه[٢٠] ديباجةٌ، واكتفى عند الانتهاء منه بتقريظه بأبيات شعريّة ينظر فيها إلى شرحه بعين الرّضى.

ومع وحدة مرجع هؤلاء الشّرّاح، فإنّهم قد سلكوا سُبُلًا شتّى، في تقريب مادّته، حيث التزم ابن ذي الخلال والحارث بالشّرح على وَفْق ما فعل الأعلم؛ إذ كانا يَشرحان المدوّنة بيتين بيتين، وأحيانًا يُضيفان الثّالث حسب عدد أبيات القصيدة، أمّا أبو بكر، فكان يشرح الكلمة من البيت، ثم التي تليها؛ فتتناثر النّصّ الشّعريّ عنده، داخل النّصّ الشّارح ولم يَعُدْ يُمَيِّزُ بينهما إلا بلَوْن المداد الأحمر، الذي كتب به الشّرّاح الثّلاثة نصوص المدوّنة الشّعريّة، ويمكن أنْ نأخذ مثالًا من الشّرح لبيتين من شعر زهير عند الثّلاثة، من مثل قوله:

هذا وليسَ كمَنْ يعيا بخُطّتِه
لوْ نالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنيا بمنزلةٍ
وَسْطَ النَّدِيِّ إذا ما ناطقٌ نَطقا
أُفُقَ السَّماءِ لنالتْ كفُّهُ الأُفُقا

حيث يقول صاحب دواء السّكتة[٢١]:

(١٩) ينظر مخطوط ابن ذي الخلال عند المعهد الموريتاني للبحث العلمي تحت الرقم (١٦٧٨) وهو بخط ابن المؤلف محمذن فال بن عبد الله العتيق .

(٢٠) المؤلف هو «الشّرح الأوسط لديوان الشّعراء السّتّة» وهو مخطوط بحوزتنا .

(٢١) دواء السّكتة، نسخة المعهد الموريتانيّ للبحث العلميّ، رقم ١٧١٤، ص ١٩٩ .

هذا: الذي وصف به من الكرم والجراءة، ثم وصفه بالبلاغة، وأنّه لا يعيا بخُطّته وسْط النَّديّ، فقال: وليس كمَنْ يعيا كيَرْضى بخطّته بالضّم: خصلته، يعجز عنها . النّديّ كأمير: المجلس. إذا ما ناطق نطقًا: هذا البيت، وتاليه عن غير الأصمعي . لو نال: أدرك. حيّ من الدنيا، بالضّم والكسر والمنع والصّرف: هذه الدّار الفانية، ونَوَّنها المثلم بن رباح في:

إنّي مُقسِّم ما ملكتُ فجاعلٌ
أجراً لآخرتي ودُنْياً تَنْفَعُ

بمنزلة: مرتبة. أُفُق بالضّم: ناحية السّماء، والسّقف المظلّ على الأرض، يُذكّر ويؤنّث. لنالت كفُّه: مرَّ في نُبّت. الأفق كعُنُق: النّاحية.

وورد في شرح البيتين عند ابن ذي الخلال[٢٢]: هذا: إشارة لما وصف به من الكرم، أي هذا صحيح كما قلت، ثم هو مع ذلك يُبلِغ في الجدال. لا يعيا بخطّته بالضّم: أي مسألة يجادل فيها، وقد عَيِي كرَضِي: ارتُجّ عليه أيْ: لم يهتد لوجه الكلام. والأُفق بالضّم وبضمّتين: ناحية السّماء.

أمّا الحارث فقد أتى في شرح البيتين بما يلي[٢٣]: هذا.. إلخ؛ أي الأمر هذا المذكور لا غيره، وأيضاً هو في غاية من

(٢٢) شرح ابن ذي الخلال، المعهد الموريتانيّ للبحث العلميّ، رقم ١٦٧٨، ص ٢٢٨ .

(٢٣) مخطوط بحوزتنا، ص ٢٥٢ .

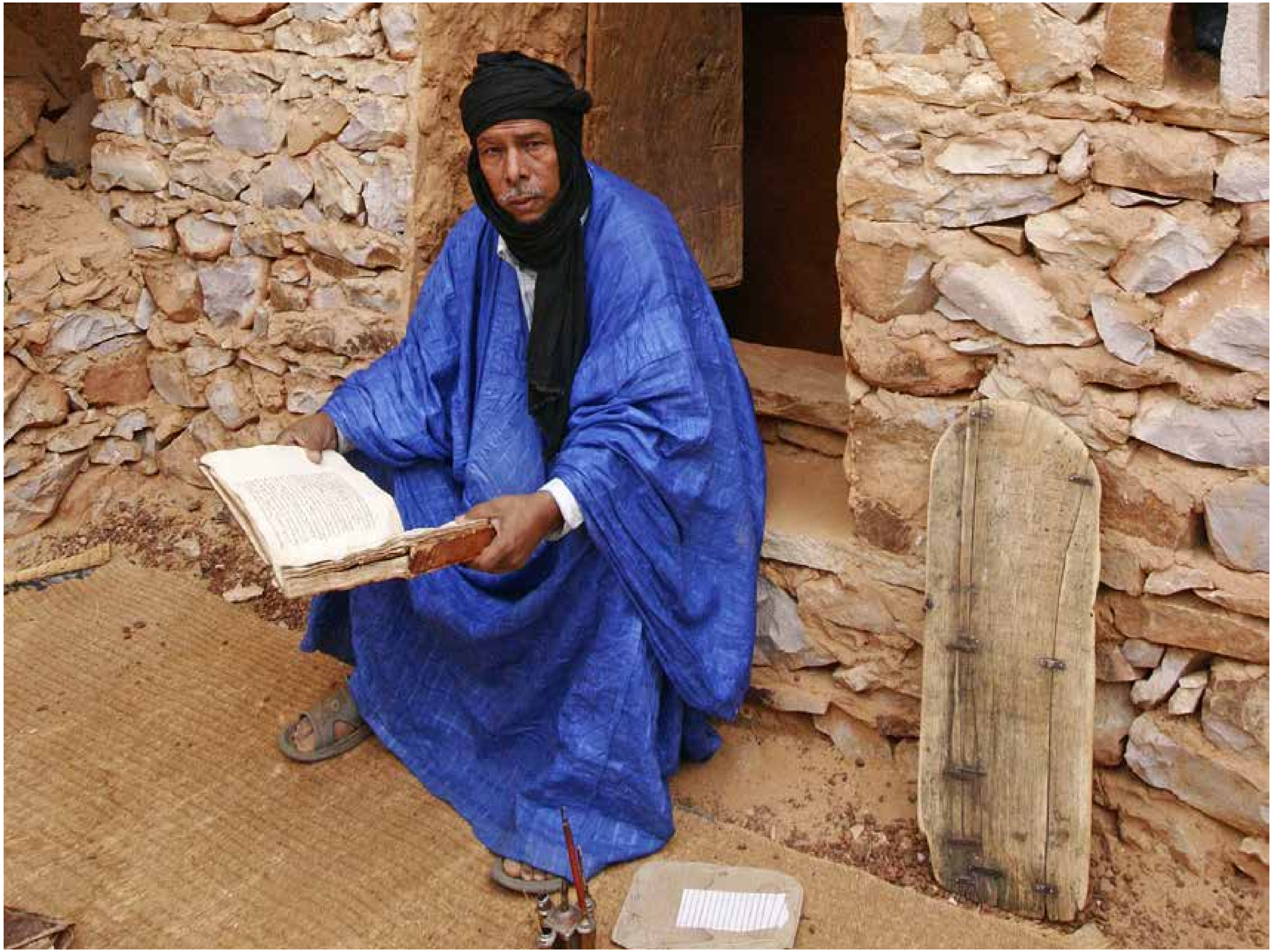

الفصاحة والبلاغـة، فليس كمَـنْ يعيـا بحجّتـه وسْـط المجالس إذا تكلم المتكلّمـون؛ خصَّ وسط النّـديّ حين يختصم القـوم، لأنّه محلّ دهش؛ لأنّ كثرة الوجوه مدهشـة؛ يعني أنّه جريء الجَنان، واللّسـان، وشديد البطش. نـال: أصاب. وحيٍّ: أحد يوصف بـالحياة. والدُّنيـا بالضّم والكسر والصّرف والمنع إنْ لـم تُعرَّف: هـذه الدّار. والمنزلة: المرتبة الرّفيعة. وأُفق بالضّم وبضمّتين: ناحية السّماء. والكفّ: اليد؛ يعني أنّه من جلالته وبُعد هِمّته، لو نال حيٌّ من أهل الدّنيا بالدّرجة الرّفيعة أفق السّماء لنالته كفُّه، ولكنْ لم ينله أحد؛ ولذلك لـم ينلْـهُ فهو من المذهـب الكلاميّ. وفي البيت الأوّل الجمع في الاشتقاق في «نـاطق» و«نطق» والبيت الأخير زيـادة عن غير الأصمعي.

وهـذه الشّـروح الثّلاثـة متقاربـة، لكنّهـا متفاوتـة، فـي بعض المناحـي، مـن حيث الإيجـازُ والإطنـابُ، فيمـا يتعلّـق بالمعنى الإجمالي، والوقفات البلاغيّة، وبإهمال بعض المفردات، وبضبط الرّوايـة؛ حيث حرص الحـارثُ، وصاحب دواء السّكتة على تبيان زيـادة غيـر الأصمعي، إلّا أنّ الحـارث لـم يذكر إلا زيـادة البيت الأخيـر، فيمـا نقـل صاحـب «دواء السّكتة » عـن الأعلـم زيـادة البيتين، لكنَّ الذي نسـجّلُهُ هنـا هـو التّطابق المتفـاوت بين شرح الأعلم، وشروح أصحابنا إذ يمكن القول إنّهم قد التقوا في شرحهم المجمـل للبيتين، وإنْ اختلفت عباراتهـم ،كمـا أنّهم عدا ابـن ذي الخلال. قد علّقوا على صحّة نسبة البيتين لزهير؛ يقول الأعلم في شرح البيتين:

قولـه: هـذا وليس كمن يعيـا بخطّتـه: أراد أمره هـذا وشـأنه هـذا؛ يعني مـا وصفه بـه مـن الكرم والجُرأة، ثـم وصفه بـالبلاغـة، وأنّه لا يعيـا بخطّتـه، إذا قـام وسط النّديّ. والنّدي: مجلس القـوم، وهذا البيت عـن غيـر الأصمعيّ، ويتلـوه بيتٌ آخـرُ عـن غيره أيضًـا وهـو قولـه: لـو نـال حـيّ. ولم يشرح البيت.

فالقاسم المشترك هـو العنايـة بالمفردة المعجميّة، مـن خـلال التّفسير بالنّظائر وزنًـا ومعنى، والتّركيز على مجمـل المعاني، أو على الأصحّ نثر أبيات النّصّ المشروح، ويبقى الاستثناء البارز، هـو مـا يُوليـه الحـارث ولد محنض لعُنْصُرَي البلاغة، والمعنى «وليس فـي مدوّنتنـا، على صعيد الاهتمام بـالمعاني مـا يمكن أنْ يداني صنيع الحـارث»(٢٤)

(٢٤) ولد صدفه، مرجع سابق، ص ٨٣

أَثَرُ السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ فِي تَغْيِيرِ وَتَحْدِيدِ دَلَالَةِ الْمُفْرَدَاتِ وَالصِّيَغِ

أ. مُحَمَّد عَلِيّ آدَم حَامِد
أُسْتَاذٌ بِجَامِعَةِ النِّيلَيْن، كُلِّيَّةِ الْآدَاب
قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

إِنَّ مَنْ يُمْعِن النَّظَرَ فِي الْأَسْيِقَةِ النَّحْوِيَّةِ يَجِدْ ثَمَّةَ عَظِيمَ الْأَثَرِ لِتِلْكُمُ الْأَسْيِقَةِ فِي تَحْدِيدِ وَتَغْيِيرِ دَلَالَةِ الْمُفْرَدَاتِ العربيّة وَالصِّيَغِ، فَالْمُفْرَدَاتُ بِمَا تَأْثِيرٍ مِنَ السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ قَدْ تَتَخَلَّى عَن مَعْنَاهَا الْمُعْجَمِيِّ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ مَادَّتُهَا لِتَدُلَّ عَلَى آخَرَ كَانَتْ قَدْ اكْتَسَبَتْهُ إِثْرَ انْتِظَامِهَا فِي بِنَاءٍ نَّحْوِيٍّ بِعَيْنِهِ.

وَالصِّيَغُ الصَّرْفِيَّةُ لَا تَنْفَكُّ تَتَغَيَّرُ مَعَانِيهَا الصَّرْفِيَّةُ الَّتِي أَلْحَقَهَا بِهَا قَالَبُهَا الصَّرْفِيُّ الَّذِي صُبَّتْ فِيهِ إِلَى أُخْرَى فُرِضَتْ عَلَيْهَا جَرَّاءَ وُجُودِهَا فِي نَظْمٍ نَّحْوِيٍّ وَتَخْتَلِفُ تِلْكُمُ الْمَعَانِي بِاخْتِلَافِ ذَلِكُمُ النَّظْمِ، وَلَا مَنَاصَ فِي سَبِيلِ بُرْهَانِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنَ اسْتِعْرَاضِ بَعْضِ النّصوصِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالشّعرِ مُسْتَنْبِطِينَ مَدْلُولَ الْمُفْرَدَاتِ وَالصِّيَغِ بِهَا ذَاكِرِينَ ذَلِكُمُ الاخْتِلَافَ الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهَا، وَلَا ضَيْرَ أَنْ نَبْدَأَ بِذِكْرِ أَثَرِ الْبِنَاءِ النَّحْوِيِّ فِي تَغْيِيرِ دَلَالَةِ الْمُفْرَدَاتِ وَهِيَ مُقَسَّمَةٌ حِيْنَ تَنَاوُلِنَا لَهَا إِلَى أَسْمَاءٍ وَأَفْعَالٍ وَحُرُوف، فَمِنْ شَوَاهِدِ الْأَسْمَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ:١٢٣]

حَيْثُ لَفْظَةُ «أَذِلَّةٌ» تَخَلَّتْ عَنْ مَعْنَاهَا الْمُعْجَمِيِّ الْمُقَابِلِ لِأَعِزَّةٍ وَأَصْبَحَتْ بِمَعْنَى قِلَّةٍ؛ لِكَوْنِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ» يَعُودُ إِلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ –لَا رَيْبَ– أَعِزَّةٌ، قَالَ تَعَالَى:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْمُنَافِقُونَ:٨]

وَلِكَوْنِ الذُّلِّ يَقَعُ عَلَى مَنْ كَانَ غَيْرَ مَرْضِيٍّ عَنْهُ مِنْ قِبَلِ **الله** تَعَالَى جَدُّهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٦١]

وَقَدْ أَشَارَ إِلَى مَعْنَى الْقِلَّةِ فِي لَفْظَةِ أَذِلَّةِ مُحْيِي الدِّينِ الدِّرْوِيشُ حِينَ قَالَ: «الْكِنَايَةُ فِي قَوْلِهِ: «أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ»عَنْ ضَعْفِ حَالِهِم وَضَآلَةِ عَدَدِهِمْ...» [إِعْرَابُ الْقُرْآنِ وَبَيَانُهُ، ٤٨/٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الْكَهْفُ: ٧٩]

حَيْثُ جَاءَتْ لَفْظَةُ «وَرَاءَهُمْ» دَالَّةً عَلَى مَعْنَى قُدَّام، وَهُوَ ضِدُّ مَا كَانَتْ تُفِيدُ حَالَ كَوْنِهَا مُفْرَدَةً، وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ عَاشُورٍ إِلَى ذَلِكُمُ التَّغْيِيرِ بِقَوْلِهِ: «وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فَسَّرُواْ «وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ» بِمَعْنَى «أَمَامَهُمْ مَلِكٌ...» [التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ، ١٢/١٦]، وَلَفْظُ سَفِينَةٍ لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ بَلْ هُوَ لَفْظٌ مُقَيَّدٌ بِصِفَةٍ، وَأَصْلُ الْكَلَام «سَفِينَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الْعُيُوبِ» غَيْرَأَنَّ تِلْكُمُ الصِّفَةَ قَدْ حُذِفَتْ لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهَا وَذَلِكُمْ بِقَوْلِهِ: «فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا»؛ إِذْ لَمَّا عُلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ بِهَا الْعَيْبَ؛ بُغْيَةَ أَلَّا يَأْخُذَهَا الْمَلِكُ عُلِمَ أَنَّ بُغْيَةَ الْمَلِكِ مِنَ السَّفِينِ غَيْرُ الْمَعِيبِ، وَقَدْ أَشَارَ الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى: قِرَاءَةٍ تُثْبِتُ الصِّفَةَ وَذَلِكُمْ حِينَ قَالَ: »وَقِيلَ فِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ وَعَبْدِ **الله**:«كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ» [تَفْسِيرُ الْكَشَّافِ، ٨٨٦].

وَمِنْ شَوَاهِدِ الْأَفْعَالِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فَاطِر: ٢٨]

فِي قِرَاءَةِ مَنْ رَفَعَ لَفْظَ الْجَلَالَةِ »**اللَّهُ**«؛حَيْثُ أُسْنِدَ لَفْظُ «يَخْشَى» إِلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ«**اللَّهُ**»، فَتَخَلَّى الفعلُ «يَخْشى» عَنْ دَلَالَتِه الْمُعْجَمِيَّةِ وَهِيَ الرَّهْبَةُ وَاكْتَسَبَ مَعْنًى كَانَ قَدْ ضُمِّنَهُ بِفَضْلِ السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَ فِيْهِ وَهْوَ الْإِجْلَالُ؛ لِكَوْنِ الرَّهْبَةِ لَا تَلِيقُ بِجَلَالِهِ – سُبْحَانَهُ– وَفِيهِ يَقُولُ الزَّمَخْشَرِيُّ: «فَإِنْ قُلْتَ مَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: «إِنَّمَا يَخْشَى **اللَّهُ** مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ «وَهُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَيُحْكَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ؟ قُلْتُ: الْخَشْيَةُ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ اسْتِعَارَةٌ وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا يُجِلُّهُمْ وَيُعَظِّمُهُمْ...» [تَفْسِيرُ الْكَشَّافِ، ٨٨٦].

وَقَوْلُ ابْنِ الرَّقَعْمَق:

قَالُواْ اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ
قُلْتُ اطْبُخُواْ لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

حَيْثُ جَاءَ الْفِعْلُ «اطْبُخُواْ» بِمَعْنَى: «أَخِيطُواْ» لِكَوْنِ مَفْعُولِه مِمَّا يُخَاطُ وَيُحَاكُ، وَلِكَوْنِهِ قَدْ سُبِقَ فِي سِيَاقِه بِمَصْدَرِ طَبَخَ فَأُرِيدَ بِهِ مُشَاكَلَتُهُ. يَقُولُ السَّكَّاكِيُّ: «وَمِنْهُ الْمُشَاكَلَةُ» وَهْيَ أَنْ تَذْكُرَ الشَّيْءَ بِلَفْظِ غَيْرِهِ لِوُقُوعِهِ فِي صُحْبَتِهِ...» [مِفْتَاحُ الْعُلُوم، ٥٣٣]

وَمِنْ شَوَاهِدِ الْحُرُوفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الْفَجْر: ٢٩–٣٠]

حَيْثُ اكْتَسَبَتْ «فِي» فِي قَوْلِهِ: «فِي عِبَادِي» مَعْنَى الْمُصَاحَبَةِ بِفَضْلِ الْبِنَاءِ النَّحْوِيِّ الَّذِي انْتَظَمَتْ فِيهِ وَكَانَتْ قَبْلُ صَالِحَةً لَهُ وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْمَعَانِي، يَقُولُ الرُّمَّانِيُّ: «أَنَّهَا لِلْمُصَاحَبَةِ كَـ «مَعَ» أَشَارَ الزَّرْكَشِيُّ إِلَى أَنَّهَا بِمَعْنَى «مَعَ» عِنْدَمَا قَدَّرَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي» أَيْ: «مَعَ عِبَادِي» [مَعَانِي الْحُرُوفِ لِلرُّمَّانِيِّ، ٧٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾؛ حَيْثُ فُهِمَ مِنْ سِيَاقِهَا النَّحْوِيِّ أَنَّهَا بِمَعْنَى «بَعْدَ»، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ الرُّمَّانِيُّ بِقَوْلِهِ: وَقَدَّرَهَا الزَّرْكَشِيُّ «بَعْدَ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ» أَيْ: بَعْدَ عَامَيْنِ. [مَعَانِي الْحُرُوفِ لِلرُّمَّانِيِّ، ٨٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ [الشُّورَى: ٤٥]

حَيْثُ دَلَّتْ «مِنْ» عَلَى مَعْنَى الْبَاءِ؛ لِكَوْنِهَا دَاخِلَةً عَلَى «طَرْفٍ» وَهُوَ آلَةٌ يَكُونُ بِهَا النَّظَرُ، يَقُولُ الرُّمَّانِيُّ: «يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ، أَيْ بِطَرْفٍ خَفِيٍّ» [مَعَانِي الْحُرُوفِ لِلرُّمَّانِيِّ، ٨٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

حَيْثُ دَلَّتْ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: «مِنْ أَمْرِ اللهِ» عَلَى مَعْنَى الْبَاءِ؛ لِكَوْنِ «أَمْرِ» هُنَا مُضَافَةً إِلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ وَهَذَا يَمْنَعُ عَدَّهَا بِمَعْنَى مَقْدُورِهِ – سُبْحَانَهُ – ؛ إِذْ لَا يَحُولُ بَيْنَ أَقْدَارِهِ وَمَنْ قُدِّرَتْ لَهُمْ حَائِلٌ، وَيَجْعَلُهَا بِمَعْنَى قُدْرَةٍ وَقُوَّةٍ، أَيْ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ وَهِيَ حِينَئِذٍ بِمَعْنَى الاسْتِعَانَةِ.

مَلْحُوظَةٌ:

مِنْ خِلَالِ وُقُوفِنَا عَلَى شَوَاهِدِ تَأْثِيرِ السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ فِي تَحْدِيدِ دَلَالَةِ الْمُفْرَدَاتِ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْمُفْرَدَاتِ مِنْ أَسْمَاءٍ وَأَفْعَالٍ دَلَالَةً مُعْجَمِيَّةً تُوجَدُ فِي مَادَّتِهَا الثُّلَاثِيَّةِ وَأُخْرَى لَحِقَتْهَا إِثْرَ وُجُودِهَا فِي

صِيغَةٍ صَرْفِيَّةٍ كَانَتْ قَدْ صُبَّتْ فِيهَا غَيْرَ أَنَّ لِلسِّيَاقِ النَّحْوِيِّ الَّذِي سُبِكَتْ فِيهِ الْحَقَّ فِي سَلْبِهَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ وَإِكْسَابِهَا مَعْنًى يُسْتَنْبَطُ مِنَ الصِّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ بَعْدَ الاسْتِقْرَاءِ وَالتَّحْلِيلِ.

أَمَّا الْحُرُوفُ فَلَا مَعْنَى لَهَا حَالَ كَوْنِهَا مُفْرَدَاتٍ وَلَا تَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ إِلَّا مُدْرَجَةً فِي سِيَاقٍ نَّحْوِيٍّ فَمَعْنَاهَا دَائِمًا فِي مَا يَكْتَنِفُهَا مِنَ النُّظُومِ.

وَبَعْدَ أَنْ تَمَّتْ دِرَاسَةُ أَثَرِ الْبِنَاءِ النَّحْوِيِّ فِي تَغْيِيرِ دَلَالَةِ الْمُفْرَدَاتِ وَانْقَضَى الْكَلَامُ عَلَيْهِ، يَكُونُ الشُّرُوعُ فِي دِرَاسَةِ أَثَرِ السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ فِي تَغْيِيرِ وَتَحْدِيدِ دَلَالَةِ الصِّيَغِ تَحْتَ عَنَاوِينَ ثَلَاثَةٍ هِيَ: صِيَغُ الْأَسْمَاءِ، وَصِيَغُ الْأَفْعَالِ وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الصِّيَغِ الْمُشْتَرَكَةِ، فَفِي صِيَغِ الْأَسْمَاءِ نَجِدُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدِ اشْتَقَّتْ مِنَ الْمَصَادِرِ أَسْمَاءً ذَوَاتِ أَوْزَانٍ بِأَعْيَانِهَا؛ لِتَدُلَّ عَلَى مَعَانٍ فَرْعِيَّةٍ نَحْوَ: اسْمِ الْفَاعِلِ وَصِيَغِ الْمُبَالَغَةِ وَالصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ وَاسْمِ الْمَفْعُولِ غَيْرَ أَنَّ مَعَانِيَ الصِّيَغِ تِلْكُمْ قَدْ تَتَلَاشَى إِذَا مَا زُجَّ بِهَا فِي أَتُّونِ سِيَاقٍ يُكْسِبُهَا مِنَ الْمَعَانِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ نُظُمُهُ، يَقُولُ

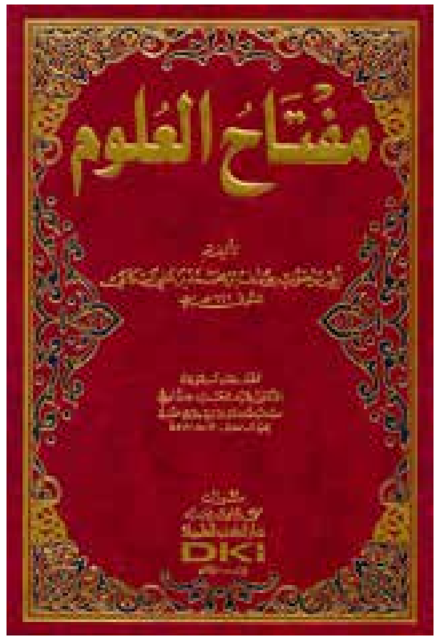

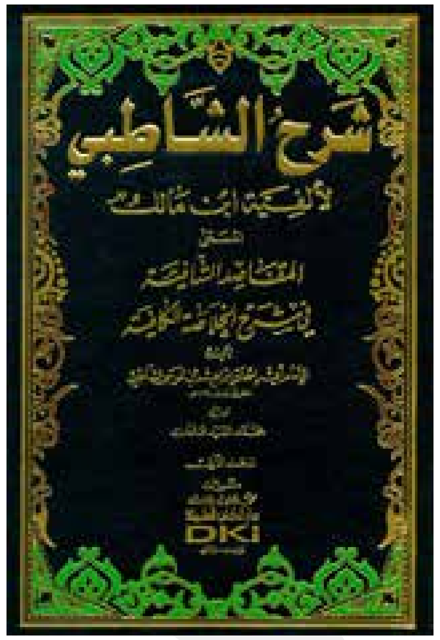

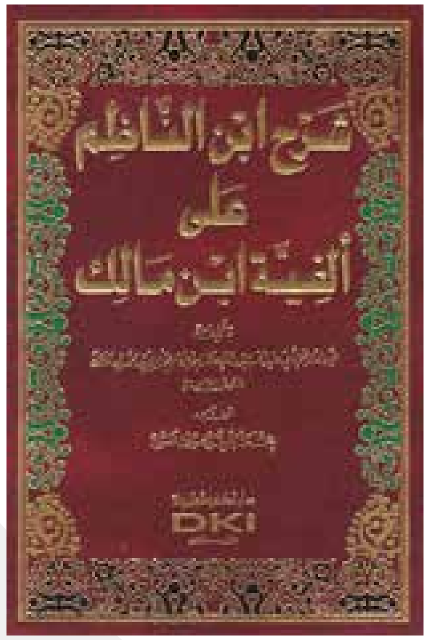

تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٣٨]

حَيْثُ الْمَعْهُودُ فِي صِيغَةِ «فَاعِل» الدَّلَالَةُ عَلَى الْحَدَثِ وَالذَّاتِ الَّتِي أَوْقَعَتِ الْحَدَثَ، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يُقَيَّدْ حَدُّ الْقَطْعِ بِاسْتِثْنَاءِ الْمُضْطَرِّ وَلَمْ يُحَدَّدْ مِقْدَارُ الْمَسْرُوقِ وَلَا كَيْفَ سُرِقَ؛ كَانَ لِزَامًا جَعْلُ «فَاعِل» فِي «سَارِق» بِمَعْنَى «فَعَّالٍ» الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ وَالاحْتِرَافِ وَهِيَ تُضَاهِي حِينَئِذٍ «نَبَّالٍ» أَيْ: مُحْتَرِفٌ صِنَاعَةَ النَّبْلِ، وَ«رَمَّاحٍ» أَيْ: الَّذِي يَمْتَهِنُ صِنَاعَةَ الرِّمَاحِ؛ لِكَوْنِ الْفُقَهَاءِ قَدِ اشْتَرَطُوا فِي الْقَطْعِ أَن يَكُونَ الْمَسْرُوقُ مَحْرُوزًا، وَأَن يَكُونَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَرُبْعَ دِينَارٍ عِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَعَنِ الْحَسَنِ دِرْهَمًا. [انْظُرْ، تَفْسِيرَ الْكَشَّافِ، ٢٩٠]. وَاعْتِمَادُ دَلَالَةِ الْمِهْنَةِ، أَيْ: مِهْنَةُ السَّرِقَةِ فِي صِيغَةِ «سَارِق» وَصَرْفُهَا عَنْ كَوْنِهَا اسْمَ فَاعِلٍ يُغْنِي عَنْ شُرُوطِ الْفُقَهَاءِ تِلْكُمْ؛ لِكَوْنِ مَنْ يَمْتَهِنُ السَّرِقَةَ يَقْتَحِمُ الدُّورَ وَيَسْتَبِيحُ الْكُنُوزَ وَلَا يَذَرُ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ تَنَالُهُ يَدُهُ؛ لِكَوْنِهِ مَعْنِيًّا بِتَدْبِيرِ شُؤُونِ حَيَاتِهِ وَحَيَاةِ مَنْ تَقَعُ عَلَيْهِ كَفَالَتُهُ، وَهُوَ أَوْلَى بِالاتِّخَاذِ لِجَعْلِهِ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ مُكْتَمِلَ الدَّلَالَةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اجْتِهَادِ مُجْتَهِدٍ وَلَا يَنَالُهُ انْتِقَادُ مُتَرَبِّصٍ مِن مِلَّةٍ أُخْرَى.

وَيَقُولُ الْأَعْشَى: [دِيوَانُهُ، ١٣٩–١٤١]

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا
عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا
يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

حَيْثُ تَخَلَّتْ صِيغَةُ «فَاعِل» فِي «نَاشِرِ» عَنْ كَوْنِهَا اسْمَ فَاعِلٍ تَدُلُّ عَلَى الْحَدَثِ وَالذَّاتِ الَّتِي أَوْقَعَتِ الْحَدَثَ وَاكْتَسَبَتِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَعْنَى «مَفْعُول» بِفَضْلِ السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ؛ لِكَوْنِ التَّعَجُّبِ مِمَّا فُعِلَ بِهِ لَا مِمَّا فَعَلَ هُوَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الْقَارِعَةُ: ٦–٧]

حَيْثُ جَاءَتْ صِيغَةُ «فَاعِل» فِي «رَاضِيَة» بِمَعْنَى «مَفْعُول»، وَعَلَيْهِ تَكُونُ «رَاضِيَةٌ» بِمَعْنَى «مَرْضِيَّة»؛ لِكَوْنِ الْعِيشَةِ لَيْسَتْ لَهَا إِرَادَةٌ حَتَّى تَفْعَلَ الرِّضَى وَهُوَ فِعْلٌ قَلْبِيٌّ كَمَا نَعْلَمُ بَلْ يَقَعُ عَلَيْهَا الرِّضَى وَيُفْعَلُ بِهَا، وَأَشَارَ إِلَى هَذَا ابْنُ عَاشُورٍ حِينَ قَالَ: «وَوَصْفُ الْحَيَاةِ بِـ «رَاضِيَة» مَجَازٌ عَقْلِيٌّ؛ لِأَنَّ الرَّاضِيَ صَاحِبُهَا رَاضٍ بِهَا فَوُصِفَتْ بِهِ الْعِيشَةُ؛ لِأَنَّهَا سَبَبُ الرِّضَى أَوْ زَمَانُ الرِّضَى» [التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ، ٣٠/٥١٤].

وَفِي صِيَغِ الْأَفْعَالِ نَجِدُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ وَضَعَتْ صِيَغَ الْأَفْعَالِ

دَالَّةً عَلَى الزَّمَنِ نَحْوَ: «فَعَلَ» الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الزَّمَنِ الْمَاضِي، وَ«يَفْعَلُ» الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْحَالِ أَوِ الاسْتِقْبَالِ وَهْيَ دَقِيقَةٌ فِي مَا كَانَتْ قَدْ وُضِعَتْ لَهُ مَا لَمْ يَكْتَنِفْهَا سِيَاقٌ نَّحْوِيٌّ يَسْلُبُهَا تِلْكُمُ الدَّلَالَةَ وَيُحَمِّلُهَا أُخْرَى نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

[الْبَقَرَةُ: ٨٧]

حَيْثُ اكْتَسَبَ الْفِعْلُ «تَقْتُلُون» مَعْنَى الْمُضِيِّ مِن سِيَاقِ الْكَلَامِ مُتَخَلِّيًا عَنِ الْمُضَارَعَةِ الَّتِي تُوجَدُ فِي صِيغَتِهِ الصَّرْفِيَّة، وَقَدْ أَشَارَ الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى ذَلِكُمْ بِمَا أَثَارَ مِنْ تَسَاؤُلٍ بِقَوْلِهِ: «فَإِنْ قُلْتَ هَلَّا قِيلَ: وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَنْ تُرَادَ الْحَالُ الْمَاضِيَةُ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ فَظِيعٌ فَأُرِيدَ اسْتِحْضَارُهُ فِي النُّفُوسِ وَتَصْوِيرُهُ فِي الْقُلُوبِ، وَأَنْ يُرَادَ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَهُمْ بَعْدُ؛ لَأَنَّكُمْ تَحُومُونَ حَوْلَ قَتْلِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَوْلَا أَنِّي عَصَمْتُهُ مِنْكُمْ...» [تَفْسِيرُ الْكَشَّافِ، ٨٥]

وَقَالَ تَأَبَّطَ شَرًّا [دِيوَانُهُ، ٢٢٥]:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ
بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ
بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي
بِسَبْسَبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا كِلَانَا نِضْوُ أَيْنٍ
أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى
لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولٍ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهَشٍ فَخَرَّتْ
صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

حَيْثُ جَاءَ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ الصِّيغَةِ «أَضْرِبُهَا» دَالًّا عَلَى مَا مَضَى؛ لِكَوْنِ الْكَلَامِ مَسُوقًا عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ، وَفِيهِ نُكْتَةٌ بَلَاغِيَّةٌ تَبْدُو فِي كَوْنِهِ اسْتَحْضَرَ الْحَدَثَ بِنَقْلِهِ مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْحَاضِرِ.

أَمَّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ الصِّيَغِ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ ثَمَّةَ صِيَغٌ تَشْتَرِكُ فِيهَا الْأَسْمَاءُ وَالْأَفْعَالُ، كَانَ السِّيَاقُ النَّحْوِيُّ فَيْصَلًا تَمْتَازُ بِتَأْثِيرِهِ الْأَسْمَاءُ وَالْأَفْعَالُ عَنْ بَعْضِهَا نَحْوَ قَوْلِ الشَّيْخِ تَاتَاي [مُقْتَبَسٌ مِنْ بَرْنَامِجِ: دُكَّان وَدَّ الْبَصِير، فِي الْإِذَاعَةِ السُّودَانِيَّةِ] يَمْدَحُ جَارًا كَانَ قَدْ مَنَحَهُ مِلْءَ زُجَاجَةٍ جَازًا:

مَلَكْتُ أَزِمَّةَ الشِّعرِ احْتِكَارًا
وَلِي فَلَكُ الْقَرِيضِ غَدَا مَدَارَا
وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ يَا عَلِيُّ
تَسَنَّمْتَ الْمَعَالِيَا وَالْفَخَارَا
مَلَأْتَ زُجَاجَةً جَازًا وَإِنِّي
مِنَ الْأَشْعَارِ أَمْلَأُهَا نَضَارَا
وَلَوْلَا جَازُكُمْ مَا جَازَ لِي أَنْ
أَرَى شَايًا وَلَا أَوْقَدْتُ نَارَا
وَلَا يَنْفَكُّ لِيمِي كُلَّ صُبْحٍ
بِصَحْنِ الْفُولِ يُولِينَا اعْتِبَارَا
وَفِي نَقْطِ الْحُرُوفِ نَرَى دِقَاقًا
مِنَ الْأَسْرَارِ نَشْهَدُهَا مِرَارَا
فَفِي جَازٍ نَرَى فِي الزَّايِ نَقْطًا
وَنَقْطُ الزَّايِ فِي جَارٍ تَوَارَى
فَعِنْدَ النَّقْطِ صَارَ الْجَارُ جَازًا
وَعِنْدَ الْحَذْفِ صَارَ الْجَازُ جَارَا
وَلَوْ عَرَفَ الْخَلَائِقُ صُنْعَ جَارِي
لَقَرَّبَ كُلُّ شَخْصٍ مِنْهُ دَارَا
وَيَا هَيْهَاتَ لَوْ بَحَثُوا دُهُورًا
لِيَلْقَوْا مِثْلَهُ بَاتُوا حَيَارَى
وَلَوْ صَحَّ الْجِوَارُ بِلَا جِدَارٍ
أَزَلْنَا بَيْنَ بَيْتَيْنَا الْجِدَارَا

حَيْثُ تَصْلُحُ مُفْرَدَةُ «جَاز» أَنْ تَكُونَ فِعْلًا مَاضِيًا وَاسْمًا لِضَرْبٍ مِنَ الْمُشْتَقَّاتِ النِّفْطِيَّةِ غَيْرَ أَنَّهُ عِنْدَمَا وَرَدَتْ مُنْتَظِمَةً فِي سِيَاقٍ نَّحْوِيٍّ اكْتَسَبَتْ مِنْهُ مَا يُحَدِّدُ دَلَالَتَهَا وَهْوَ قَوْلُهُ: «لَوْلَا جَازُكُمْ مَا جَازَ لِي أَنْ أَرَى...»؛ لِكَوْنِ «جَازُكُمْ» اسْمًا لِوُقُوعِهَا مُضَافًا وَالإِضَافَةُ مِنْ خَصَائِصِ الْأَسْمَاءِ، أَمَّا «جَازَ لِي أَنْ أَرَى» فَفِعْلٌ لِكَوْنِهِ أُسْنِدَ لِلْمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ وَتَعَلَّقَ بِهِ جَارٌّ وَمَجْرُورٌ.

وَبَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى مَا تَمَّ اسْتِعْرَاضُهُ مِن نُصُوصٍ كَانَتِ الْمُفْرَدَاتُ وَالصِّيَغُ فِيهِنَّ قَدْ سُلِبْنَ مَا كُنَّ يُنَاطُ بِهِنَّ حَمْلُهُ مِنَ الدَّلَالَةِ وَحُمِّلْنَ أُخْرَى مُتَأَثِّرَاتٍ بِمَا انْتَظَمَهُنَّ مِنْ سِيَاقٍ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْأَسِيقَةَ النَّحْوِيَّةَ لَهَا عَظِيمُ الْأَثَرِ فِي تَغْيِيرِ وَتَحْدِيدِ دَلَالَةِ الْمُفْرَدَاتِ وَالصِّيَغِ وَلَا غَرْوَ فِي ذَلِكُمْ، فَالنَّحْوُ فَرْعُ الْمَعْنَى.

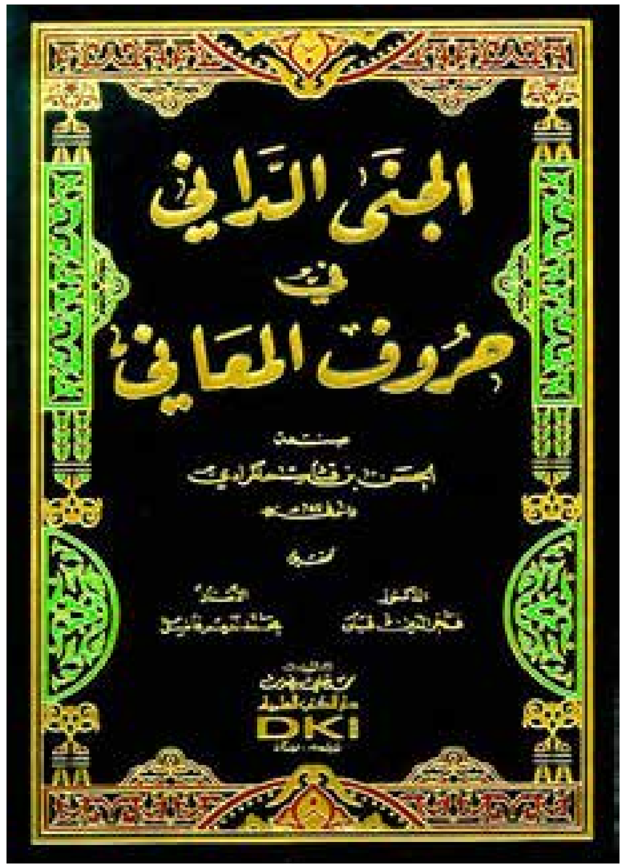

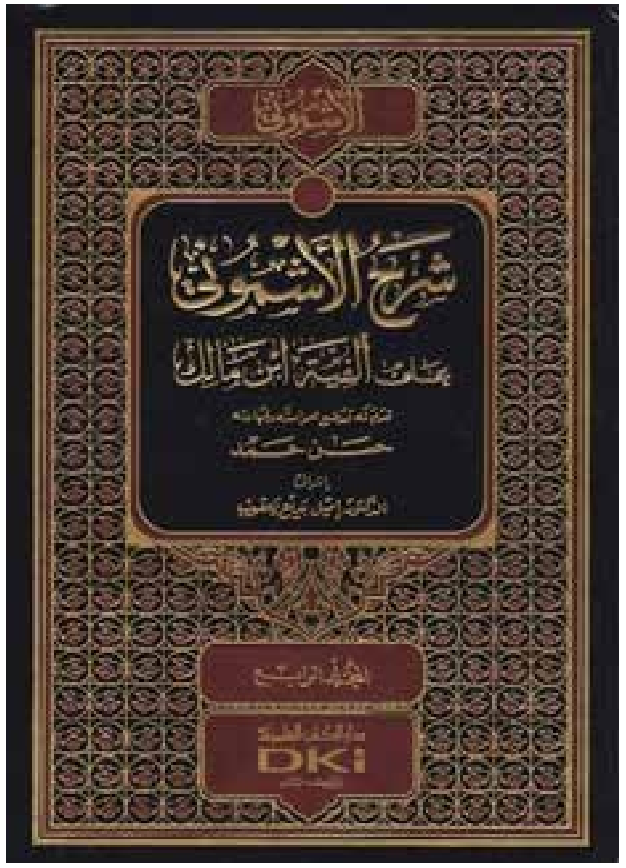

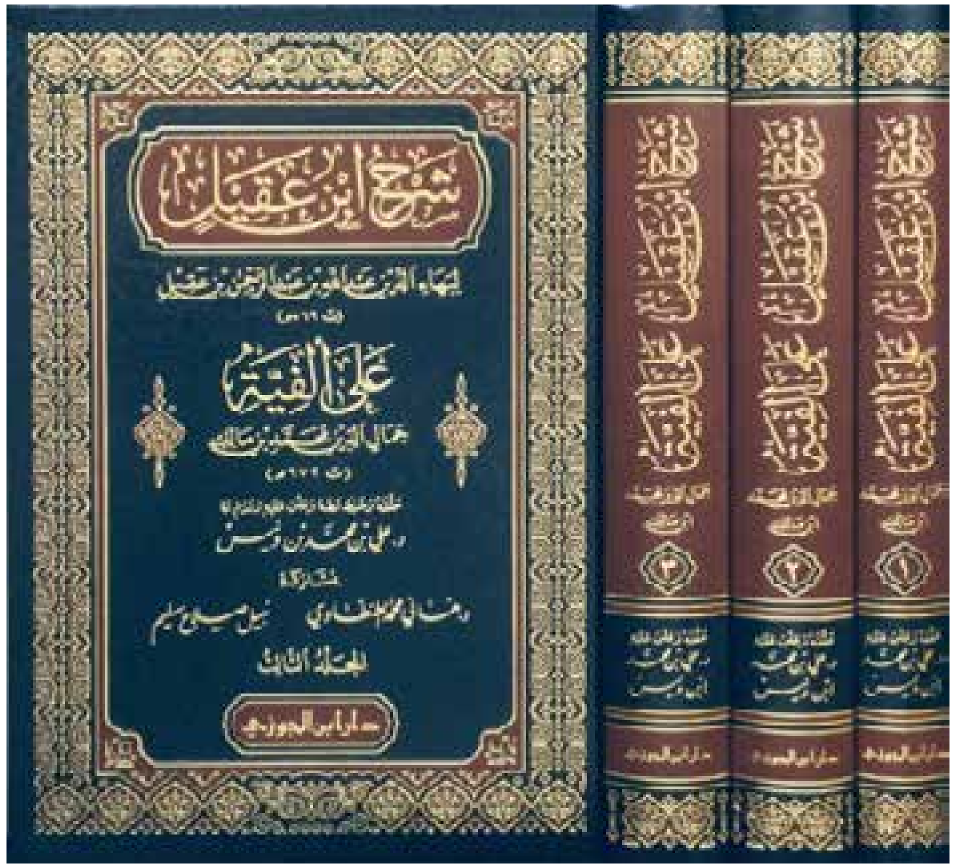

بعض خصائص العربيّة ومميّزاتها

من الثّابت أنَّ العربيّة تواجه اليوم تحديّات جليلة على كل المستويات والأصعدة، ولكنّها على الرّغم من ذلك، فقد وقفت سدًا منيعًا في وجه كلّ من يريد المسّ أو الإطاحة بها، أو تخريب ألفاظها، أو انتزاع لبّ دلالاتها، أو تفتيت مفاهيمها وسلب ثقة أهلها بها. وهي - قبل هذا وذاك- تتعرّض لكثير من العواصف والأزمات من طرف أعداء العربيّة والجاهلين لقيمتها أو الحاقدين على المتكلّمين بها؛ لذا سوف نبرز بعض خصائص هذه اللّغة ومميّزاتها التي جعلتها في تطوّر دائم، بتناولنا لبعض الظّواهر التي تتّسم بأسرار عجيبة، مكّنت العربيّة من الصّمود وتجاوز كلِّ العقبات.

د.عبد الإله الإسماعيلي
المملكة المغربيّة

وعلى هذا فإنّ العربيّة ليست نظامًا تواصليًّا وحسب، بل هي لُحمة الفكر وسُداه، وأداة للتفكير والإبداع. وحتّى نكون منصفين لها «علينا أنْ نَدرسَ واقعنا السّوسيو- لساني، ونستخرج مختلف التّغيّرات التي مسّت استعمالها وانتشارها أو انحسارها ليس فقط في المجتمعات العربيّة، بل في العالم، وذلك من أجل وضع الطّرائق التّعليميّة المناسبة والآليّات والتّقنيّات النّاجعة»[(١)].

وتتّضح خصائص العربيّة ومميّزاتها فيما يأتي:

أولًا- التّكرار:

ويمكن تقسيمه إلى قسمين: تكرار يهمّ اللفظ والمعنى. وآخر يهمّ المعنى دون اللّفظ كما هو ثابت في كتاب (المثل السّائر) لابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) الذي حدّد في مؤلّفه الأوّل بعض بنود الاطّلاع المعرفيّ التي ينبغي على المؤلّف أو البلاغيّ أنْ يلتزم بها، وهي ثمانية عرضها مؤلّف مقدّمة الكتاب.

ولعلّ تكرار المعنى دون اللّفظ هو ما شرحه ابن الأثير: «وممّا ينتظم بهذا السّلك أنّه إذا كان التّكرير في المعنى يدلُّ على معنيين: أحدهما خاصّ والآخر عام كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

فإن الأمر بالمعروف خير، وليس كلُّ خير أمرًا بالمعروف، وذلك أنَّ الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف. ففائدة التّكرير ها هنا أنّه ذكر الخاص بعد العام للتّنبيه على فضله، كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]

وكقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرّحمن: ٦٨]

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]

فإنّ الجبال داخلة في جملة الأرض، لكنَّ لفظ الأرض عام، والجبال خاص. وفائدته ها هنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليها وتفخيم أمرها»[(٢)].

ثانيًا- التّقديم والتّأخير:

هو أحد الأساليب الرّفيعة التي تزخر بها لغتنا العربيّة، وهو يمَسّ على مستوى الاستعمال الجانبَ البلاغيَّ على الخصوص؛ لأنّه يرفع قيمة العبارة، ويدلّ الدّارس أو المتعلم على معالم الفصاحة التي تتمتّع بها اللّغة العربيّة، ويُمكّنه من التّعرف على بعض مؤهّلات العربيّة ومسالكها. ويكون في النّحو كذلك وله أسبابه ودواعيه: كأنْ يتقدّم الفاعل أو الخبر على الفعل أو المبتدأ. وهذا يدخل ضمن العلاقة الإسناديّة القائمة: ومن الحالات التي يتقدّم فيها الخبر على المبتدإ وجوبًا:

١- إذا اتّصل بالمبتدأ ضميرٌ يعود على بعض الخبر:

من المعلوم أنّ الخبر قد يكون كلمة واحدة مثل المبتدأ، وقد يأتي مرفقًا بأجزاء كلاميّة متعدّدة، ولأجل هذا فإنْ صادف عودُ الضّمير المتصّل بالمبتدأ على أحد أجزاء الخبر، حينئذ يتعذّر حلول المبتدأ في مكانه صدر الجملة. مثال ذلك قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]

فالشّاهد هنا هو الخبر شبه الجملة: «على قلوبٍ» الذي تقدّم على المبتدأ «أقفالها» بسبب عود الضّمير «الهاء» على بعض الخبر «قلوب».

٢- إذا كان المبتدأ نكرة غير مخصّصة والخبر شبه جملة:

المقصود بالنّكرة غير المخصّصة بأنْ تكون غير موصوفة أو مضافة، فإذا حصل ذلك وكان الخبر شبه جملة، فإنّ الخبر يتقدّم على المبتدأ. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]

الخبر شبه جملة مقدّم، والمبتدأ نكرة غير مخصّصة «مرض».

إلّا أنّ الأمر قد يتجاوز ذلك إلى إقرار تقديم وتأخير في إطار علاقة أخرى هي العلاقة البلاغيّة التي يؤطّرها علم البيان. والتّقديم والتّأخير على ضربين: ضرْب يراعى فيه نيّة التّأخير، وآخر يتمّ فيه نقل الشّيء عن حكم إلى حكم. وهذا لعمري من أسرار بلاغة الكلام كما أكّد على ذلك السّيوطيّ (ت: ٩١١هـ). وقد وضّح البلاغيّون الغاية من هذا التّقديم والتّأخير من خلال هذا

(١) لطيفة هباشي: تعليميّة اللّغات واللّغة العربيّة: إشكاليّات وتحديّات؛ مجلة التّواصل في اللّغات والآداب؛ جامعة باجي مختار عنابة؛ عدد ٣٧؛ ٢٠١٤، ص.١٨٠.

(٢) المثل السّائر، لابن الأثير، القسم الثّالث، ص:٢٨.

المستوى البلاغيّ كأنْ يتعلّق الأمر بتعظيم أو مناسبة أو سَبْق... يمكن أنْ يراجع في هذا الشّأن عبد القاهر الجرجانيّ (ت: ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، وابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ)، والزَّمَلْكاني (ت: ٧٢٧هـ) وغيرهم ممّن ألّفوا في هذا اللّون الرّامي إلى هذا المتغيّر الأسلوبيّ. وحتّى سيبويه النّحويّ (ت: ١٨٠هـ) المتميّز قد نبّه له: «كأنّهم كانوا يقدّمون الذي بيانُهُ أهمُّ لهم، وهُمْ ببيانه أعنى وإنْ كانا جميعًا يَهُمّانهم ويعنيانهم»[٣].

ثالثًا– القياس: وهو حَمْلُ غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه كما ذكر ابن الأنباريّ، أو كما قال إبراهيم أنيس: حمْل المجهول على المعلوم. وهذا الباب فيه من اللّطائف والقوّة ما يُغني اللّغة عن باقي الأبواب. وهو من الخصائص المميّزة للعربيّة على الخصوص.

و«القياس» مُشتقّ من قاس يقيس قياسًا بمعنى قدّر. فقياس أيِّ شيء بغيره أو على غيره هو بالأساس قدره على مثله. و«القياس» بهذا المعنى، «ممارسة إنسانيّة يوميّة بين الأفراد والجماعات؛ تتجلّى في مُختلف العمليّات التي نقوم بها من أجل تقدير أو وزن معطيات حياتنا وما يحيط بنا، سواء أكانت أشياء ماديّة كالأحجام والأوزان أم معنويّة كعلاقتنا بالآخرين؛ وذلك كلُّه بهدف ضبط التّعامل فيما بيننا»[٤]. وعلى هذا يكونُ القياس من الظّواهر أو الوحدات المهمّة التي لا يمكن الاستغناء عنها لأنّها لا تقتصر على ما هو رائجٌ في اللّغة، بل يمكن أنْ تنسحب على قياس حتّى السّمات المزاجيّة والنّفسيّة للإنسان لفهم شخصيته ومدى توازنها في الحفاظ على الملامح الإبداعية لديه، والتي بها يستطيع أن يتعايش ويتواصل وقد بصم بصمة في واقعه الاجتماعي.

رابعًا– الارتجال/الإبداع/التّوليد: وهو الإتيان بكلمات جديدة تتوافق مع أصول العربيّة، ولا أقول إنّنا قد ننجح في تقديم معطيات لغويّة جديدة عبر هذه الإمكانية «الارتجال»، بقدر ما نسعى إلى تلمُّس الجانب الإبداعي في اللّغة الإنسانية، وإدراك مدى جدّية ما ندعوه بالإبداع المباشر الذي نُمارسه يوميًّا باللّغة العامّيّة دونما كبير معاناة، ولكن العربيّة الفصيحة قد تتيح لنا فرصًا جديدة ومتجدّدة بعد تفكير وتركيز ومواجهة وعزيمة تجعلنا ننسج ألفاظًا وتراكيب جديدة تخدم العربيّة، وهي في الوقت نفسه تعبِّر عمَّا تزخر به اللّغة من مؤهّلات راقية تسمح بضخّ روحٍ جديدة وعناصر مليحة تقوي اللّغة وتدفع بها إلى الأمام. ينبغي أن نشير في هذا الباب إلى ما يقابل الارتجال، وهو المعبَّرُ عنه بالثقافة اللفظية التي تظهر أثناء الكتابة. فكلما كان الكاتب أو المؤلّف حاملا لمخزون ثقافيٍّ استطاع أن يترجم ذلك المخزون إلى ألفاظ قويَّة تُظهِر براعة اطِّلاعه، ومن ثَمَّ متانة العربيّة التي تسمح ألفاظُها وتراكيبُها بهذا السموّ التعبيريّ المتميّز الذي يربط المطلوب بالمرغوب. أمّا التَّوليد فهو استحداث وحدات لغويّة جديدة من قلب المادّة اللّغويّة الأوّليّة للغة، والعمل على إخضاع هذه الوحدات لتوسعة دلالية، وهو بهذا المعنى يُعَدّ آليّة من آليات تطوّر اللّغة وتنميتها.

خامسًا– التّعريب: وهو تعريب ألفاظ إفرنجيّة وذلك بإخضاعها لمنهج العربيّة الموافق لطبيعة بنيتها، ليُعرَف الدَّخيل من الصّريح. والتَّعريب من الظّواهر المهمّة التي يمكن استغلالها لتغطية طبقة كبيرة من الألفاظ الأعجميّة، إذا تعذّر وجودُ ألفاظ مقابلة لها في العربيّة. وهذا واقع في كل لغات العالم المتداولة على نطاق واسع. وهنا يمكن أن نطرح سؤالا جوهريًّا هو: لماذا لم يتمَّ تعريب برامج التعليم العالي (في المغرب) وموادّه في مختلف الشُّعَب والتّخصّصات؟ هل لعدم قدرة العربيّة على استيعاب تلك المواد اللفظية الوافدة عليها، أم أنّ المسألة مُرتبطة بعدم قدرة أهل العربيّة على مواكبة هذا السّيل من المصطلحات العلميّة على الخصوص؟

الحقيقة أن تعريب الألفاظ العلميّة يطرح مشكلا يكمن في عدم توفّر العربيّة على مقابلات مباشرة لها، وهذا راجعٌ لإبعاد العربيّة عن وقائع الإبداع الحاصل في لغة من قبيل الإنجليزيّة مثلا، وفهم أبعاد التّجربة الغربيّة في حينها؛ لأنَّ البُعد الزمنيَّ عن تلك التَّجارب يمنح للعربيّة وأهلها راحة بيولوجيّة، تولِّد خمولا يُفضي إلى غياب مهول عن مكامن وإمكانات وسبل تيسير العمل اللّغويّ الذي يحتاج إلى مسايرة ما يجري في واقعٍ ما لنسجِ ألفاظٍ من

(٣) الكتاب؛ ج.١؛ ص.١٤-١٥

(٤) محاضرات في التّقويم والتّشخيص في التّربية الخاصّة؛ بطرس حافظ بطرس؛ ٢٠١٠.

قلب اللّغة توازي جديدًا خرَّج تلك الإبداعات الاصطلاحيّة المنبثقة عن عمل شاق، ومتابعة جدّية لمجريات التّجارب القائمة. فلو فرضنا أنَّ المتابعة كانت جدّية كما يحصل في لغات أخرى من قبيل الألمانيّة والفرنسيّة والإسبانيّة...لاكتفينا بالتَّرجمة دون التّعريب؛ فالمشكل كما عبَّر عن ذلك الفاسي الفهري هو: «مشكل الجانب التّعبيري للغة (و)هو، دون شك، مشكل نسبيٌّ إذا قورنت الطّاقة التَّعبيرية للغة معينة بالطّاقة التعبيرية للغة أخرى. وهذا يستدعي الوقوف على العلاقة بين الجهاز الاصطلاحي (والمفرداتي بصفة أعمّ) الذي تُوَفِّرُهُ اللّغة وبين التيّار المعلوماتي الذي تساعد على التقاطه، وكذلك الوقوف على افتراض النسبيّة اللّغويّة لتبرير التدخّل. وهذا الجانب قد يقود إلى مغالطة ثالثة تكمن في تصوّرٍ خاطئ للعلاقة بين اللّغات بصفتها أجهزة تعبيريّة. ومن ثمَّ الدّور الذي يخوّل للتّرجمة في إعداد اللّغة وإعادة تنظيم جهازها التّعبيريّ»[٥].

فالفاسي نظر إلى المسألة من الجانب التّعبيريّ للّغات، وهو جانب مهمّ إذا تمّت مقارنة اللّغات من هذا الباب: فهل عدم القدرة على التّعبير عن بعض المفاهيم أو الاصطلاحات أو تفسيرِها، يقطع الطّريق على العربيّة أو غيرها من اللّغات غير المواكبة للتّطوّر، في تمثل المشكل الاصطلاحيّ المرتبط حتمًا بعدم نضج المعجم، الذي يبقى بعيدًا كلّ البعد عمّا يجري في الواقع من نشاط لغويّ يسمح بتطوير التّجربة اللّغويّة وتقوية المقاربة اللّغويّة التّعبيريّة بكلّ أبعادها المتمثّلة في خطابها التّربويّ والسّياسيّ والإشهاريّ والدّينيّ...

ولعلّ تأهيل اللّغة يحتاج إلى خدمة دائمة ومتواصلة، وذلك باستخدام ما تزخر به اللّغة من مؤهّلات وخصائص تسمح لها ولوج العديد من العوالم كيفما كان نوعها ودرجة تعقيدها. فاللّغة بطبيعتها مِطواعة لا تحتاج لكثير عناء كي تعبّر عن المطلوب.

سادسًا– الحذف: الذي يمكن تقسيم مبادئه إلى: الأغراض، والأسباب، والشّروط. يقول ابن جنّي: «قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته[٦]».

نلحظ من هذا التّعريف أنّ نسقَ العربيّة يقبل حذف كلِم هذه اللّغة وهو بهذا يصبح مهيًّأً للنّظر في تحليل هذه المستويات، وانتزاع أسبابه وأغراضه وشروطه. لنلاحظ مثلًا أنّ الفعل اللّازم

(٥) اللسانيات واللغة العربية؛ الكتاب الثاني؛ ص: ١٨٥-١٨٦.

(٦) الخصائص، ج٢؛ ص:٣٦٠.

يتعدّى بالحرف وأنّ الحرف يُحذف أحيانًا فينتصب المجرور على نزع الخافض، كما أنّ الفعل المتعدّي يتحوّل إلى لازم: وهي مرحلة – كما يشير د. نهاد الموسى– بين اللّزوم والتّعدي فإنّه لم يكنْ الفعل يلبث أنْ ينتقل إلى التّعدي، ولم يكنْ الاسم المنتصب بنزع الخافض يلبث أنْ يصبح مفعولًا به صريحًا. وأنت إذا أردت أنْ تقتصر من الفعل على الدّلالة على الحدث لم تعبأ أنْ تذكر له مفعولًا. فأنت تقول مثلًا: أخي يدرس الفلسفة، أو: أخي يتعلّم الطّب، وتقول في سياق آخر: أخي يدرس ويتعلّم (من غير أنْ تذكر المفعول)؛ لأنّ قصدك إلى تسجيل الأحداث المستفادة من الأفعال فحسب.

وينبغي التّنبيه إلى أنّ العربيّة قد لا تحفل بتثبيت بعض المسائل معتبرة إيّاها زائدة أو أنّ إضافتها هي للتّأكيد أو المبالغة كما هو الشّأن بالنّسبة للتّذكير والتّأنيث. فمن المعروف أنّ العربيّة تميل إلى التّذكير أكثر من التّأنيث: فنقول امرأة مُرضع، وحامل، وبقرة حلوب...، وهذا يدخل في وضع اللّغة، وطبيعة صنع اللّفظ الذي قد لا يحتمل أداة التّأنيث: «كما أنّ اللّغات السّاميّة لم تكن تفرّق بين المذكّر والمؤنّث من خلال علامات التّأنيث بَل كان التّفريق يتمّ عن طرائق اختلاف اللّفظ، نحو: أب وأمّ، وذكر وأنثى، ... ثُمّ مالت هذه اللّغات إلى التّخصيص فميّزت بين الصّفات المذكّرة والمؤنّثة بالتّاء، وتجاوزت بذلك مرحلة تعميم التّذكير[٧]».

نلحظ من خلال هذا النّصّ أنّ اللّغات ما كانت لتُميِّز بين المذكّر والمؤنّث لولا تخصيصها؛ في مَرحلة معيّنة من تاريخ تطوّرها؛ في إضافة التّاء على بعض الألفاظ أو طبقة منها «الصّفات»، وهذا يؤكّد البعدَ التّطوّريّ للّغات، وفرض اطّراد قاعدة التّأنيث على العربيّة. وإنْ كان هناك تشويش على هذه القاعدة جرّاء تواجُدِ ألفاظ تحتمل التّاء وتظهر دونها، فهذا راجع إلى إقبال البعض فرض هذه القاعدة من جهة، ومن جهة أخرى مدى تحمّل اللّفظ هذه التّاء ورواجه دونها على مستوى الاستعمال والتّداول. كما أنّ هذا الاختلال في ظهور بعض الألفاظ محمّلة بالتّاء، وإن كانت

(٧) ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية: ص.١٧-٢٥.

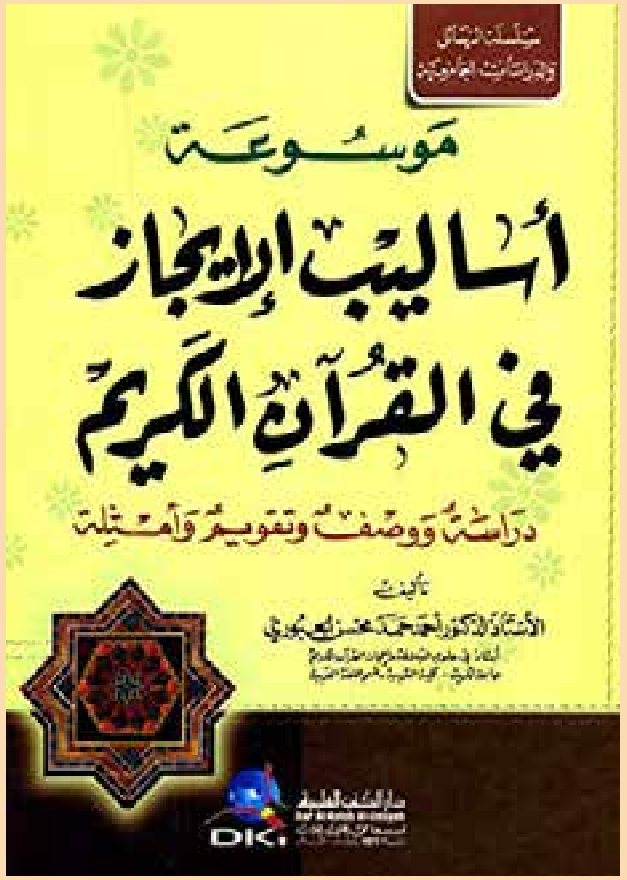

في مرحلة سابقة قد ظهرت بدونها يجعلنا نرجّح ألفاظ المرحلة السّابقة ونُضفي عليها سمة الأفصح. ممّا قد يبدو منطقيًّا تحفيظ مجموع هذه الألفاظ لأطفالنا والمتمدرسين في مراحلهم الأولى حتى يكتسبوا بعض الخصائص الجوهريّة لعربيّتهم، ويتذوّقوا من خلالها الفصيح والأفصح وهكذا. لنستمع إلى ابن جنّي (ت: ٣٩٢هـ) وهو يُسَوّي بين التّذكير والتّأنيث مع التّعليل، لنعلم أنّ الأمر يحتاج إلى تحفيظ: « التّذكير والتّأنيث يستويان في قولهم: رجل خصمٌ وامرأة خصمٌ، ورجل عدلٌ وامرأة عدلٌ، ورجل ضيفٌ وامرأة ضيفٌ، وأنّ التّذكير أتى هذه الألفاظ من قِبل المصدريّة، وإذا تحوّلت هذه المصادر إلى صفات جاز تأنيثها، نحو: امرأة عدلة، وفرس طوْعة القياد، وعلى ذلك أنّث بعضهم خصمة وضيفة»[٨].

وهذا يدخل في مجال علم العرب الذي اعتبره ابن فارس (ت:

(٨) الخصائص، ج ٤، ص: ٢٠٣-٢٠٥.

٣٩٥هـ) منذ القرن الرّابع الهجريّ: «أصلا وفرعًا: أمّا الفرع فمعرفة الأسماء والصّفات، كقولنا: رجل وفرس وقصير وطويل. وهذا هو الذي يبدأ به عند التّعلم[٩]».

سابعًا– الاشتقاق: وينقسم إلى:

١– صغير: وهو أخذ صيغة من أخرى مع اتّفاقهما معنى ومادّة أصليّة، وهيأة تركيب لها؛ ليدلّ بالثّانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة؛ لأجلها اختلفا حروفًا أو هيئة، كضارب من ضرب وحذر من حذر...فـ (ضرَبَ) دالّ على مطلق الضّرب فقط، أمّا ضاربٌ، ومضروب، ويضرب واضرب، فكلّها أكثر دلالة، وأكثر حروفًا، وضرب الماضي مُساوٍ حروفًا وأكثر دلالة، وكلّها مَشتركة في (ض ر ب)[١٠].

٢– كبير: وهو القلب (وضع حرف مكان آخر بالتّقديم والتّأخير)، أو (انتزاع كلمة من أخرى بتغيير في ترتيب بعض أحرفهما بتقديم بعضها على بعض مع تشابهٍ بينهما في المعنى واتّفاق في الأحرف[١١]. وهو محدود في العربيّة، ولم يأخذ به الباحثون لقلّته. ومن أمثلته ما ورد عند: جذب وجبذ، ويقولون:

(٩) الصاحبي، ص:١١.
(١٠) المزهر، السيوطي، ج١، ص:٣٤٦.
(١١) عبد الله أمين، الاشتقاق: ص٢.

ناقة ضمرز وضمزر.

٣– أكبر: وهو الإبدال، أو انتزاع كلمة من أخرى بتغيير في بعض أحرفهما مع تشابه بينهما في المعنى واتّفاق في الأحرف الثّابتة، وفي مخارج الأحرف المغيّرة أو في صفاتها أو فيهما معًا، مثل: أزّ وهزّ؛ أو: الصّقر والسّقر.

٤– كبّار: وهو النّحت اللّغويّ: (انتزاع كلمة من كلمتين)، كما في: حوقلة =لا حول ولا قوّة إلا بالله، وهيللة =لا إله إلا الله...

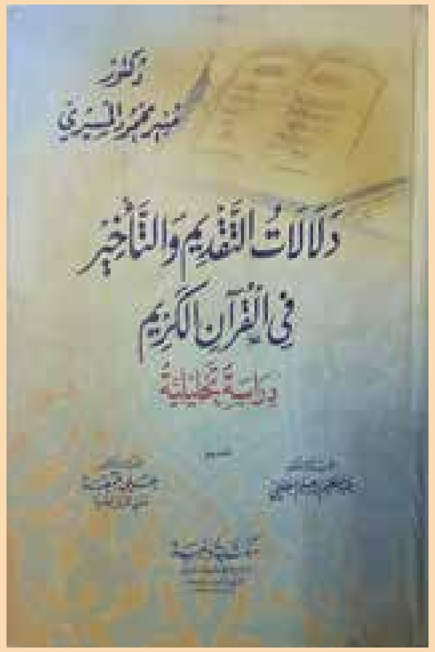

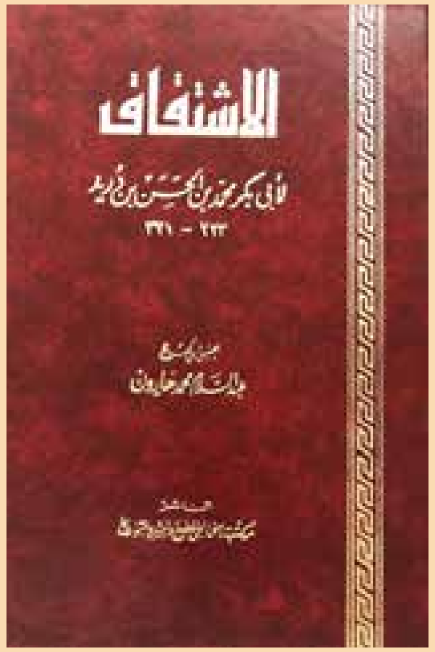

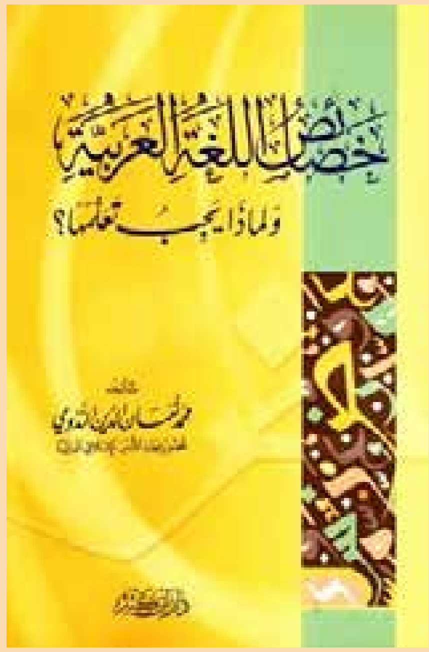

طَيْبةُ الطّيِّبة
المدينة المنوّرة

د. مباركه البراء

لأنَّ طَيْبةَ دارُ المُصْطفَى وَكَفَى　　بالْمُصْطَفَى نَسَبًا بالمُصْطَفَى شَرفا
لأنَّ طَيْبَةَ للإِسْـــلام مَنْزِلَـةٌ　　لَأنَّ طَيْبَةَ إيمانٌ وَعَهْـدُ وَفَـــا
أحْبَبْتُ طَيْبَةَ دارًا قد تخيَّـــرَها　　خَيرُ النبيئين مَهْدَ الحَقِّ والكنفَـــا

****

إليْك أَحْمـلُ روحًا طالمَا حَلُمتْ　　أنْ تَلْتَقيك وقَلْبًا مُغْرَمًا دَنِفَـــا
تَشَرَّبَ الحُـبَّ آمادًا وأَزْمنَـــةً　　حُبًّا جديدًا، وحُبًّا عَالقًا سَلفَـــا
فَكَيْفَ أُعْلِنُ حُبِّي أو أبوحُ ؟ تُرَى　　أيُمْنَحُ الْوَصْلَ مَنْ عَنْ حُبِّهِ كَشَفَا؟

****

مِنْ أيْنَ أبدأُ والأيَّـــامُ أُغْنِيَـــةٌ　　مَدَى الزَّمَانِ، ولحنٌ رائعٌ عُزِفَا؟
مِن أيـن أبـدأُ والآثـــارُ ماثِلَـــةٌ؟　　كُلُّ الأماكِن تاريخٌ لمَـــنْ عَرَفَا
فذا قُباءٌ، وذا ثـورٌ، وذا أُحُـــدٌ　　وهذه القُبَّةُ الخَضْراءُ فَيْضُ صَفَا
هنا أقـامَ رَسـولُ اللّه شِـرْعَتَـهُ　　هُنا دَعا وسَعَى، صَلَّى هُنَا اعْتَكَفَا
والخَيْلُ تعْلكُ من شَـوْقٍ أعنَّتَها　　إلى الجهاد، وَنَصْرُ اللّه قَدْ أَزِفَـــا
تَغْدو الجُيوشُ وَجُنْدُ اللّهِ يَكْلَؤُهَا　　قَدْكَانَذَلِكَ فِي التَّارِيخِ مُنْعَطَـــفَا!!!

****

يَــا دَارَ خَـيْرِنَـبِيٍّ جَـاءَ خَـاتِمَـةً　　للرُّسْلِ آسَى، وَكَانَ الْجُرْحُ قَـدْ نَزَفا
بَـثَّ الهدايَـةَ والأيَّـــامُ مُعْتِمَـــةٌ　　وَاسَى الضِّعَافَ، وكانَ الْمُنْصِفَ الْعَطِفَا
مَـا تَعَـقَّـلَ ذُو كِـبْرٍ وَذُو حَسَدٍ　　مِنْـهُ الشَّمَائِـــلَ إِلَّا دَانَ وَاعْتَـرَفَا

****

يَـا طَيْبَـةَ الـنُّـورِ يَـا دَارًا تَـخَيَّرَهَا　　خَيْرُ النبيئينَ مَهْدَ الْحَـقِّ وَالْكَنَفَـــا
يَـرْوِي النَّخيلُ حديثًا فيك مُتَّفَقًا　　عليه، حَمَّلَـهُ الأَنْسَـــامَ والسَّعَفَـــا
عُودِي إلى الْبَدْءِ، قُولي عَنْ شَمَائله　　بُثِّـــي فَضَائلَهُ وَلْيَمْـــلَأُوا الصُّحُفَا
عُـودِي لِسِيرَتِهِ حَتَّى يَـرَوْا عَجَبًا،　　لِوَصْفِهِ، عَزَّ هذا الْوَصْفُ مَنْ وَصَفَا!

جـنَّــةُ الضّــاد

أحمد جمعة العلوي

ما كنتُ أعلمُ سُحُبًا طوّقت نُجُما   حتى بَدا ثغرُها الوضّاءُ مُبتَسما
تُغضي حياءً إذا ما النَّسيمُ هامَسَها   لا ترفعي، تسْقُطُ الأجرام، محضُ سَما
فإن تصابَت وألقت بالسهدولِ سُدًا   ثارت سِمانا شِهاباً، أرضُنا حمما
تهتزُّ قرعاً كؤوسٌ إثرَ أن ظمئت   ومن حَبتهُ اصطفاءً، خرَّ وانقَسَما
كم يعسلِ الماءُ إذ مجَّتهُ في فمِها   وقاعُها كم يُقاسي شدَّةً و ظَما
إذ لا بقاءَ لِطُعم، كُلُ جارِحَةٍ   وكُلُّ ضلعٍ سليبٍ ما جرى قِدَما
كالنّهرِ مدّتهُ نضباً ألفُ شاعِبَةٍ   فلم يَبُلَّ بحرَها ريًّا سوى لَمما
كم حاولتها يدٌ للرّملِ إذ وطِئت   وجْهَ الصّحارى فما تبدَّلت رُسُما
والرئمُ يشكو إلى باريهِ ما فَعلت   ريحٌ بجيدٍ أبانَ الغُصنَ والحَرَما
ربّاهُ أن لا بِعاثاً إن رآها فقد   يغيرُ الملكُ الظِّليلُ ما نَظَما
يا سيدي ذي حروفي غَضّةٌ و لَكَم   قارعتُ نجماً بحرفٍ بعدُ ما فُطِما
خُذها اصطفاءً ورعرِعها أيا أبتي   ففكرُكُم جنَّةٌ للحرفِ إذ رُسِما
سلطانُ لا دامَ حرفٌ لم يرقكَ ولا   يَدٌ ستُخضِعُ من أقلامنا الهِمما
ومذ عرفناكَ والفُضلى مِزاجُكُمُ   وفي لسانِ المعالي صِرفُكَ الأسمى
خضَّبتَ كُلَّ بَنانِ الضادِ وادَّرَعت   خيرُ اللغاتِ لِباساً زادَها نِعَما
حتى أحرتَ لغاتِ الأرضِ قاطبةً   على التراجِمِ عكفاً ترتَجي رَحِما
والناسُ حيرى، ظلامٌ لفَّ عالمنا   خلفَ اللذائذِ صفّاً كي تُزادَ غَما
حتى إذا بَزَغت في الأفقِ شارِقتي   استُمطِرَ العِلمُ والأفقُ الوضيءُ نَما
منابِتُ العزِّ شريانٌ لِكُلِ فتى   والعلمُ قلبٌ و وحي المرسلينَ الدَما
لا زالَ يخفِقُ مُذْ طببتَ فاقَتَهُ   موائدًا كم خَشينا بعدَها تِخَما
لن يأكُلَ الجيفَ عقلٌ أنت سائسُهُ   كلّا ولن تُنبِتَ الأترُجّةُ النِقما

في حمى القاسميّ

مُهداة إلى صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسميّ
عُضو المَجلس الأعلى حاكم إمارة الشّارقة حفظهُ اللّه ورعاهُ

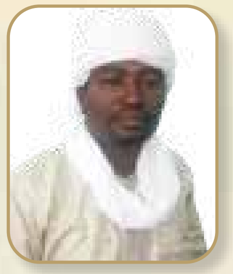

للشاعر الدكتور
أحمد عبد الرحمن سماعين
أمين العلاقات الخارجية في مجمع اللغة العربية بتشاد

ضاعِفْ خُطاكَ إلى الكريم العالمِ ... سَليل رُسْلِ الخير أعْني (القاسمي)
ضاعِفْ خُطاكَ إليه سَلْ بَركاتهِ ... مَنْ ذا الذي قَدْ آبَ دونَ مَغانمِ؟
ضاعِفْ وإنْ رَأَيْتَها قَدْ أَبْطأَتْ ... فأَفْرِدْ جَناحَيْ شَوقِكَ المُتَلاطمِ!
حَلّقْ إلى (شَمْسِ العُروبَةِ) وانْزِلَن ... ضَيْفًا عَزيزًا عِنْدَ أَهْلِ الحاتِميّ
انْزِلْ (بِشارقةٍ) هُناك مُباركًا ... بِحمى الكريم الشّهم ذاك (الحاكمِ)
سلطانُ يا بحرَ العلوم وقبلةً ... للحائرين الحالمين بعالَمِ
فيه المبادِئ والرُّؤى خَفّاقةٌ ... شَعّت لأمسِ وأشْرَقَتْ للقادمِ
المَجْدُ ميراثٌ لهُ مُتأصِّلٌ ... وفي جَوانِبِهِ بِخُلْقِ العالَمِ
فَسلاحُهُ الفِكْرُ المُشِعُّ لأمّة ... بِلِسانِ جِبريلَ الأمينِ وآدمِ
هذي تشادُ دُموعُها مُهْراقةٌ ... للضّاد قد سحّتْ دمًا بِولائمِ
بَلدٌ أَتَتْها العُربُ تَحْمِلُ رايةَ ... للّه ما ليلُ الدُّعاةِ بنائمِ
فَتَألّقَتْ وتَوَهَّجَت وتشرّفت ... بِقُضاعَةٍ وَهَوازِنٍ وبِدارمِ
إمّا شكت مخزومُ فيها علّةً ... نَزَلَتْ مَواجعُها هنا بِقواسِمِ
فَمَتى رَوى التّاريخُ أنّ قواسمًا ... اسْتَعْذَرَتْ لمّا دُعوا لمكارِمِ؟
فالضَّادُ نَخَلاتٌ تَرَسَّخَ جذعها ... قَبْلَ التّواريخ العِتاق بكانم
فَتَزيَّنَتْ كلُّ الشُّعوبِ بِعقْدها ... من نسْلِ (واقِ الواقِ) أو (بِكَدارِمِ)
أَضْحَت بها قِممًا وَصارَتْ أُمَّةً ... عُظْمى سَما تارِيخها بِملاحِمِ
لكِنّها قَد ضوورَت بِرطانةٍ ... مِنْ خَلفها يَرنو العَدوّ بِصارمٍ
نادى النّذير وَدقّ ناقوسُ الفِدا ... فَتسابَقَ نَحْوَ النّفير ضَراغمي
وَضعوا المجمع بُرعمًا بِقِفارِها ... مَنْ ذا سِواكَ يَمُدّهُ بِدَعائِمِ
آمالُنا مِثلُ المُحيط عظيمةٌ ... لم يَحْوِ فَيْضَ البحْر غَيْرُ القاسمي
فاقبَلْ أخا الإسلام منّا باقةً ... تَسمو بدعواتٍ لَكُم ونسائم
والله أسأل أَنْ يَمُدَّ بِعُمْرِكُمْ ... وَيُعينكُم لِريادَةٍ في العالَم
وَيُسَدّدَ السَّعْيَ الكريمَ وَيَخْتِمن ... بِلِقاء جَدّكُمُ الحَبيبِ الخاتَمِ

وجعلَ بينهما مودّةً ورَحمةً

معنى الحب

شـعـر: د. شـهـاب غـانـم

نُحبُّكَ .. مَعْنى الحُبِّ لَوْلاكَ لمْ نَدْرِ فأنتَ خلقتَ الحُبَّ في أوَّل الدَّهرِ
وأنــتَ زرعــتَ الـحـبَّ في قـلـبِ آدمٍ لَحَواءَ في الفِرْدَوْسِ في لونهِ العُذريّ
فكانتْ لـهُ حـــوّاءُ أحْـلـى رفيقـةٍ تُـبـادِلُـهُ حُـبًّـا تـدفَّـقَ كالنَّـهْر
وقدْ غارَ إبليسٌ منَ الحُبِّ.. فَهْوَ لا يُحِبُّ سِوى الأحقادِ والكُرْهِ والضَّرِ
فَوَسْوَسَ للاثنينِ وهُما بِعَالمٍ مِنَ السَّعْدِ والحُبِّ المُضَمَّخ بالعِطْر
فَذاقا ثِمارًا.. بَعْدَها سَوْءَتاهُما تَبَدَّيَتا.. كيفَ السَّبيلُ إلى السِّتر؟!
لقدْ خَصَفا الأوراقَ.. والقلبُ مُثْقَلٌ بما اقترفا مِنْ زَلَّةٍ دونَما عُذْر
وكمْ طَلَبا الغُفرانَ واللّهُ غافرٌ لِمَنْ تابَ مِن فِعْلِ الخطيئةِ والوِزْر
وقالَ اهْبِطا منها.. وقالَ اتْبَعا الهُدى .. ومنْ شاءَ مِن أبناءِ آدمَ.. للحَشْر..
هنالك في كَوْكَبِ الأرضِ عاوَدا اللقاءَ، وعادَ الحبُّ يطفحُ بالبِشْر
ولكن حبّ الأرضِ حبٌّ تزاوُج وسُكْنى، ويسمو بالمودَّة والصَّبر
ويبقى هوى الرَّحمن أسْمى محبةً تفيضُ بأنوار القداسة والطُّهر
فمَرْحى لمَنْ يَهْوى.. وَمَرْحى لمن له حبالٌ مع الرّحمان في السِّرِّ والجَهْر

الرَّقْمَنةُ في خِدمةِ لُغَةِ الضّادِ

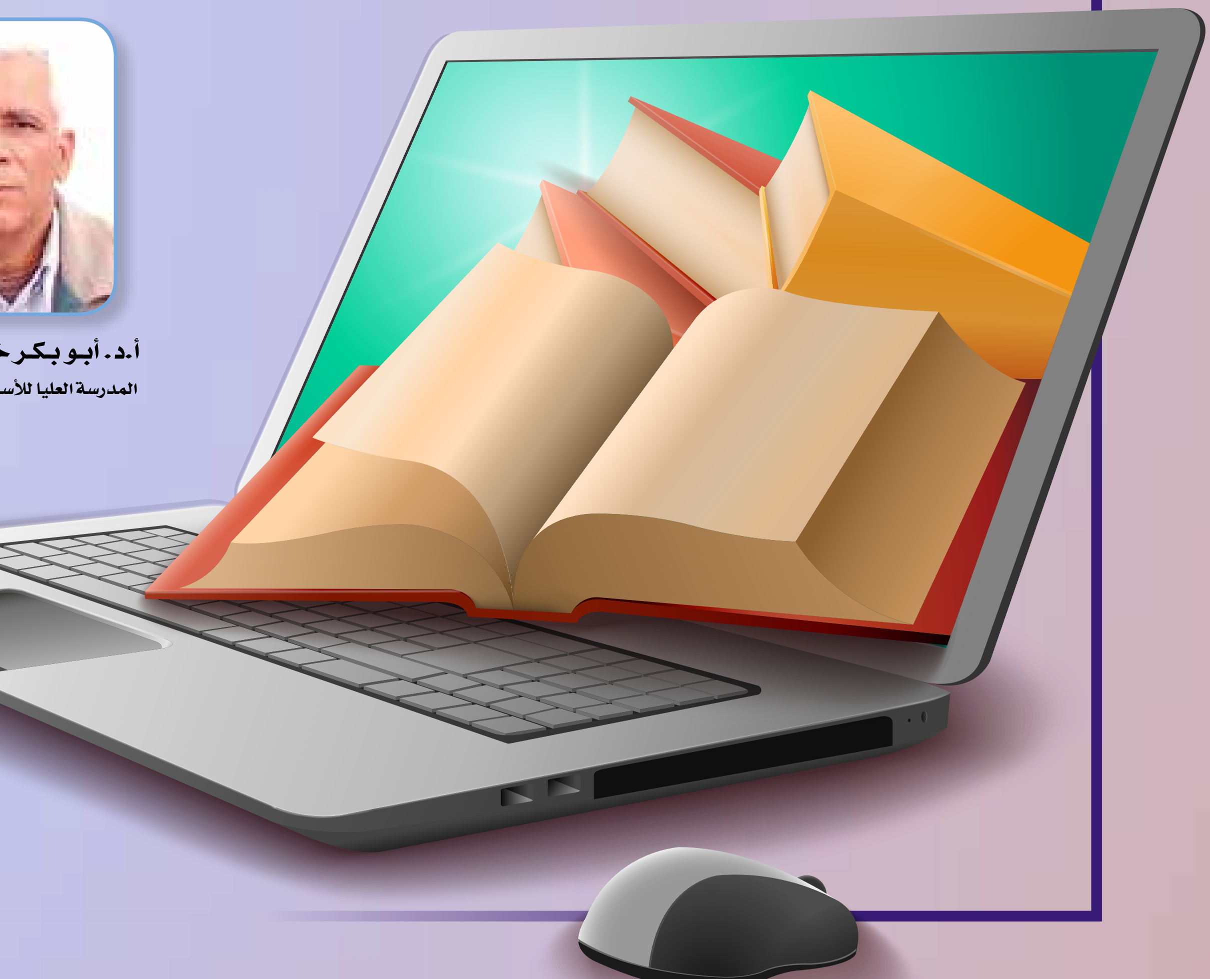

أ.د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة - القبّة/ الجزائر

يُشيرُ المُتتبِّعونَ لمَسار النَّشر الورقيّ والإلكترونيّ أنّ عام ٢٠١٨ كانَ منعرجًا حاسمًا في قضيَّة بَيْع الكتب حيث تجاوزت مبيعاتُ الكتبِ الإلكترونيَّة مثيلتَها الورقيَّة عَبْرَ العالَم. ويتوقَّعُ هؤلاء الخُبَراء أنَّ هذا الاتِّجاه سَيَسود تدريجيًّا في سُوق الكتُب، مُستخلِصين أنَّ عهدَ الكتاب الورقيّ يؤولُ إلى الزَّوال! أمَّا المجلاتُ الأكاديميَّةُ العالميَّة فإنَّ هذا التَّحولَ حدَثَ فيها عمليًّا مُنذُ سنوات. كما أنَّ اليوميَّات الإعلاميَّةَ سَبقَتْ غيرها في هذا المجال، فَهَل بقيَتْ صُحُفٌ في عالَم اليوم -ومنها الصُّحُفُ العربيَّةُ- بدون مواقعَ إلكترونيَّةٍ تُتيحُ الاطِّلاعَ على مُحتوياتها جُزئيًّا أو كُليًّا؟

ماذا عن المَقروئيّة؟

وفي هذا السّياق، يتساءَلُ كثيرٌ من النّاس عن نسبةِ المُطالعَة والقراءة في العالَم في وعاءَيْها الورَقيّ والإلكترونيّ. ولعلّ في الإحصائيّات الّتي نَشَرَتْها مؤخرًا المؤسَّسةُ المختصَّةُ في المقروئيَّة والنَّشر (Global English Editing) الّتي يوجد مقرُّها في كاليفورنيا، ما يوفِّرُ بعضَ المعلومات. لقدْ أشارَتْ هذه الإحصائيّاتُ إلى أنَّ الهُنودَ هُمُ الّذين يقْضونَ أطْولَ مُدَّة في المُطالعَة (قرابَةَ ١١ ساعة أسبوعيًّا لِكُلِّ ساكنٍ عامَ ٢٠١٨)، وظَهرت الصِّينُ أيضًا في المُقدِّمة (٨ ساعات أسبوعيًّا) بعد تايلند (نحو ٩ ساعات ونصف أسبوعيًّا)، في حين تَتَصدَّرُ مِصْرُ العالَم العربيَّ في المقروئيَّة (٧ ساعات ونصف أسبوعيًّا لِكُلِّ فَرْدٍ) تليها المملكةُ السّعوديَّةُ (قرابَةَ ٧ ساعات أسبوعيًّا). أما الدُّولُ الغربيَّة مِثْلَ الولايات المتَّحدة أو بريطانيا، فَيَقْضي سُكّانُها حوالي ٦ ساعات أسبوعيًّا في المُطالعة حسْبَ هذه الإحصائيّات.

وهذا لا يَتعارَضُ مع كَونِ أكبرِ دولة مُنتِجَة للكتب ليست الهند، بَلْ بيَّنَت دراسةٌ أجرَتْها الرّابطةُ الدّوليَّةُ للنّاشرين أنَّ هناك دولتَين تُهَيْمنانِ على الإنتاجِ العالَميِّ للكُتب هُما الصِّينُ والولاياتُ المتَّحدةُ. وعلى سبيل المِثال، في عام ٢٠١٥، نَشَرَت الصِّين ما مَجْموعُهُ ٤٧٠,٠٠٠ عنوانًا جديدًا، بَيْنما احتلَّت الولاياتُ المتَّحدة المرتبةَ الثّانيةَ بعَدَدٍ يُقارِبُ ٣٣٩,٠٠٠ كتاب.

كما تُشيرُ إحصائيّاتُ مؤسَّسة «غلوبل إنكليش إديتينغ» السّابقة الذِّكْر إلى أنَّ مُستَخْدِمي الإنترنت في القارَّة الإفريقيَّة قضَوا خلال عام ٢٠١٨ حوالي ٤ ملايين ساعة في المُطالعَة عَبْرَ هواتفهم النَّقّالة، وهذا بِنسْبَة زيادة تُقدَّرُ بـ ٣٢٪ مقارنَةً بعام ٢٠١٧. ومع ذلك ما زال أغلَبُ الأفارقة يُفضِّلونَ الكُتبَ الورقيَّةَ عن الكتب الإلكترونيَّة نَظَرًا لِظُروف المَعيشة. والمُتفوّقونَ في القراءة عبْر هذه الوسائل التّكنولوجيَّة الحَديثة في إفريقيا، هُمْ سُكّانُ جنوب إفريقيا ونَيْجيريا وساحلِ العاج.

واللّافتُ أنَّ المؤسَّسة ذاتها أبرزَتْ تفاصيلَ الوضْع في الجزائر دونَ غيرها مِنْ بين الدُّول الإفريقيَّة، فأكدّتْ أنَّ ٩٠٪ مِنْ سُكّانها يَهْوُون القراءة، وفيما يَخُصُّ لُغاتِ القراءة عندهم فَهي العربيَّة بنسبة٦٨٪، تَليها الفرنسيَّةُ بِنِسْبة ٤١,٦٪، ثُمَّ الإنكليزيَّةُ بِنِسْبة ١٢,٧٪.

(انظر: https://geediting.com/world-reading-habits-2018/)

بين الوَرقيّ والإلكترونيّ والمُرقْمَن:

ينبغي أنْ نُميِّزَ في هذا السّياق بينَ الكتاب «الرَّقميّ» أو «الإلكترونيّ» والكتاب «المُرَقْمَن»: عندما يتعلَّقُ الأمرُ بالكتاب الإلكترونيّ، فإنَّ السُّؤالَ الذي يَنْبَغي طَرْحُه هو تدقيقُ مَعناه: هَلْ هُوَ كتابٌ مطبوعٌ مُوزَّعٌ إلكترونيًّا؟ أَوْ هَلْ هو الكتابُ الّذي صُمِّمَ مُنْذُ البداية لِكَيْ يكون في شَكْل رقميٍّ غير ورَقيّ؟ وهل يجوزُ تسميَةُ الكتاب الإلكترونيِّ باسم «كتاب»؟ والمسألةُ ليسَت في الواقع جَدَلًا بيزنطيًّا من النّاحية القانونيَّة إذْ ينبغي أنْ يَدُلَّنا المُشَرِّعُ عمّا يَحِقُّ لنا أنْ نُسَمِّيَهُ كتابًا رقميًّا لِتَنْطَبِقَ عليه القوانين الخاصَّةُ بالتَّأليف.

على سبيل المِثال، هناكَ مِنَ التَّشريعات الّتي تُعرِّفُ الكتابَ على أنَّهُ مطبوعةٌ تُنْشَرُ تحت عنوانٍ يكونُ غَرَضُها عَرْضَ عَمَلِ أنجزَهُ طَرَفٌ أو أكثرُ بِهدَفِ التَّدريس ونَشْرِ الفِكْر والثَّقافة. مِنَ الواضح أنَّ الكتابَ الإلكترونيَّ لا يمكنُ أنْ يُسَمَّى كتابًا بهذا المفهوم. وعلى كُلِّ حال، لا زال النِّقاشُ القانونيُّ قائمًا فيما نُسَمّيه كتابًا رقميًّا أو إلكترونيًّا.

وما يُهِمُّنا هُنا هو «الكتابُ المُرَقْمَنُ»، أيْ: ذلكَ الّذي سَبَقَ أنْ طُبِعَ وَرَقيًّا وسُوِّقَ خلالَ عَهْدٍ قريبٍ أو بعيد، وسَقطَتْ حقوقُ ملكيَّته، ثُمَّ استُنْسِخَ إلكترونيًّا لِيكونَ مُتاحًا على شبكة الإنترنت لِمَنْ يُريدُ تَصَفُّحَهُ أو تحميلَهُ سواء طُلِبَ مقابلٌ لِهذه الخدمة أو لَمْ يُطلَبْ.

ما نريدُ التّنبيهَ عليه في هذا المقامِ هو «الرَّقمنةُ» الّتي انطلقَتْ

باحتشام في مُنتصَف التّسعينيّات من القرن الماضي، ثُمَّ سُرعان ما عَمَّت المَعمورة. وفي هذا السِّياق، نَوَدُّ الإشارة إلى الجُهودِ الّتي تُبذَلُ عَبْرَ العالَم في بـاب توفير الكُتب والوثائق العربيّة الّتي مَرَّتْ عليها فترةٌ مِنَ الزّمن صـارتْ بعدها «مُلْكًا عموميًّا» حسْبَ القوانين السّارية عالميًّا والحامية لِحقوق المِلكيّة الفكريّة. فهذه الكتبُ يستطيعُ الجميعُ رَقْمَنتَها ووَضْعَها على الشّبكة فيَسْتفيدُ منها الرّاغبونَ مِنْ مُتَصفِّحي مواقع الإنترنت سواء كانَ الاطّلاعُ عليها بالمجّان أو بدَفْعِ مقابل مادّيّ زهيدٍ لقاءَ الخدمة المُقدَّمة. والحالُ اليومَ أنَّ العديدَ مِنَ الجهات عبرَ العالَم تسْعى مُنْذُ نحو عَقدَينِ إلى رقْمَنَةِ ما هوَ موجودٌ مِنَ الكتب، قديمها وحديثها.

لقد دَخَلَ مُصطلَحُ «الرَّقمنة» اللُّغةَ العربيّةَ حديثًا ليكونَ مقابلا للمُصطلح الإنكليزيّ الجديد "digitization"، ولـه مُرادفاتٌ أُخرى يَطولُ الحديثُ عنها في هذا المقام. ولِذا نَجِدُ في اللُّغة العربيّة تسميات أُخرى لِهذه العمليّة مِثْلَ «الأرشفة الإلكترونيّة» و«الأرشفة الرّقميّة»، إلخ. وما يُقصَدُ بهذا المُصطلح هو تحويل الموادِّ المقروءة (وحتّى السّمعيّة البصريّة) إلى صِيَغ صالحة للتّداول على الأجهزة الإلكترونيّة مِثْلَ الحاسوب والهاتف الذّكيّ، وغالبًا ما تتناقلُهُ شبكةُ الإنترنت.

قدَّرَتْ شركةُ «غوغل» عامَ ٢٠١٠ عددَ الكتُب المطبوعة مُنْذُ أنْ عُرِفَت المَطْبعةُ خلالَ القرنِ الخامس عشر بِنَحْوِ ١٣٠ مليون كتاب، منها حوالي ١,٣ مليونَ كتاب باللُّغة العربيّة. وقدْ عبَّرَتْ هذه الهيئةُ عَنْ نِيّتها آنذاك في رقمنةِ كُلِّ تلْك الكتب. أمّا الآنَ فيُقَدِّرُ البعضُ هذا الكَمَّ من الكتب بأنّهُ ليس بعيدًا عن ١٥٠ مليونَ كتاب، مع المُلاحظة أنَّ هذه الأرقامَ تقريبيّةٌ جدًّا.

تُشيرُ الإحصائيّاتُ أيضًا إلى أنَّ عدد الكتب المُرَقْمَنة عبْرَ العالَم قد قُدِّرَ عام ٢٠١٥ بـ ٢٥ مليونَ كتاب، وفي عام ٢٠١٩ تجاوزَ عددُ الكتب المُرَقْمَنة مِنْ قِبَل مؤسّسة «غوغل» وحدَها الرَّقَمَ ٢٥ مليون كتاب، وذلك ضِمْنَ مشروع «كتب غوغل (Google Books) الّذي انطلقَ عام ٢٠٠٤.

رقْمَنةُ التُّراث العربيّ

والواقعُ أنَّ كُلَّ المكتبات الوطنيّة ومراكز المخطوطات والوثائق في العالَم –سيَّما تلك الّتي تَضُمُّ أرشيفًا قديمًا– تعملُ على رقْمَنَةِ مَخزونِها. وفي مُعظَم تلكَ المكتبات نَجِدُ تُراثًا عربيًّا كما هو الحالُ مثلًا في مدريد أو باريس أو لندن أو ليدن (هولندا) أو إسطنبول أو سنت بيترسبورغ (روسيا) أو واشنطن أو الإسكندريّة وغيرها مِنْ مُدُنِ العالَم. ناهيكَ عَنِ المَراكزِ المُتَخصِّصَةِ في جَمْعِ المخطوطات العربيّةِ التُّراثيّة مِثْلَ مركز جمعة الماجد بدُبي الّذي تميَّز بتجميع عدد هائل مِنَ المخطوطات، رُقْمِنَ منها لحدّ الآنَ أزيد من ٣٠٠ ألف مخطوطة جُلُّها بالعربيّة.

ومِنْ شأنِ رَقْمَنةِ هذا التُّراث حمايتُهُ مِنَ التَّلَفِ ووَضْعُهُ في مُتَناوَل أكبر عدد مُمْكِن مِنَ القُرّاء بصفة مجانيّة في أغلب الأحيان. ويُسايرُ هذا المَسْعى انْتشارَ وسائل القراءة عبْرَ الأجهزة المحمولة (حواسيب ولوحات إلكترونيّة وهواتف ذكيّة...).

ومِنْ بين المشاريع الرّائدة في هذا المجال «مشروعُ المليون كتاب» (أو «مشروعُ المكتبة الكونيّة») الّذي كانتْ أطلقَتْهُ جامعة كارنيجي Carnegie الأمريكيّة (انظر: http://ulib.isri.cmu.edu/) بإشراف أربعة أساتذة بالتّعاون مع مجموعة مِنَ المؤسّسات في الهند والصّين، ثُمَّ انضمَّتْ إليهما مِصْر. وقد بلَغَ عددُ الكُتب المُرَقْمَنة في هذا المشروع قبلَ ١٠ سنوات مليونًا ونصْفَ مليون كتاب مُتَجاوِزًا بذلك الهدفَ المُسطَّر في البداية.

وبفَضْلِ ظهورِ فئة جديدة مِنَ الأثرياء والمُحسنينَ في العالَم العربيّ، تَبَنَّتْ بعضُ الشّخصيّات والهيئات فكرة الرَّقمنة وتَمْويلَها لإحياء التُّراث العربيّ سواءٌ تعلَّقَ الأمرُ برَقْمَنَةِ المخطوطاتِ التُّراثيّة كما أسلَفْنا، أو الكتب المحقَّقة وغَيْرِ المحقَّقة، أو الوثائق ذات الطّابع الإداريّ، أو المجلّات العربيّة القديمة.

مِنْ أفضلِ المواقع المُتَخصِّصة في التُّراث العربيّ هُوَ موقعُ الوَرّاق الإماراتيّ (انظر: http://www.alwaraq.net/Core/index.jsp?option=1) الّذي يَضَعُ بالمَجّان بَيْنَ أيْدي القُرّاء أكثرَ مِنْ ألف كتاب عربيّ مُرَقْمَن في شَتّى العلوم، مَعَ المُلاحظة أنَّ هذه الرَّقمنةَ مُزوّدةٌ بأدوات تفاعليّة تُسَهِّلُ البَحْثَ في تلكَ المُؤلَّفات. والموقعُ يَزْخَرُ بالمعلومات حَوْلَ التُّراث العربيّ ولَمْ يَكْتَفِ بالكُتب التُّراثيّة وَحْدَها.

وفي موضوع المَجلّات، نَجِدُ مَثَلًا مؤسّسة «صخر» قَدْ قامَتْ برَقْمَنة ١٣٨٨٠ عددًا من حوالي ٢٠٥ مجلّات عربيّة صَدَرَ بعضُها في نهاية القرن التّاسع عشَر، وتَضُمُّ هذه الأعدادُ أكثرَ مِنْ مليونَيْ صفحة، وضَعَتْها المؤسّسةُ مجانًا للقُرّاء عَبْرَ الإنترنت، كما نَجِدُ موسوعات في الشّعر والنَّثر في كثير مِنَ البلاد العربيّة سيّما الخليجيّة منها.

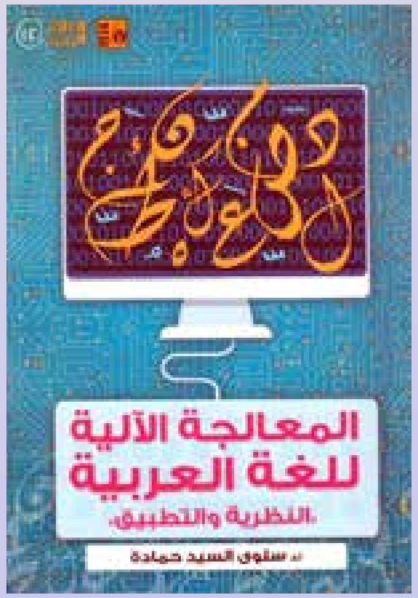

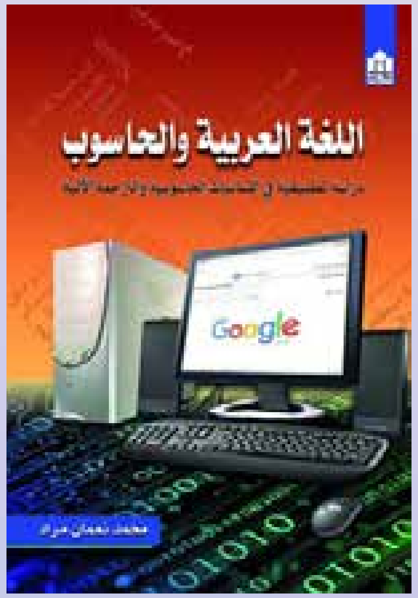

جهود اليونسكو وغيرها

فـي يـوم ٢١ أبريـل عـامَ ٢٠٠٩، أطلقَـتْ مُنَظَّمَـةُ اليونِسْكو مِـنْ مَقَرِّهـا فـي باريس، بالتَّعـاونِ مـع مكتبـةِ الكونغرسِ الأمريكيَّـةِ «المكتبـة الرَّقميَّـة العالميَّـة» (انظـر: www.wdl.org/ar/topic/). لكنَّ المكتبةَ لا تَخْتَصُّ في الكتبِ دونَ سِواها، وهي تَتَعاونُ مع مكتباتٍ ومراكزَ أرشيفٍ في العالَمِ تمتَلِكُ مؤلَّفاتٍ ذاتَ محتوياتٍ فكريَّةٍ وثقافيةٍ. كما تَتَعاونُ معَها مُؤَسَّساتٌ ومُنْشآتٌ وشَركاتٌ خاصَّةٌ تشارك في مشروعِ المكتبة بِطُرِقٍ مُختَلفةٍ، مِثْلَ الدَّعمِ الماليِّ والتّكنولوجيِّ ورعايةِ اجتماعاتٍ ولقاءاتِ مجموعاتِ العملِ.

وإلى جانبِ هذا الموقعِ ظَهَرَ مؤَخَّرًا موقعٌ جديدٌ باسمِ «المجموعةِ العربيَّةِ على الإنترنت» (انظر: http://dlib.nyu.edu/aco/) تَبَنّتْهُ عدَّةُ جامعاتٍ أمريكيَّةٍ وعلى رأسِها جامعةُ نيويورك وجامعة برينستون Princeton الشهيرةُ، وهذا بالتَّعاونِ مع مؤسَّساتٍ إماراتيَّةٍ –منها الأرشيفُ الوطنيُّ للإماراتِ– وجامعاتٌ لُبْنانيَّةٌ ومصريّةٌ وجامعة كورنيل Cornel وجامعة كولومبيا الأَمريكيَّتَين. ويعمَلُ هذا المشروعُ على رَقْمَنَةِ الكتبِ المؤلَّفَةِ باللُّغةِ العربيَّةِ المختَلفَةِ التَّخصُّصاتِ.

في مطلعِ السَّنةِ الماضيةِ كانَ عدَدُ المؤلَّفاتِ المُرَقْمَنَةِ في هذا الموقعِ نحوَ ٨٠٠٠ كتابٍ من الكتبِ العربيَّةِ القيِّمةِ. والمشروعُ ماضٍ في إنجازاتِهِ لِتَنفيذِ رقمنَةِ ٢٣ ألفَ كتابٍ. أما في أكتوبر ٢٠١٩ فَفاقَ المُرَقْمَنُ مِنَ الكتبِ ١١٥٧٠ كتابًا غَطَّتْ نحو ٦٨٠٠ موضوعًا.

وجاءَ في تقديمِ المشروعِ أنَّهُ يهدِفُ «إلى رقمنةِ وحفظِ وتوفيرِ الوُلوجِ المفتوحِ لِمجموعةٍ واسعةٍ مِنَ الكتبِ العربيّةِ في مواضيعِ الأدبِ والفلسفةِ والقانونِ والدّينِ وغيرِها». ولاحظ المُقدم: «حاليًّا، العديدَ من المُحتَوياتِ المُهمَّةِ باللُّغةِ العربيَّةِ ليسَتْ متوفِّرَةً على نطاقٍ واسعٍ على الإنترنت»؛ لذا جاءَ المشروعُ لِيَضْمَنَ «الولوجَ العالميَّ لمكتبةٍ رقميَّةٍ غنيّةٍ بِمَجموعَتِها العربيَّةِ».

ويُضيفُ أَنَّ «العديدَ مِنَ الكتبِ العربيّةِ القديمةِ النافدة مِنَ الطِّباعةِ، والمُعرَّضةِ للتَّفَتُّتِ، أصبحَتْ نادرةً ومُهدَّدةً بِخَطَرِ الضَّياعِ». وعليهِ فَمِنْ شأنِ المشروعِ «حِفْظُ هذهِ الكُتِبِ رقميًّا لِأَجيالِ المستقبلِ». ومِنَ المعلومِ أنَّ جميعَ الكتبِ المُرَقْمَنَةِ سقَطَتْ عنها حقوقُ الملكيَّةِ.

ومِنَ المراكزِ الأُخرى الجديرةِ بالذِّكْرِ في هذا الصَّدَدِ دارُ الكُتبِ التّونسيّةِ الّتي شَرَعَتْ عامَ ٢٠٠٦ في رَقْمَنَةِ النّادِرِ مِنَ الكتبِ الموجودةِ لديها، إضافةً إلى وثائقَ ومخطوطاتٍ أُخرى. تُتيحُ المكتبةُ الرَّقميَّةُ حاليًّا ١٣٠٠٠ وثيقةٍ. وهي تُواصل رقْمَنَةَ رصيدٍ ثَريٍّ بِكُتِبٍ نادرةٍ وقديمةٍ؛ منها كتبٌ يَرجِعُ تاريخُ نَشرِها إلى بدايةِ القرنِ السّادس عشر الميلاديّ. ويُناهِزُ مجموعُ هذا الرَّصيدِ اليومَ مليونَ مجلّدٍ. أمّا مكتبةُ قطرَ الرَّقميّةِ، فَفَضَّلَتِ التَّركيزَ على رَقْمَنَةِ المؤلَّفاتِ والمخطوطاتِ ذاتِ العَلاقةِ بالخليجِ العربيِّ، رَقْمَنَتْ منها ما يُقاربُ مليونَ وثيقةٍ عِلْمًا أَنَّ العمليَّةَ لا تزال متواصلةً. وفي فرنسا، أَنشَأَ الآن معهدُ العالَمِ العربيِّ بباريس مكتبةً رقميّةً يتجاوَزُ عَدَدُ المُرَقْمَنِ مِنَ الكتبِ فيها ١١٠٠ كتابٍ وما مُجْمَلُهُ ١٦٠٠ وثيقةٍ، منها ما يَرْجِعُ تاريخُهُ إلى القرنِ الثّامن عشر الميلاديّ.

لذلك كلّهِ فإنَّ هذه المبادراتِ الثّقافيّةَ والعلميّةَ الطيِّبةَ جديرةٌ بالثّناءِ والدَّعمِ المعنويِّ والماديِّ والإعلاميّ لِما سَتُوفِّرُهُ للأجيالِ القادمةِ مِنْ رصيدٍ فِكْريٍّ، ولِما تُقدِّمُهُ اليومَ مِنْ خَدَماتٍ للُّغةِ العربيَّةِ.

الجامعة القاسمية AL QASIMIA UNIVERSITY 2014 1435

الجَامِعَةُ القَاسِمِيَّةُ

شارقية الموقع .. عالمية الرسالة

يمكنكم التواصل معنا من خلال

www.alqasimia.ac.ae

info@alqasimia.ac.ae

06 - 5181111

06 - 5182222

alqasimia_university

alqasimiaUniversity

alqasimiauni

معلقة

النفحة المحمدية

الشاعر
سيدي ولد أمجاد
موريتانيا

مُعلَّقةٌ شنقيطيَّةٌ تزيدُ على ١٠٠ بيتٍ، في مديح المصطفى مُحمَّد -صلَّى اللّه عليه وسلَّم بِمُناسبةِ ذِكرى المولدِ النَّبويِّ الشَّريفِ عامَ ١٤٤٢ هجريّ.

وتُسمَّى هذه القصيدة أيضًا: (بائيَّة الأفعال في مَدْح خَيْر الرِّجال)؛ لأنَّها تميَّزَتْ بخاصيَّةٍ لَمْ يَسبِقْ إليها أَحَدٌ من الشُّعراءِ أبدًا في تاريخِ الشِّعرِ العربيِّ حتّى اليوم، وهي أنَّ جميع أبياتِها الّتي تزيد على المائة يبدأ كلُّ واحدٍ منها بِفِعْلٍ فقط؛ بشكل تامٍّ متسلسلٍ لَمْ يُؤَثِّر على انسيابيَّة المعنى بهذا الاستهلال الكُلِّيِّ بالجملة الفعليَّة في القصيدة من بدايتِها حتّى نهايتِها، وقد عارضَ بها الشّاعرُ سيدي ولد الأمجاد -مستشار وزير الثَّقافة حاليًّا- قصيدة شوقي الشَّهيرة في مَدْحِ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، الّتي تَقَعُ في ٧١ بيتًا ومَطْلَعُها:

سَلوا قَلْبي غَداةَ سَلا وتابا ... لَعَلَّ على الجَمالِ لَهُ عِتابًا

أُسامِرُ حُبَّهُ طَهَ جَنابا ... شَريفًا طاهِرًا وَسنًى عَجابا
أَحِنُّ لِوَجْهِهِ بَدْرًا جَميلًا ... وَنورًا ساطِعًا مَلأَ الرِّحابا
أُرَوِّي أَضْلُعي مِنْهُ شَرابا ... لَذيذًا سائِغًا أَبَدًا شَرابا
أَنَخْتُ بِرَوْضَةِ الهادي الرِّكابا ... مَشوقًا نَحْوَها بابًا فَبابا
أُسابِقُ كُلَّ يَعْمَلَةٍ رَداحٍ ... تَجوبُ البِيدَ طاوِيَةً هِضابا
أَرى أُحُدًا وَبارِقَةً تَبَدَّتْ ... بِطَيْبَةَ والشُّعورَ بِها مُذابا
يُدَمْدِمُ خاطِري فيها لَهيبًا ... بِحُبِّ المُصْطفى ويَشي انْتِحابا
تُسافِرُ مُهْجَتي في كُلِّ دَرْبٍ ... تُعانِقُ فَرْحَةً تِلْكَ الشِّعابا
مَلأْتُ بِفَيْضِها قَلْبي وَروحي ... وَأَدْمَنْتُ الهَوى فيها نِصابا
تَرِفُّ بِخاطِري أَحْلامُ صَبٍّ ... يُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وذا التُّرابا
تُؤانِسُهُ المَدينَةُ كُلَّ حينٍ ... بِمَسْجِدِها دُعاءً مُسْتَجابا
أُبَدِّدُ مِنْ ذُنوبِ العُمْرِ حِمْلًا ... ثَقيلًا عِنْدَ رَوْضَتِهِ يَبابا
تَنَاهَتْ عِنْدَ أَحْمَدَ أُمْنِياتي ... سِراعًا نَحْوَهُ بيضًا عِذابا
أُناجيهِ مُحَمَّدُ يا حَبيبي ... بِجاهِكَ أَرْتَجي قَدْرًا مُهابا
أُريدُ لِيَجْلُوَ الرَّحْمَنُ رَبّي ... تَباريحي بِذي الدّنْيا سَرابا
أُحِبُّكَ سَيّدي فاشْفَعْ لِسيدي ... فَلا يَلْقى لَدى الأُخْرى العَذابا
كَتَبْتُ بِأَدْمُعي وَدَمي وَحِبْري ... لِخَيْرِ الخَلْقِ قاطِبَةً كِتابا
رَكِبْتُ مِنْ القَصيدِ إِلَيْهِ خَيْلًا ... عِتاقًا في مَحَبَّتِهِ عِرابا
أُداوي غُلَّتي وَلُواحَ نَفْسي ... بِذِكْرِ المُصْطَفى دَوْمًا حِلابا
سَكِرْتُ بِمَدْحِهِ خَمْرًا وَهَذي ... كُؤوسُ الحُبِّ صافيةً حَبابا
سَلَوْتُ عَنِ الحِسانِ الغِيدِ أَبْغي ... حِسانَ مَديحِهِ تَزْهو كِعابا
تُنَسّيني مَلاحَتُها سُلَيْمى ... وَلَيْلى الأَخْيَلِيّةَ وَالرَّبابا
دَعاني كَعْبُ قَدْ بَانَتْ سُعادُ ... فَدَعْ هِنْدًا وَلُبْنى والصَّحابا

تَعَدَّ خُطى بُثَيْنَةَ مَعْ جَميل ... وَأَرْوى سِحْرُها خَلَبَ اللُّبابا
ذَوِّقْ سورَةَ الحُبِّ المُصَفّى ... إذا مَلأَ الجَوانِحَ مُسْتَطابا
تَطوفُ بِهِ المَلائِكُ وَهيَ تَشْدو ... مُحَمّدُ خَيْرُ مَنْ وَطِئَ التُّرابا
سَرى لِلْمَسْجِدِ الأَقْصى بُراقًا ... وَعَرَّجَ مُخْبِتًا وَعَلا السَّحابا
تَلَقّى في سَماواتٍ طِباقٍ ... مَراحِبَ أَعْجَزَتْ قُرْبًا حِسابا
تَتيهُ بِهِ النُّجومُ ضِياءَ شَوْقٍ ... ذَهابًا إِنْ أَتى وَمَضى إِيابا
سَقى في القُدْسِ زَيْتونًا وَنَخْلًا ... بِزَمْزَمِ روحِهِ فَعَلَتْ قِبابا
يُجاوِرُها نَبِيٌّ هاشِمِيٌّ ... كَريمٌ ماجِدٌ فَذٌّ جَنابا
تَسامَقَ سَيِّدًا بَرًّا حَنيفًا ... جَوادًا ما أَساءَ وَما أَعابا
تَبَتَّلَ في خِصالِ المَجْدِ طِفْلًا ... بِمَكَّةَ لابِسًا حَسَبًا ثِيابا
فَرِحْنا يَوْمَ مَوْلِدِهِ وَهذي ... حُمَيًّا الحُبِّ دافِقَةً عُبابا
بَنَيْنا صَرْحَها وَلَهًا وَشَوْقًا ... وَطُفْنا سِدْرَةَ الوَجْدِ اضْطِرابا
تُغَرِّدُ ساجِعاتُ الوُرْقِ مَرْحى ... بِمَوْلِدِهِ فَتَغْمُرنا التِهابا
أَتى شَهْرُ الرَّبيعِ هِلالَ عيدٍ ... فما أَحْلى بِهِ الذِّكْرى رُضابا
تَنَسَّمَ وَحْدَهُ طهَ فَتاها ... وَهَزَّ الكَوْنَ والدُّنْيا مَهابا
تَأَمَّلْ إنَّهُ خَيْرُ البَرايا ... وَأَفْضَلُ مُرْسَلٍ قَهَرَ الصِّعابا
تَروحُ بِهِ المَكارِمُ ثُمَّ تَغْدو ... رَسولُ اللّه تَوَّجَها انْتِسابا
أَزاحَ الشِّرْكَ والدُّنْيا ظَلام ... فما وَلّى وَلا أَعْيى وَحابى
رَجَوْتُ بِجاهِكَ المَوْلى تَعالى ... رَسولَ اللّه تَوْفيقًا مَآبا
أَهيمُ مَحَبَّةً ما دُمْتُ حَيًّا ... دَنَوْتُ لَها مِنَ الرَّحمنِ قابا
أَزاحَ عَنْكَ الهُمومَ بِذِكْرِ طه ... صَلاةً لَمْ تَزَلْ تَشْفي طِبابا
عَلَوْنا بِابْنِ آمِنَةٍ وَفُزْنا ... وَما زِلْنا بِهِ أُسُدًا غِضابا
رَعَيْناها عُهودًا ساكِباتٍ ... مِنَ الرَّحَماتِ وَالبُشْرى انْسِكابا

نَسيرُ عَلى مَحجَّتِهِ بِرَكْبٍ ... مِنَ الأَشْرافِ مُنْتَظِمٍ شِهابا
تَمَهَّلْ هَلْ تَرى إلّا سُؤالًا ... بِمِشْكاةٍ لَهُ أَضْحى جَوابا
أَصِخْ لِحُداءِ قافِلَةٍ بِنَجْدٍ ... شَدَتْ بِالوَصْلِ واللُّقْيا مَنابا
شَرِبْنا مِنْ لَواعِجِها دِهاقا ... وَغِبْنا في حَلاوَتِها غِيابا
يَدُبُّ دَبيبُها في الرّوحِ حَتّى ... تَرَ الشَّيْبَ الأُلى صاروا شَبابا
تَسَائل في بَني سَعْدٍ وَسَلْعٍ ... وحزوى واليَمامَةَ مَنْ تصابى؟
أَلَمَّتْ بِالبَقيعِ فَسالَ دَمْعٌ ... مِنَ الأَعْماقِ يَنصَبُّ انْصِبابا
تَذَكَّرْتُ النَّبِيَّ هُنا فَدَوّى ... حَنينٌ يَكْسِرُ الصَّخْرَ انْجِذابا
طَوَتْ كُلَّ المَهامِهِ مِنْ بَعيدٍ ... قَوافِلُ وَخْدُها يُذْكي الهَبابا
تَعَطَّرَت المَدينَةُ أَنْ أَتاها ... رَسولُ اللّه وَازْدانَتْ حَجابا
حَمِدْنا اللّه بِالمُخْتارِ هَدْيًا ... جَلا عَنّا الضَّلالَةَ والكِذابا

أَبانَ لَنا صِراطًا مُسْتَقيمًا   أَمينٌ لَمْ يَخَفْ في اللهِ غابا
أَضاءَ بِمَكّةَ في غارِ ثَوْرٍ   وألّ مُبَشِّرًا حَتّى أَنابا
يَقولُ مُسامِحًا لِينًا وَحُسْنًا   وَحاشى أَنْ يُذَمَّ وَأَنْ يُعابى
يَبيتُ لِرَبِّهِ في اللّيْلِ يَدْعو   وَقَدْ غَفَرَ الإلهُ لَهُ ثَوابا
سَعِدْنا يا مُحَمَّدُ يا حَبيبي   بِذِكْرِكَ دَائِمًا نَجْلو اكْتِئابا
نُطَرِّزُ مِنْ مَحَبّتِكَ القَوافي   تَسُرُّ النَّاظِرينَ لَها عِجابا
تَرى الآذانُ أَيْضًا إنْ تَجَلّى   بِمَدْحِكَ شاعِرٌ شَقّ الضّبابا
يَبُزُّ بِآيِهِ مِنْ حُبِّ طَهَ   فُحولَ الشِّعْرِ قاطِبَةً خِطابا
تَأَوَّبَهُ خَيالٌ مِنْ مُحَيّا   رَسولِ اللهِ وَضّاحًا فَذابا
تَعَوَّدَهُ بِنَفْحَتِهِ عَبيرًا   فَبَاتَ بِهِ مُعَنًّى بَلْ مُصابا
رَضيتُ بِهِ سَقامًا بَلْ دَواءً   وَفي الضِّدَيْنِ ما يَهْدي الصَّوابا
يُسائِلُني البُصَيْري عَنْ بُحوري   وَذا البُرَعِي يُبايِعُني انْتِخابا
سَمَتْ بي في هَوى طَهَ المُفَدّى   قَصائِدُ لَمْ تَزَلْ تَشْدو رَبابا
يُحاوِلُ فارِسُ الشُّعَرا لَحاقي   وَمَنْ ذا يُدْرِك العَنْقا غِلابا
مَضَتْ في المِرْبَدِ الأيّامُ نَشْوى   وقَدْ خَلَبَتْ بِقافِيَتي خِلابا
تَلَقَّتْني عَميدَ هَوًى قَديمٍ   بِحُبِّ المُصْطَفى يَزْهو طِلابا
أُقَلِّدُها حِسانَ الشِّعْرِ دُرًّا   بِحُبِّ المُصْطَفى تَحْدو الرِّكابا
تَطيبُ بِهِ المَكارِمُ وَالمَعالي   إذا ذُكِرَتْ وَذاكَ النَّعْلُ طابا
يَحِنُّ الجِذْعُ في طَرَبٍ إلَيْهِ   وَيَشْكو البُعْدَ إن يَمْضي عِتابا
أَدِرْ كَأْسَ الوِصالِ لَهُ فَإنّي   سَأَشْرَبُها نَبيذًا مُسْتَطابا
بَذَلْتُ لَهُ القَصائِدَ تاجَ فَخْرٍ   على رَأْسي أُكَوِّرُها اعْتِصابا
عَلَوْتُ بِهِ على الشُّعَراءِ كُلًّا   فَلا كَعْبًا تَبُذُّ وَلا كِلابا
سَقاني حُبُّهُ شَهْدًا فَفاضَتْ   عُيونٌ كالبِحارِ لَهُ سَحابا

تَذَوَّقْ طَعْمَهُ عَسَلًا وَإلّا   فَقَدْ ذُقْتَ الهوى مِلْحًا وَصابا
رَأَيْتُ الهاشِمِيَّ لَنا دَليلًا   إلى الخَيْراتِ مُبْتَسِمًا مُهابا
يَقولُ لِأُمّةِ الإسْلامِ هَيّا   سَواسِيَةً نُحَرِّرْها رِقابا
دَعوا تِلْكَ الجَهالَةَ فَهْيَ داءٌ   إذا اسْتَشْرى فَقَدْ أَغْرى الخَرابا
تَلَجْلَجَ في الفُؤادِ مَديحُ طَهَ   غَرامًا مِن مَحَبّتِهِ أَذابا
يَذودُ بِهِ قَصيدي في وَريدي   عَنِ المُخْتارِ لا يَخْشى حِرابا
فَدَيْتُ لَهُ الحَنايا والمَطايا   مُجَنَّحَةً لِأَرْبُعِهِ حِدابا
تُعانِقُهُ فَيَغْمُرُها هَناءً   وَكانَتْ قَبْلَهُ تَشْكو اغْترابا
جَنَيْنا مِنْ مَحَبّتِهِ الأَماني   وَقَدْ عَذُبَتْ بِرَوضَتِهِ انْسيابا
تَدورُ بِهِ الشَّفاعةُ خَيْرَ بُشْرى   مِنَ الرُّسْلِ الكِرامِ وَمَنْ أَنابا
تَنَزَّهَ عَنْ خَطايا الأَرْضِ أَعْطى   لَهُ الرَّحْمنُ مَغْفِرَةً قِرابا
أَبيتُ الدّهْرَ في وادٍ خَصيبٍ   وَقَدْ وَجَدَ المَديحُ بِهِ رَغابا
تَحَدّيتُ النّوابِغَ أَنْ يَروموا   مُعَلّقَةً كَنَفْحَتِها مَطابا
سَلِ النَّجمَ البعيدَ بها يُناجي   وَسَلْ عَنْها السَّباسِبَ والقِصابا
أُفاخِرُ في المَنابِرِ والنّوادي   وَقَدْ طارَ القَصيدُ بِها عِقابا
غَنَّيْتُ بِها انْتِجاعًا وَارْتِفاعًا   وَتَكْفيني مِن الدُّنْيا اكْتِسابا
تَصَوَّفَ خاطِري في حُبِّ طَهَ   إلى أَنْ جاوَزَ الحِسَّ اجْتِنابا
سَلوا قَلْبي غَداةَ سَلا وَتابا   وَشَبَّ عَلى الهَوى قِدْمًا وَشابا
يَعُلُّ مِن الجَمالِ رَحيقَ زَهْرٍ   لَعَلَّ لَدى الإلهِ لَهُ احْتِسابا
مَدَحْتُ الهاشِمِيَّ بِها عَروبًا   مِنَ الأَمْجادِ قَدْ بانَتْ كَعابا
أُتَيَّمُ إثْرَها في كُلّ حينٍ   وَقَدْ نَفَحَتْ بِرَوضَتِها مَلابا
أُصَلّي دائِمًا شَرَفًا عَلَيْهِ   وأَدْري بالسَّلام هُنا رِكابا

عوائق ومزالق
في وجـه العـربيّـة

مـوفـق ريــاض مقـدادي
جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة/ عمّان الأردن

تُعَدُّ اللُّغةُ العربيَّةُ وسيلةَ الحركة الإنسانيّة، بَلْ هي أهمّ طُرُقِ الاتّصال بينَ البَشر، والتَّواصل بين الأجيال، ونقْلِ الثَّقافة بين أفرادِ الجِنس الواحد والأجناس الإنسانيَّة، واللُّغة العربيَّة الفصحي هي لُغَةُ الأُمّة، ووعاءُ المعرفة والثَّقافة والحضارة والعلْم، وهي وعاء الدّين، بها نَزَلَ القرآنُ الكريم، وبها بلَّغَ الرَّسولُ الكريم رسالةَ ربِّه -عزّ وجلَّ-، وقد حثَّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- على تعلُّم العربيَّةِ وحِفْظِها، فأصبحَ للُغة العربيَّةِ الفُصْحى مكانةٌ حضاريَّةٌ دينيّةٌ متلازمةٌ لا تنفصل، وهي مرآةُ الأُمَّة العربيّة والإسلاميّة تعكس تاريخها، وتُمَثِّلُ حاضرَها وما تَرْنو إليه في مستقبلِها، وهي هويَّة الأُمَّة تُمثِّلُ شخصيَّتَها وثقافتَها ومكانتَها بين الأُمم، والتَّخلِّي عنها هو تَخَلٍّ عن الذّاتِ والهويَّة والدّين.

ومِنَ المَعلومِ بالضَّرورة أَنّ اللّغات تَضعُفُ وتَتَراجعُ بِضَعْفِ أُمَمِها، ويَنسحِبُ ذلكَ على الأُمّة العربيَّة، حيث عانت اللّغة العربيَّة الفُصحى مِنْ تحدِّياتٍ كثيرة منها: تغوّل العاميّة، والدّعوة إلى إحلال اللُّغة الأجنبيَّة محلَّها، وغير ذلك مِنَ التَّحدِّيات.

وقد انتشَرَتِ اللَّهَجات العاميَّة حتّى طغى وُجودُها على اللُّغة الفصحى، فأصبحت الفصحى تقتصرُ على المُتعلِّمينَ والمُثقَّفين، وأصبح التَّداول بها محدودًا، كما تتعرَّض اللُّغة الفصحى هذه الأيّام إلى هَجمةٍ شرسةٍ قاسيةٍ دعا إليها أعداؤها، وأيّدهم بذلك بعض المُغرضين مِنْ أبنائها الّذين ينتمون إليها قولًا لا فعلًا، فَعَمِلوا بِقَصْدٍ أو بِغَيْره على محاولةِ تغييرها أو النَّيلِ منها، أو النَّيلِ مِمَّنْ يتحدَّث بها، فَرَموها بالعَجْزِ والعُقْمِ عَنْ مواكبةِ التّاريخ والحضارةِ، وجعلوا التَّخلُّفَ الّذي لَحِقَ بأبناءِ العربيَّةِ عائدًا لاستخدامها، وهُم بذلك يُهاجِمونَ الدّينَ الإسلاميَّ مِنْ خِلالها؛ لأنَّ أعداءَ الأُمَّةِ يعلَمونَ أَنّهُ لا سبيلَ للتَّفوُّقِ على العالَمِ الإسلاميِّ إلّا بإبعادِ العرَبِ والمسلمين عن: القرآن الكريم، واللُّغةِ العربيّةِ، والعربيَّة الفُصْحى هي السَّبيل إلى فَهْمِ القرآنِ الكريم؛ لِذلكَ حاولوا جاهدين مِنْ حينِها صَرْفَ العربِ عَنِ الفُصْحى لِيَنْفَصِلوا فيما بَعْدُ عَنِ القرآنِ الكريمِ والإسلامِ.

وعندما حَلَّ الاستعمار بالبلاد العربيَّة بَدَأَ بِتَنفيذِ خُطَّتِه المَسْمومةِ للقضاءِ على العربيَّة والإسلام، فبدأوا بِفَرْضِ اللُّغةِ الأجنبيَّةِ على بلادِنا العربيّة، وفَرْضِ تدريس لُغاتِهم في مدارسِنا العربيّة، وإهمال العربيّة، وعدم السَّماحِ بِتَدْريسِها إلّا في نِطاقٍ ضيِّقٍ، في خُطَّةٍ خبيثَةٍ تجعلُ العربيَّ يَتَناسى لُغَتَهُ مع مُرورِ الوقتِ، ويَبْتَعِدُ عنها رُوَيدًا رُوَيدًا، وقَدْ عَمِلوا جاهدينَ على ذلك في بلاد المغربِ العربيِّ، ولكنَّ ذلك لَمْ يَتِمّ لَهُمْ بِحَولِ الله تعالى، ثُمَّ بِفَضْلِ الغَيورين مِنْ أبناءِ المغربِ العربيِّ الّذين حافظوا على لُغتِهم، وجاهدوا –وما زالوا حتّى الآن– للحفاظِ على لُغتهم الّتي هي هويَّة الأُمّة.

إِنَّ الابتعادَ عَنِ اللُّغة الفُصْحى وإهمالَها أدَّى إلى نتائجَ سلبيَّةٍ على جميعِ المُستوياتِ الحياتيَّةِ للأُمَّةِ العربيَّةِ: الدّينيّة، والاجتماعيّة، والثَّقافيَّة، ومِنْ هذهِ النَّتائج:

أولًا: أدَّى شيوعُ العاميَّة واللُّغات الأجنبيَّة على حساب اللُّغة الفُصْحى إلى عَدَمِ القُدرةِ على فَهْمِ القرآنِ الكريمِ وتَدبُّرِه، فإذا كانَ العربيّ – في كثيرٍ مِنَ الأحيان– لا يُحْسِنُ قراءةَ القرآنِ فَكَيفَ سَيَتَدَبَّرهُ ويَفهَمُ بيانَهُ وتَشْريعاتِه، وأوامِرَه ونَواهيه ويَقِفُ عندَ ذلكَ كُلِّه؟ بَلْ أَدَّى هذا إلى انقطاعِ العَرَبّي عَنْ تُراثِه، فاللُّغةُ العربيَّةُ هي الهويَّة كما يؤكِّدُ علماءُ اللُّغةِ، هويَّة الأُمَّةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، وهي وعاءُ تاريخِها وحَضارَتِها ودينِها وعلومِها وفنونِها، وهي بالمُقابلِ أَداةُ الأُمَّةِ لِتَحصيلِ العُلومِ والمَعارِفِ والحَضارةِ في المُستقبلِ، وإذا كانتِ اللُّغةُ العربيَّةُ لا تَختَلِفُ عَنْ لُغاتِ العالَمِ الأُخرى في هذه المعاني، فإنَّها تختَلِفُ جَذْريًّا عَنْ جميعِ لُغاتِ العالَمِ في أَنَّها لُغَةُ عقيدةٍ وشريعةٍ.

ثانيًا: التَّأثيرُ في طريقةِ تفكيرِ الأفرادِ وتعبيرِهم « منذ الصِّغر» عَنْ حاجَتِهم وأحاسيسِهم وآرائهم، «لا بُدّ مِنَ الإدراكِ أَوَّلًا أَنَّ اللُّغةَ لَيسَتْ وسيلَةَ اتِّصالٍ وتفاهُمٍ فَحَسْب، بَلْ هِيَ وسيلةُ تفكيرٍ أيضًا، وعمليّات القَولِ والاستِماعِ تَمُرُّ بِعَمليّات ذهنيّة مُعقّدة، يَتِمُّ خِلالَها اختيارُ الكلمات المناسبة للتَّعبيرِ عمّا يُريدُ الإنسانُ التَّعبيرَ عنه، ونَظَّمَها تِباعًا بأسلوبٍ مُنْتَقى، له نِظامُه الخاصُّ لِتَأديةِ المطلوب بِدِقَّةٍ، وأيّ تشويشٍ في هذا النّظام سيؤدّي إلى كلام مُشوَّشٍ يَفتَقِرُ إلى الدِّقَّةِ، وتَنْقُصُه الفنيّة، ويمرّ الاستماعُ بعمليَّة ذهنيَّة مختلفةِ الشّدّة، تبدأ بِتَحليلِ هذه الأصوات لِمَعرفةِ مَضامِينِها، ومِنْ ثَمَّ استيعابِها، ومِنْ ثَمَّ الرّدّ عليها إذا كان هناك ما يوجِبُ الرّدّ، وفي كثير مِنَ الأحيان تكونُ عمليّات القولِ والاستماعِ مُتَزامنةً، تَتِمُّ معًا في وقتٍ واحدٍ، كما هي الحالُ في المُشادّاتِ ورُدودِ الأفعالِ المباشرةِ في كثيرٍ مِنَ الظُّروفِ، وعندما يَكتسِبُ الإنسانُ أسلوبَ تفكيرٍ ما، عَبْرَ لُغَةٍ ما، مُنْذُ طفولتِه المُبكِّرة، فإِنَّه يغدو جزءًا مِنْ شخصيَّتِه الذّاتيّة، والوطنيّة، والقَوميّة، يستمرُّ مَعَهُ طول أيّام عُمُرِه؛ إِذَنْ لا بُدّ مِنَ التَّركيزِ على البداية» فَمَقدِرةُ الطِّفلِ مِنْ صِغَرِه على فَهْمِ العربيَّةِ الفُصْحى تُساعِدُه على التَّحدُّث بها.

ثالثًا: تدهور التَّعليم، فالأصلُ أَنْ يكونَ المُتعلِّمُ على قَدْرٍ مِنَ الثَّقافةِ بحيث يستطيعُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ آرائه مُستَخدِمًا لُغةً عربيَّةً

فصيحة لا أَنْ يتحدَّثَ بِلَهجةٍ عاميَّةٍ لا تَلتَزِمُ بِقواعدِ اللُّغةِ؛ فالمناهجُ « للأسف» تقومُ في البِلادِ العربيَّةِ على قاعدتَينِ تُخالِفُ قواعدَ مناهجِ العِلْمِ والتَّعليمِ في الحضارةِ الإسلاميَّة، أوّلهُما فَصْلُ الدّينِ عَنِ التَّعليمِ بحيثُ يُبْعَدُ القرآنُ الكريمُ عَنْ منهجِ التَّعليمِ، والأُخرى تعليمُ لُغةِ العربِ بِمَنهجٍ لاتينيٍّ.

رابعًا: وصولُ الأهدافِ الاستعماريَّةِ الفِكريَّةِ إلى مُبتَغاها بِإِبْعادِ العربِ عَنْ لُغَتهم، ومِنْ ثَمَّ قطْع الصِّلة بينهم وبينَ تُراثِهم ودينِهم، حيثُ يَتِمُّ تغريبُهم، وهذا ما حَدَثَ في بلادِ المغربِ العربيِّ عندما قامَتْ فرنسا بِمُحاولةِ فرنَسَةِ بلادِ المغربِ والجزائرِ وتونس، ولكن بِفَضْلِ الله تعالى، ثُمَّ بِالعمَلِ الدَّؤوبِ للغَيورينَ على الأُمَّةِ ولُغَتِها وتُراثِها عادَتْ تلكَ البلادُ « بعدَ الاستقلالِ– إلى حاضنةِ الأُمَّةِ وأصبحَتْ حاضنةً لِلُّغةِ الفُصْحى ومُدافِعَةً عنها.

ولا يتوقَّفُ خَطَرُ الابتعادِ عَنِ اللُّغةِ الفُصْحى على النَّتائجِ الخطيرة الّتي ذكرت سابقًا، بلْ يؤدّي إلى الانعزاليّةِ والتَّجزئةِ القويَّة، فَقَدْ دَعا التَّغريبيّون إلى التّخلّي عَنِ اللُّغةِ العربيَّةِ وإحلالِ اللُّغاتِ الأجنبيَّة محلَّها » كما ذُكِرَ سابقًا – ، وأمّا الانعزاليّون فَقَدْ دَعا بعضُهم إلى العودةِ إلى اللُّغاتِ القديمةِ الّتي كانت منتشرةً في البلاد العربيّةِ قبل أَنْ يُوَحّدَها الإسلام، وبعضُهم الآخرُ دعا إلى اسْتِعمالِ اللَّهَجات المحليّة بدل الفُصْحى، وفي كِلا الحالَين سيؤدّي ذلكَ إلى انفِصالِنا عَنْ ماضينا، ولَنْ يكونَ ثمَّةَ شيءٌ يوحِّدُ بينَ أبناءِ العُروبَةِ أو يُقرّبهم سِوى الجوار الجُغرافيّ شأْنُهم في ذلك شأن أقاليم القارّات الأُخرى، وعندئذٍ سَتَنْشأُ لغاتٌ جديدةٌ إمّا بالاحتلالِ اللُّغويِّ للأجانب، أو بالتَّهجين اللّغويّ حسب درجة افتراس اللُّغات الأجنبيَّةِ الأُخرى للعاميّات، فَيَتَعزَّزُ التَّغريبُ الفكريُّ والاجتماعيُّ على أنقاضِ لُغةِ العُروبةِ لا قدَّرَ الله.

إنَّ رفعَ شأنِ لُغةِ الضّاد « اللُّغة المقدّسة– في العصر الحاضر لا يَتمُّ بالأمانيِّ والآمال، بل بالعملِ والعمل الدَّؤوب فقط، مِنْ خلالِ مجموعةٍ مِنَ الخُطُواتِ تبدأُ مِنَ الأُسَرِ » حيثُ سَيَنْشَأُ الأطفالُ– فَيَتِمُّ تصويبُ عمليّة نطق الألفاظ لدى الأطفال في البيت، والتزامُ الآباءِ والأُمَّهاتِ مُحاورَةَ أبنائهم بِاللُّغةِ الفُصْحى، ثُمَّ في المدرسةِ حيثُ يَتِمُّ تطبيقُ نظامِ التَّعليمِ الإلزاميِّ في المرحلةِ الابتدائيَّةِ أو الأساسيَّةِ، ومُكافحةُ الأُميَّةِ والجهْلِ مكافحةً جديَّةً عمليَّةً لا نظريَّةً استعراضيَّةً، ويَتِمُّ هذا مِنْ خلالِ تدريبِ المُعلِّمينَ والمُعلِّماتِ في رياضِ الأطفالِ على التَّخاطُبِ بالفُصْحى المُبَسَّطَةِ وتحريكِ أواخِرِ الكَلِماتِ، وكذلكَ الأمْرُ بالنِّسبَةِ للصُّفوفِ الأولى مِنَ المرحلةِ الابتدائيَّةِ؛ كي لا تَتراجَعَ مهاراتُ الطِّفلِ اللُّغويّة، ولابُدَّ كذلكَ مِنْ تدريبِ المُشْرفينَ على مُدَرِّسي اللُّغةِ العربيَّة؛ لأنَّ الصَّوابَ أَنْ يُلَقّنَ الطِّفلُ اللُّغةَ الفُصْحى مُنْذُ البِداية، فَمِنَ المَعروفِ في عِلْمِ اللِّسانيّاتِ أَنّ الطِّفْلَ يَتعلَّمُ اللُّغةَ الأُمّ بإتْقانٍ ومهارةٍ ويكتَسِبُها بِسُهولةٍ وسُرعةٍ؛ لأنَّه مُزوَّدٌ بِآليّاتٍ نفسيَّة تَنشأُ في طَبْعِه، يتمكَّنُ مِنْ خِلالِها مِنَ الاكتِسابِ بِسُرعةٍ، ولكنَّ هذا لا يَحصُلُ إلّا بِتَوجيهِ الآباءِ والأُمَّهاتِ والمُدرّسينَ والبيئةِ التَّربويَّةِ والاجتماعيَّةِ المُحيطةِ بِه.

أمّا التّعليمُ الجامعيّ فالأصلُ أَنْ يَتِمّ التَّدريسُ فيهِ باللُّغةِ الفُصْحى مِنْ حيثُ المقرّرات الّتي تُعتَمدُ للطّلاب، وكذلك فإنَّ الأمرَ مَنوطٌ بالمُدرّسينَ الجامعيّينَ الّذين يتوجَّب عليهم إلقاءُ محاضراتِهم باللُّغةِ الفُصْحى، هذا مِنْ جانب، واعتماد تعريب المُقرَّراتِ الجامعيَّةِ غيرِ العربيَّةِ، أو الّتي تُدرَّسُ باللُّغةِ الأجنبيَّة مِنْ جانبٍ آخر، وذلكَ لِأَجْلِ إنهاءِ ظاهرةِ الازدواجيّة مع اللُّغات الأجنبيَّة.

ولا ينتهي الأمرُ إلى هذا الحَدِّ فَحَسْب، بَلْ يَجِبُ مراقبةُ وسائلِ الإعلامِ المرئيّ والمسموع (التّلفاز والإذاعة والصّحف والمجلّات والصّحف الإلكترونيّة) خصوصًا الرَّسميَّ منه بحيث تُعتَمَدُ امتحاناتٌ في اللّغة العربيّة لِشَغْلِ هذهِ الوظائفِ كما كانَ يُفعَلُ في الثّمانينيّات مِنَ القرنِ الماضي – في مُعظَمِ البلادِ العربيَّةِ– حيثُ لا يُقبَلُ إلا مَنْ يُتقِنُ اللُّغة العربيَّة الفُصْحى إتقانًا تامًّا، ولا يَتِمُّ التَّعيينُ بالواسطة والمحسوبيّة أو المظاهر الخارجيّة، فَيَكونُ المذيعُ أو المذيعةُ لا يَعرِفُ اللُّغةَ الفُصْحى ولا يُحْسِنُ اسْتِخْدامَها على الإطلاقِ، فَيُؤذي آذانَ مَنْ يَسْتَمِعُ إليه وقلوبَهم بسبَبِ ما يَبُثُّه مِنْ تلوُّثٍ لُغَويٍّ...

أيا كوفيدُ لا تَعْجَلْ عَلَيْنا

خالد جميل الصّدقة

هذه القصيدة أنشدها الشاعر السّوري خالد جميل الصّدقة على منوال معلّقة عمرو بن كلثوم التّغلبي «ألا هُبّي بصَحنك فاصبحينا»، متحدّثا فيها عن جائحة كورونا التي عمّت وطمّت، وشاء القدرُ أن تكون وفاة هذا الشاعر المطبوع على يدي هذا الدّاء العضال الذي أتى على الأخضر واليابس؛ فرحمه الله رحمة واسعة.

ألا هُبِّي بِكَمّامٍ يَقينا ... رَذاذَ العاطِسينَ وعَقِّمينا
فَنَحْنُ اليَوْمَ في قَفَصٍ كَبيرٍ ... وكورونا يبثُّ الرُّعْبَ فينا
إذا ما قَدْ عَطَسْنا دون قَصْدٍ ... تُلاحِقُنا العُيونُ وَتَزْدَرينا
وَإنْ سَعَلَ الزّميلُ وَلَوْ مزاحًا ... تَفَرَّقْنا شمالًا أوْ يَمينا
وَباءٌ حاصَرَ الدُّنْيا جَميعًا ... وَفَيْروسٌ أذَلَّ العالَمينا
تَغَلْغَلَ في دِماءِ النّاسِ سِرًّا ... فَباتوا يائِسينَ وَعاجِزينا
يُقاتِلُهُمْ بِلا سَيْفٍ وَرُمْحٍ ... وَيَتْرُكُهُمْ ضَحايا مَيِّتينا
أيا كوفيدُ لا تَعْجَلْ عَلَيْنا ... وأمْهِلْنا نُخَبِّرْكَ اليَقينا
بِأنّا الخائِفونَ إذا مَرِضْنا ... وَأنّا الجازِعونَ إذا ابْتُلينا
وَأَنّا المُبْلِسونَ إذا افْتَقَرْنا ... وَأنّا الجاحِدونَ إذا غَنينا
وَأَنّا الباخِلونَ إذا مَلَكْنا ... وَأَنّا الغادِرونَ بِمَنْ يَلينا
وَأَنّا قَدْ ظَلَمْنا وافْتَرَيْنا ... وَشَوَّهْنا وُجوهَ الصّالِحينا
وَأَنّا قَدْ هَجَرْنا كُلَّ حَقٍّ ... وَصافَحْنا أكُفَّ المُجْرِمينا
وَأَنّا ما شَكَرْنا اللهَ حَقًّا ... عَلى نِعَمٍ أَتَتْنا مُصْبِحينا
وَهَذي صَفْعَةٌ أولى لِنَصْحو ... وَنَخْرُجَ مِنْ حَياةِ الغافِلينا
وإلّا فالمَصائِبُ مُطْبِقاتٌ ... وَنَرْجو اللهَ دَوْمًا أنْ يَقينا

المالقي
ومنهجه في التّفكير النّحوي

د. نهلة الشّلبي
أستاذ مساعد في اللغة والنحو
جامعة العين، فرع أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة

يهدفُ المقالُ إلى تَلَمُّسِ بعضِ أنماطِ التَّفكيرِ النَّحويِّ عندَ المالقيّ، وذلك بالنَّظرِ في مؤلَّفِه الموسوم بـ(رصف المباني في حروف المعاني)؛ للكشف عن مَعالِم فِكْرِه النَّحويّ، وسِماتِ منهَجِهِ فيه، وآرائه النّحويّة.

المقدّمة:

يُعَدُّ النَّحو العربيُّ بِقَواعِدِه وقوانينِه وأحكامِه مِثالًا حيًّا على نُضْجِ التَّفكيرِ العِلْميِّ لِعُلَماءِ العربيَّةِ القُدَماء، فَبَعْدَ أنْ كانَ الرّأيُ عمليَّةً شكليَّةً ترتَكِزُ على الأشباهِ والنَّظائرِ التي يَتِمُّ فيها قياسُ«ما لَمْ يَرِدْ فيه نصّ»(١) على ما وَرَدَ فيه نَصّ، فَيُعْطى المقيسُ حُكْمَ ما قيسَ عليهِ، أصبحَ يُسَمَّى قياسًا بعْدَ ارتقاءِ الرَّأيِ واتِّساعِ شُعَبِهِ، وقد سهَّلَتْ أُلفَةُ النَّاسِ واستعمالُهم القياسَ في أبحاثهم النّحويّة، الوصولَ إلى كثيرٍ مِنَ الأحكامِ الّتي يُمكِنُ إثباتُها لِوجودِ العلَّة.

وعليه، فقد أصبحَ القياسُ الرّكيزةَ الأساسيَّةَ للحُكْمِ النَّحويِّ و«المحورَ الرَّئيسيَّ للاستدلالِ في كافَّةِ المجالات الّتي تفرَّعَ إليها البَحْثُ النَّحويّ»(٢)، وبِذا يَثبُتُ مرورُ التَّفكيرِ النَّحويِّ بمراحلَ: من النَّشأة والتَّطوير، ثُمَّ النُّموّ والازدهار، إلى المراجعةِ والبَسْطِ في التّأليفِ، بات النّحوُ في المرحلةِ الأخيرةِ منها ذا قواعدَ وأصولٍ وأحكامٍ.

عاش أبو جعفر في القرن السّابع، بعدما كانَ الفكرُ النَّحويّ قد نَضَجَ مُمَثَّلًا بالقياسِ والتَّعليلِ في تحليلِ المسائل النّحويّة، فَعُرِفَ بحُبِّهِ للعلم، وبنزعَتَهِ المنطقيَّة في التّأليف، وبشخصيَّته المستقلَّة وآرائه المتفرّدة، فَتَراهُ يَتَبَنَّى آراء خاصّة به، يناقِشُها ويُصْدِرُ أحكامًا بِثِقةٍ وقَناعةٍ، دونَ انحيازٍ لمذهبٍ تَعَصَّبَ له.

فهو صاحبُ منهجٍ في التّأليف، ومذهبٍ مجرَّدٍ منَ التَّبعيَّةِ لِنَحويٍّ بِعَينِه.

فلذلك، نجِدُ هذا النَّحويَّ الأندلسيَّ، بَصْرِيًّا في نظرَتِه العقليّة إلى النّحو، وفي منهجِه وأصولِه العامّة الّتي يُثيرُ فيها القياسَ والسّماع، كمسألةِ الرّتبة في (ثمّ) مثلًا، وفي استخدامه لمصْطَلحاتهم النّحويّة؛ إِذْ يستخدم ضمير الفصل مقابل العِماد، وضمير الشَّأن مقابل ضمير المجهول، وكذلك اعتداده بسيبَوَيْه وذهابه مذهبه في مسائله المختلفة، مُستَشْهِدًا بآرائه؛ لِتَعزيزِ أحكامِه النّحويّة، مُنتَصِرًا لها في رُدودِه على النُّحاة، كمسألةِ النّاصب للاسم المستثنى بعد «إلا»، حيث قال: «والصّحيح من هذه المذاهب، مذهب سيبويه؛ لأنّ الفعل الّذي قبل «إلا» وما جرى مجراه، هو الطّالب للاسم الذي بعدها والمتضمّن له»(٣)، ومسألة النّون اللّاحقة في آخر المثنّى والمجموع (٤).

أمّا فيما يتعلّق بالأحكام الجزئيّة للمسائل النّحويّة، فكان يَظهَرُ كوفيّ المذهب، كمسألة (الاسم بعد لولا)، الّذي يرتَفِعُ على تقديرِ فِعْلٍ نابَتْ (لا) مَنابه، لا على الابتداء (٥). هذا، وقد استقلَّ بِرَأيه عن المذهبَين في قليلٍ مِنَ المسائلِ نَذْكُرُ منها: مسألة (مذ)، الّتي اختلف النّحاة حول استقلالها بِنَفْسِها أم اقتطاعها عن (منذ)، ومسألة (الواو) ونيابتها مَنابَ العاملِ حالَ عطفِ اسمٍ على اسمٍ آخر (٦).

فَشَيخُنا ذو شخصيَّة مستقلَّة، حُكمُهُ النّحويّ لا يحْكُمُه الهوى

البصريّ، أو الميلُ الكوفيّ، فهُوَ لَمْ يَمِلْ كُلَّ الميلِ إلى المدرسةِ البصريّةِ، ولَمْ يَنْحَزْ تمامَ الانْحيازِ إلى المدرسةِ الكوفيّةِ، بلْ كانَ يأخُذُ من أيِّهما، ما يتوافَقُ مع أفكارِه وآرائه؛ لذا كانتْ أحكامُه مبنيَّةً على حُكْمِ العقل والمنطقِ، وإنْ أَدّى به ذلك إلى مُخالفَةِ سيبويه، لذلك نرى أنَّ مِنْ أشهرِ ألقابِه الّتي لُقِّبَ بها الأستاذ النّحويّ (٧).

عاشَ أحمدُ بْنُ عبدِ النّورِ بنُ راشدٍ المالقيّ (٨) النّحويّ في القرن السّابع، ولعلَّ لِبيئَتِه الّتي شَهِدَتْ نشاطًا ثقافيًّا في المدُنِ الأندلسيّةِ، الأثرَ الأكبرَ في صَقْلِ شخصيَّتِه النّحويّة، فَقَدْ حَمَلَ له نُحاةُ الأندلس وهُمْ: الأعلم الشّنتمريّ (٩) (ت٤٦٧هـ)، وابن الطّراوة (١٠) (ت٥٢٨هـ)، عَلَمي البصرة والكوفة بعد دراستهم لكتاب سيبَوَيه مِنْ جهة، وانفتاحِهم على المدرسةِ الكوفيَّةِ مِنْ جِهةٍ أُخرى.

أمّا عن شيوخه الّذينَ تَتَلْمَذَ على أيديهم، فَيَبْدو أنَّ المالقيَّ أَنْهى مرحلةَ الدِّراسةِ على أَساتِذَتِه الثّلاثة في سنّ مُبَكِّرةٍ من شَبابِه؛ إذْ لَمْ يَكُنْ له اعتناءٌ بِلِقائهم والحملِ عنهم. فهُوَ لَمْ يُلازِمْ أَحَدًا منهم مُدَّةً طويلةً وهُمْ:

أبو عبد الله، محمّد بن يحيى المالقيّ (١١) (ت٦٥٧هـ)، وأبو الحجّاج، يوسف بن إبراهيم الأنصاريّ المالقيّ (١٢) (ت٦٧٢هـ)، وأبو الحسن ابن الأخضر(ت٥١٤هـ) المقرىء العروضيّ (١٣).

نافَسَتِ البصرةُ والكوفةُ بعْدَ القرنِ الثّالثِ الهجريِّ أقطارًا ومُدُنًا أُخرى في دراسةِ النَّحوِ، وكان أَشْهرَها بغدادُ ومِصْرُ والمغربُ والأندلسُ، وصارَ البحْثُ النَّحويُّ مُنْذُ ذلكَ الحينِ يقومُ على الاختيارِ مِنْ آراءِ الكوفيّينَ والبصريّينَ، مع النَّفاذِ بين الحينِ والآخرِ إلى آراءَ جديدةٍ قليلةٍ مستقلَّةٍ، الأمر الّذي أسهمَ في تنوُّعِ ثقافةِ النُّحاةِ في عصْرِ المالقيّ وتفاوُتِها في النُّضْجِ والشُّمول، فاتَّجه فريقٌ منهم إلى النَّهل مِنْ مَعينِ النَّحوِ الكوفيِّ، فآثَرَ منهجَ السّماعِ الّذي اعتَمَدَ على الرِّوايةِ والحفظِ، أمَّا الفريقُ الآخرُ فاتَّجَهَ نحوَ المنطقِ والقياسِ، فكانَ بصريَّ المنهجِ.

وعليه، فَقَدْ بلغَتْ أنماطُ التَّفكيرِ النَّحويِّ في عصرِهِ غايتَها مِنَ النُّضْجِ والازدهارِ، فكانَ الاستقراءُ والقياسُ والتَّعليلُ والتَّحليلُ والتَّفسيرُ، الَّتي كانَتْ سببًا في سَعَةِ التَّأليفِ والتَّصنيفِ.

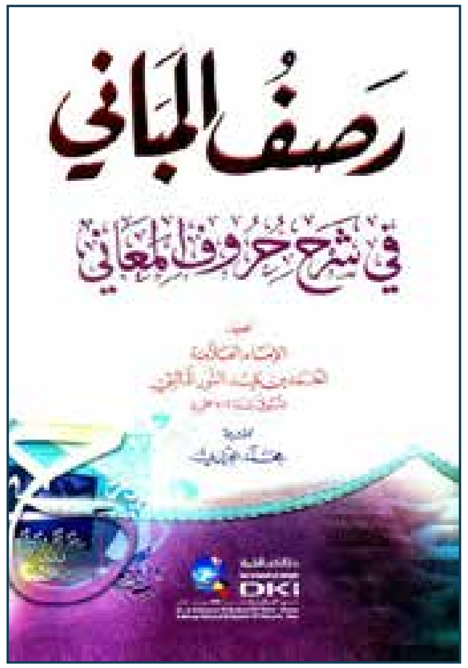

ويَشِي تَنَوُّعُ كُتُبِه في العربيَّةِ بِسَعَةِ عِلْمِه، وغزارَةِ معرفَتِه، فَنَظْرَةٌ فاحصَةٌ في مؤلَّفاتِه تَكْشِفُ لَنا قيامَها على شروحٍ أو تعليقاتٍ على كُتِبِ غيرِه مِنَ النُّحاةِ، مَع وجودِ مجموعةٍ مِنَ الكتبِ الخاصّةِ بِهِ، والّتي تَنُمُّ عَنْ فِكْرٍ في النَّحو مُسْتَقِلٍّ، منها: (رصف المباني في شرح حروف المعاني)، الّذي عَدَّهُ لسان الدّين بن الخطيب مِنْ أَجَلِّ ما صنَّفَ المالقيُّ؛ إذْ يدُلُّ على تَقَدُّمِه في علم العربيّة (١٤).

والنّاظر في تطوّر التّفكير النّحوي المتمثّل بتوازي خطَّي البحث النّحوي، ونشأة النّحو المجتمعين في بوتقة تخرج قواعد نحويّة، تمتلئ بأسباب نشأة الأفكار المتعدّدة عند النّحاة، الّتي تنتج لنا سبيلين في سَبْرِ البحث النّحوي وهما: التّدارس النّحويّ من جهة، والتّقعيد للنّحو من جهة أخرى، فَهُما سبيلانِ مُتَكاملانِ لا ينفكّان، يمثّلان منهجًا في دراسة الظّاهرة النّحويّة وتفسيرها، ينتهي المارُّ بهِما إلى الوقوفِ على الأطوارِ الأربعةِ الّتي ذَكَرَها الطّنطاويّ بقوله:«على ضوء هذا التّاريخ، عدَدْنا أطواره أربعة: طور الوضع والتّكوين (بصريّ)، وطور النّشوء والنّموّ (بصريّ، كوفيّ)، وطور النّضج والكمال (بصريّ، كوفيّ)، وطور التّرجيح والبسط في التصنيف (بغداديّ، وأندلسيّ، ومصريّ، وشاميّ)» (١٥).

ترتيبه المادة العلميّة:

قَسّمَ المالقيّ كتابَه إلى مقصودَين، الأوَّلُ في الكلامِ في حُروفِ المعاني على الجُملةِ، حيثُ قسّمَ الحروفَ إلى خَمسةٍ وتِسْعينَ حَرْفًا، منها ثلاثةَ عَشَرَ مُفردةً، واثنانِ وثمانينَ مركّبة، أَمّا الثّاني فَفي ذكرِ الحروفِ المذكورةِ على التَّفصيلِ، وشَرْحِ معانيها حرفًا حرفًا، ونوعًا نوعًا، وموضِعًا موضعًا على الإفرادِ والتّركيبِ؛ إذ عنى بالمقصودَيْن (السّبيلين)، حيثُ يجتمعُ في مفهومِ السَّبيلِ كيفيَّة المسير ثمَّ المنتهى، ونَقْصِدُ بالمنتهى (الغاية).

ووَقْفَةٌ عندَ محتوياتِ هذينِ المقْصودَين، توضِّحُ لنا أَنَّ المالِقيَّ لم يُحكِمْ ضَبْطَ المنهجِ الّذي وَعَدَ به في قولِه:«ونَظَمْتُهُ على ترتيبِ حُروفِ المعجمِ لِيَكونَ في التّأليفِ أَنبَل، وعلى تَفَهُّمُه أَسْهَل» (١٦) في سَرْدِهِ العامّ للأَدواتِ إضافةً إلى ما تَفَرّعَ عَنِ المقصودِ الأوَّل؛ إِذْ رَأَيْناهُ يَذكرُ قِسْمَينِ للحُروفِ هُما: الحروف المفْردةُ والحروف المركَّبةُ، ثُمَّ يعرِضُ المفردَةَ على تَرتيبِ هِجائيٍّ غيرِ تامٍّ، دونَ أَنْ يُشيرَ إلى مُسوّغٍ يُسوّغُ التَّرتيبَ الَّذي أَتى به؛ إذْ لَمْ يبدَأْ بها مُرَتَّبةً هِجائيًّا، فَكانَتْ عِنْدَه على النَّحوِ التّالي:

× أمّا المفردةُ: فالألِفُ، والهمزةُ، والباءُ، والتّاءُ، والكافُ، واللّامُ، والميمُ، والنّونُ، والفاءُ، والسّينُ، والهاءُ، والواوُ، والياءُ.

ثُمَّ يَتَناوَلُ الحُروفَ المركَّبةَ بِتَسْلسُلٍ لم يُفهَمْ على أيِّ معيارٍ اعتمدَ في تَرتيبِه؛ إِذْ لَمْ تَرِدْ عنده مُصنَّفَةً تحتَ عنواناتٍ عَدَديَّةٍ تَجمَعُها، كما أنَّهُ لم يورِدْها على وَفْق تَرتيبٍ مُحكَمٍ خاضِعٍ للحُروفِ الهجائيّةِ، فَكانَتْ على النَّحوِ التّالي:

×وأمّا المركّبة: فأجل، إذ، إذا، إذن، أل، لا، ألا، ألّا، إلّا، أم، أَما، إمّا، أمّا، إنْ، إنّ، أنْ، أنّ، أنا، أنتَ، أنتما، أنتم، أنتنَّ، أَوْ، أَيْ، إيْ، أيا، إيّا، أصبح، أمسى، بجل، بل، بلا، ثمَّ، جَلل، جير، حتَّى، حاشا، خلا، ذا، رُبَّ، كأنَّ، كلَّا، كما، كي، لا، لكنْ، لكنّ، لم، لمّا، لنْ، لو، لوما، لولا، ليت، ليس، ما، مذ، مِنْ، مُنْ، منذ، مع، نحن، نعمَ، عدا، علّ، على، عن، غنّ، في، قد، سوف، ها، هل، هلّا، هيا، هو، هي، هما، هم، هنّ، وا، وَي، يا.

وعلى ما يَبْدو أَنَّ المالِقيّ اعتَمَدَ في تَسْمِيَةِ الحرْفِ المركَّب بناءً على بنْيَتِه المكوَّنَةِ من اجتماعِ حَرفَينِ مُفردَين أو أكثر دونَ أَنْ ينظُرَ في ماهيَّةِ المصطلحاتِ مِنْ حيث نوعُها النّحويّ، والدَّليلُ على ذلِكَ أنَّهُ قَدْ فصَلَ بينَ الفِعْلَين(أصبح، وأمسى) بِقَرينَةِ ذِكْرِ عددِ الحروفِ المركَّبةِ، دونَ إشارةٍ إلى ما يَفْصِلُ الحروفَ عَنِ الفعْلَين، وهذا قَدْ لا يَظهَرُ للمُتلقّي؛ لِضَعْفِ تجلّي القرينة، سيَّما وأَنَّ عددَ الحروفِ كثير، فلا يُتوقَّع، ولا يُعقَل، أَنْ يقومَ عُمومُ المتلقّينَ بِعَدِّ الحروفِ حرفًا حرفًا؛ كَيْ تَتَجَلّى لهم هذه القرينة؛ مِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الأَوْلى أَنْ تَكونَ القَرينةُ الفاصلةُ أظهرَ؛ كَيْ لا يَنقَطِعَ العملُ العقليُّ أثناءَ النَّظَرِ فيها.

منهجيّته في التَّأليف:

نرى فيما أَثْبَته المالقيُّ أَنَّهُ يَرصُدُ حاصِرًا كُلَّ التَّسمياتِ الّتي وَرَدَتْ قبلَه للحروف، فهو في هذا دقيقٌ مُتمعِّنٌ في النَّظَر. والدَّليلُ على ذلك تسميتُه للصّوائتِ الثّلاثةِ (الألف، والواو، والياء)، عندَ تَقْسيمِه للحروفِ المفردةِ، ورغم أنّه غَفِلَ عنْ تَسْمِيَتِها بحروفِ اللّينِ والحركاتِ الطَّويلةِ، إلّا أَنَّ جُهدَه ذاك يحسَبُ له عَمَلًا علميًّا لا تَقِلُّ قيمتُه، وليسَ التَّنوينُ حَرْفًا مِنَ الحُروفِ المفردَةِ بحَدِّ ذاتِه، إلّا أنَّه رَسْمٌ لِصَوتٍ يُتَمِّمُ اللَّفظةَ؛ مِنْ ثمّ فهو حرف بالنِّسبةِ للمُتكلِّمِ والسّامع، يُراد بأَنَّهُ حرف تمام، إمّا للعوض أو التَّمكين أو التَّنكير، فلا بُدَّ أَنْ يتحقَّقَ أحدُ هذه الثَّلاث عند المتكلِّم حسب ما يقتضيه القانون النَّحوي، أمّا النّون، فهي لازمةُ التَّثنية وجمع المذكّر السّالم والأفعال الخمسة، وكلٌّ له معيار وقانون؛ لإظهارِها وحذفِها مع بقاءِ مقصدها في التّمام.

وقد استبدل (المالقيّ) بالمعنى المشهور لـ (في) (الظّرفيّة) اسم الوعاء؛ لأنّ الظرفيّة وعاء الزّمان والمكان معًا، أو أحدهما دون

الآخر حسب مُراد الكلام.

وفـي تناولـه البـاب الأوّل مـن المقصـود الثّانـي، الـذي عنونـه ببـاب (الألـف والهمـزة)، نـراهُ قـد اعتمَـدَ رأيَ سـيبويه وأئمّـة النَّحوِ فـي اعتبـارِه الهمزةَ والألفَ اسـمينِ لحرفٍ واحدٍ حيـثُ قال:« وهُما فـي المعنـى واحـد، إلا أَنَّهُ إذا كان سـاكنًا مدّ الصّوت، ويسـمّى ألفًا، ومخرجه إذ ذاك مِنْ وسَطِ الحلقِ، وهـو حرف هـاوٍ، وإذا كـان مقطعًا يسمّى همـزة، ومخرجهـا حينئذٍ من أوّلِ الصّدرِ، وهذا هـو الصَّحيحُ مِـنْ أَمرِهِمـا، وهـو مذهَـبُ سـيبويه، وأكثـر المحقّقين مِنْ أئمّـةِ النَّحو. وزَعَـمَ بعضُ المتقدِّميـنَ « وهـو الأخفش ومـن تـابعـه » أنَّ الـهمـزةَ غيـر الألـف، واسـتدلَّ على ذلك بـاختلافِ مخرجِهِمـا، كما تقدَّم، ولا حُجَّـةِ فيـه؛ لأنَّ النّون السّـاكنة غنّةٌ في الخيشـومِ مـع ارتفـاعِ طرفِ اللّسـانِ أيضًـا إلى الحنَكِ الأعلى، والمتحرّكة مخرجها من الفمّ، مَعَ ارتفـاعِ اللّسانِ أيضًـا إلى الحنَكِ الأعلى، مِنْ غيرِ أَنْ تَكونَ فيها غُنَّةٌ خـالِصَةٌ، وقد اتَّفَقْنـا على أنَّهـا نون(١٧)، فهو في هذا المقـام يكفلُ تعليـلَ التَّبـايُـنِ مُتَجـاوِزًا الاعتراضَ عليـه؛ ربّمـا لأنَّـهُ لا يَـرى لذلكَ الاعتراض الـذي قدّمـه الأخفش وغيره مرمًـى علميًّا يكونُ أساسًـا لِبنـاءٍ علمـيٍّ مفيد، فلا نَرى ضَرورةً هنـا لانتفـاخِ حجمِ الاختلافِ فـي هـذا الشَّـأنِ؛ إذْ لا يَتَجـاوَزُ التَّسمية، ممّـا لا يُعَدُّ جذرًا تنمو بـه حقـائـق علميّـة ذات مغزى.

وقـد لاحظنـا أنّـه عندمـا ذكـر الاسـمين (الـهمـزة والألـف)، قـد بـدَأَ بـالـهمـزة الّتـي اعتبـر أنَّ حدَّ تصريفها عن الألف هـو (التَّسكين)، ثُمَّ ذَكَـرَ الألـفَ الّتـي فـارقـت الـهمـزة بــــ (التّحريك)، وربَّمـا يكـون في تقديمه هذا قَصَدَ الانتقالَ مِنَ السُّكونِ إلى الحركةِ؛ إِذْ لا حركةَ قبل سكون.

ومِـنَ الملاحَـظِ أنَّ المـالقـيَّ فـي ردِّهِ على الأخفشِ قد تَنـاوَلَ وترك، فَتَنـاولَ الحديـثَ عنِ المخرَجِ، وخـالَفَ الأخفشَ فيه، وتَرَكَ الحديث عـنْ موضِـعِ النُّطْـقِ الدَّقيـقِ، وهـذا مـا كـان يجب ألّا يتركـه؛ ليُصْبِحَ ردّه رأيَ الأخفش فـي تمـام الجَمْـعِ والمنـعِ، فـالأخفشُ عندمـا ذَكَرَ تبـايُنَ مخـرجَي الصّوتين، تحدَّثَ عن صوتَينِ يفترِقـانِ في الأمرَينِ معًـا؛ الموضـع والمخـرج (خـروج الـهـواء بـالصّـوت)، لكـنّ المـالقـيّ أثبـتَ الافتـراقَ بيـنَ النّونَيـنِ فـي طَـرَفٍ واحـدٍ، وهـو المخـرجُ، وأكَّدَ أنَّ النّونَيـنِ أحدثتـا فـي مَوضِـعٍ واحـدٍ، وهو التقـاءُ اللِّسـانِ بـالحَنَكِ الأعلى.

الهوامش:

(١) السيوطي: جلال الدين (ت ٩١١ه)، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: عبد الإله نبهان، مجمع اللغة العربيّة، دمشق، (د. ط)، ١٩٨٧م، ٣/ ٧٠٢.

(٢) عبد الجليل، منقور، علم الدّلالة: أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د. ط)، ٢٠٠١، ص ٢٦.

(٣) المالقي: أحمد بن عبد النور (ت ٧٠٢هــ)، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠١٤، المقدّمة.

(٤) انظر: المرجع السّابق، مقدّمة المؤلف.

(٥) انظر: المرجع السّابق، مقدّمة المؤلّف.

(٦) انظر: المرجع السّابق، مقدّمة المؤلّف.

(٧) انظر: المرجع السّابق، مقدّمة المؤلّف.

(٨) هو أحمد بن عبد النّور(بن راشد)، أبو جعفر. انظر: السّيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة ١/ ٣٣١.

(٩) هو يوسف بن سليمان بن عيسى الشّنتمري الأندلسيّ، أبو الحجّاج. عالم بالأدب واللغة. ولد في شنتمريّة الغرب، ورحل إلى قرطبة. انظر: الزّركلي: خير الدّين (ت١٨٩٣هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١٦، ٢٠٠٥،٨/ ٢٣٣.

(١٠) هو سليمان بن محمّد بن عبد الله السّبائي المالقيّ، أبو الحسين. أديب من كُتّاب الرّسائل، له شعر، وله آراء في النّحو تفرّد بها. تجوّل كثيرًا في بلاد الأندلس وألّف (التّرشيح) في النّحو. انظر: الزّركلي: الأعلام ٣/ ١٣٢.

(١١) هومحمّد بن يحيى بن محمّد بن سعد الأشعريّ المالقي، أبو عبد **الله**. كان من صدور العلماء، وأعلام الفضل معرفة وتفنّنًا، ونزاهة، عارفًا بالأحكام والقراءات، مبرّزًا في الحديث والتّاريخ، قائمًا على العربيّة، مشاركًا في الأصول، والفروع واللغة. انظر: ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمّد (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٨،٦/ ٣١٠.

(١٢) هو يوسف بن إبراهيم بن يزيد، أبو الحجّاج. مولى بني أسد، أسد قريش، كان يحفظ فتاوى أبي مسعود الرّازي. الحمويّ: شهاب الدّين ياقوت بن عبد **الله** (ت٦٢٦هـ)، مُعجم البُلدان، دار صادر، بيروت – لبنان، (د، ط)، (د، ت)، ٤/ ٢٤٩.

(١٣) هو عليّ بن عبد الرّحمن بن مهدي بن عمران، أبو الحسن ابن الأخضر. عالم بالعربيّة والأدب. من أهل إشبيليّة. من كتبه « الحماسة» و« شرح شعر حبيب». انظر: الزّركلي: الأعلام ٤/٢٩٩.

(١٤) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١/٢٠٤.

(١٥) الطنطاوي، محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، (د.ب)، ط٢، ١٩٩٥، ص ٢٠.

(١٦) المالقي: مقدمة المؤلف .

(١٧) المالقي: رصف المباني في شرح حروف المعاني، ص ١١٤–١١٥.

من جماليات
التَّشبيه في القرآن الكريم

د. بن عيسى بطاهر
جامعة الشارقة

مفهوم التّشبيه:

يُعَدُّ التَّشبيهُ أَحَدَ أركانِ البَلاغةِ العربيَّةِ، فهُوَ يدلُّ على إشراك شيئين في صفةٍ من الصِّفاتِ، كالطِّيبِ في المِسْكِ، والضّياءِ في الشّمسِ، والشّجاعةِ في الأسدِ، والتَّشبيه مع ما فيه من جمالٍ فنّيّ، وإبداعٍ في التَّعبير، وإيقاظٍ للعقول، وتحريكٍ للوجدان، هو أَحَدُ أركانِ البلاغةِ عندَ الأممِ جميعًا، وهو ميدانٌ تسابَقَ فيه فُحولُ البُلغاءِ والشُّعراءِ مُنذُ القديم، وكان التَّشبيهُ عندَ العربِ مِنْ أكثرِ الفُنونِ جَرْيًا على أَلْسِنَتِهم، حتَّى لو قالَ قائلٌ: «هو أكثرُ كلامِهم لَمْ يُبْعِد».

فائدة التّشبيه:

للتَّشبيه خصائص تعبيريَّة كثيرةٌ تجعلُهُ قادرًا على إيرادِ المعاني الخفيَّةِ في صورةٍ جليَّةٍ، وعرضِ الأفكارِ البعيدةِ بتعبيراتٍ تجعلُها قريبة، فضلًا عمّا يُلبِسُها مِنْ أثوابٍ جميلة، وما يُفيدُه مِنَ التَّقريرِ والتَّوكيد. قالَ أبو هلال العسكريّ: «التَّشبيهُ يزيدُ المعنى وضوحًا، ويكسبُه تأكيدًا، ولهذا أجمعَ جميعُ المُتكلِّمين مِنَ العَربِ والعَجَمِ عليه، ولَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ منهم عنه، وقَدْ جاءَ عَنِ القُدَماءِ وأَهْلِ الجاهليَّةِ ما يُستَدَلُّ به على شَرَفِهِ وموقعه مِنَ البَلاغَة».

ولعَلَّ مِنْ أَهَمِّ أهدافه حمْلَ المخاطَبِ على الاقتناعِ بفكرةٍ مِنَ الأفكارِ، ويكونُ التَّشبيهُ بِمَثابةِ الدَّليلِ الّذي يُؤيّدُ دَعْوى المتكلِّمِ، ومِنْ ذلكَ تشبيهُ أعمالِ الكُفّارِ بالسَّرابِ الّذي يَنْخدِعُ به العَطْشانُ، ولا يَحْصُلُ مِنْه على فائدةٍ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ ﴾ [النّور: ٣٩]

فضلًا عنْ تحقيقِ قَدْرٍ مِنَ المُتعةِ الوجدانيَّةِ والفكريَّةِ عنْ طَريقِ الجَمالِ الفنِّيِّ الّذي يُحقِّقُهُ التَّشبيه، فَفي كثيرٍ مِنَ التَّشبيهاتِ صُوَرٌ جماليَّةٌ لا توجَدُ في غيرِها مِنْ طرائقِ الكلامِ المباشر، فَقولك: «هذا كلامٌ كالعَسَلِ في حَلاوتِه» أكثرُ إمتاعًا مِنْ قولِك: «هذا كلامٌ حُلْوٌ».

خصائص التّشبيه في القرآن الكريم:

وقد كان لِفَنِّ التَّشبيه حُضورٌ واضحٌ بينَ أساليبِ القرآنِ الكريمِ، وخاصَّةً التَّشبيه التَّمثيليّ؛ والسَّببُ في ذلك أَنَّ القرآنَ عربيُّ الأسلوب، بليغُ التَّعبير، وقد كَثُرَ فيه التَّشبيهُ على عادةِ العَرَبِ في فنونِها الشِّعريّةِ والنَّثريّةِ، غيرَ أَنَّ للتَّشبيهِ في القرآنِ الكريمِ خصائصَ ومميِّزاتٍ حَفَّزَتِ العلماءَ على العنايةِ به مُنْذُ القديم، فَقَدِ اعتمَدَ عليه البلاغيّون في مُصنَّفاتهم البيانيّة، ومنهم مَنْ أَلَّفَ فيه مُصنَّفاتٍ خاصَّةً مثل ابن ناقيا البغداديّ المتوفَّى سنةَ (٤٨٥هـ) الّذي أَلَّفَ فيه كتابًا سمّاه «الجُمان في تشبيهات القرآن»، قالَ في مُقدِّمته: «التَّشبيهاتُ نوعٌ مستحسنٌ مِنْ أنواعِ البلاغةِ، وقَدْ وَرَدَ منهُ في كتابِ اللهِ –تعالى– ما نَحْنُ ذاكروه في هذا الكتابِ، وذاهبون إلى إيضاحِ معانيه، والتَّنبيهِ على مَكانِ الفضيلةِ فيه».

وقد أشارَ علماءُ البلاغةِ إلى جُملةٍ مِنْ خَصائصِ التَّشبيهاتِ القرآنيّةِ نوجزُها في النّقاطِ الآتيةِ، مع ذكرِ أمثلةٍ وشواهدَ توضيحيّة :

أوّلًا: تَتَّسِمُ تشبيهاتُ القرآنِ بأنَّها عامَّةٌ يَسْهُلُ إدراكُها في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فَهيَ غيرُ مقيّدةٍ ببيئةٍ مُعيَّنةٍ، وتَراها تَسْتَمِدُّ مِنَ الطَّبيعةِ والكونِ أكثرَ العَناصرِ المعروفةِ عندَ البشرِ، مِثْل: الأرضِ والزَّرعِ، والظُّلُماتِ والنّورِ، والأمواجِ والجبالِ، والفراشِ والجرادِ، والبعوضةِ والحمارِ، وغير ذلك.

ومِنْ أمثلةِ ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤–٢٥]

فَقَدْ شبَّه الكلمةَ الطيِّبةَ بالشَّجرةِ الطيِّبةِ، وذَكَرَ في وَجْهِ الشَّبَهِ أَرْبَعَ صفاتٍ، الأولى: كونها طيِّبةً في المنظرِ والصُّورةِ والشَّكل، وكونها طيِّبةَ الرائحة، وكونها طيِّبةَ الثَّمرة، وكونها طيِّبةً بِحسبِ

المنفعةِ، والصِّفة الثّانية قولُه: «أَصْلُهَا ثَابِتٌ»؛ أيْ: راسِخٌ باقٍ آمِنُ الانقلاعِ والانقطاعِ والزَّوالِ والفَناءِ، والصِّفة الثّالثة: قولُه: «وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ»، وهذا الوَصْف يَدُلُّ على كَمالِ حالِ تلكَ الشَّجرةِ مِنْ حيثُ ارتفاعُ الأغصان وقوَّتها، وكونُها بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأَبْنِيَة، فكانت ثَمَراتُها نقيَّةً طاهرةً طيِّبةً عَنْ جميعِ الشّوائب، والصِّفة الرّابعة: قولُه: «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»، والمُراد أنَّ ثَمَرَتَها لا بُدَّ أَنْ تكونَ حاضرةً دائمةً في كُلِّ الأوقات، ولا تكونُ مِثْلَ الأشجار الّتي يكون ثمرُها حاضرًا في بعضِ الأوقاتِ دونَ بعض، والمُرادُ مِنْ هذا كلِّه: أنَّ معرفة **الله** تعالى والاستغراق في مَحَبَّتِه وفي خِدْمَتِه وطاعَتِه، تُشْبِهُ هذه الشَّجرةَ في هذه الصِّفات الأربع . وقيل: الشَّجرة المقصودة في الآيات هي: النَّخلة .

ثانيًا: التَّعبيرُ الدَّقيقُ عن الأفكارِ المُجرَّدةِ الّتي تُدرَكُ بالعقلِ فقط، ثُمَّ عَرضها في صُوَرٍ محسوسَةٍ قريبةٍ إلى الفَهْمِ والإدراكِ؛ فَكثيرًا ما يَرْسُمُ القرآنُ لِفكرةٍ مُجَرَّدةٍ (عقليّة) صورةً حيَّةً مُتَخَيَّلَةً، يَجِدُ فيها المتلقِّي المُتعَةَ الوجدانيَّةَ، والحُجَّةَ العقليَّةَ، الّتي تُساعِدُه على إدراكِ تلكَ الحقيقةِ والتّأثُّر بها، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فقد شبَّه **الله** سبحانه نفقةَ المُنفِقِ في سبيل **الله** بِمَنْ بَذَرَ بَذْرًا؛ فأنبتَتْ كُلُّ حبَّةٍ سبْعَ سنابل، اشتملَتْ كُلُّ سنبلةٍ على مئةِ حبَّةٍ، و**الله** يُضاعِفُ بحسب حالِ المُنفِقِ وإيمانِه وإخلاصِه وإحسانِه، ونَفْعِ نَفقَتِهُ وقَدْرِها؛ فإنَّ ثوابَ الإنفاقِ يَتَفاوتُ بحسب ما يقومُ بالقلبِ مِنَ الإيمانِ والإخلاصِ والتّثبُّتِ عندَ النَّفَقةِ ، وفي هذا التَّشبيهِ تَجْسيدٌ لفكرةٍ مُجرّدةٍ وهي (الإنفاق) في صورةٍ محسوسَةٍ كأنَّها مُشاهَدةٌ هي (الحبّة) ثُمّ (السّنبلة)...

ثالثًا: إنّ الهَدَفَ الأساسيَّ لِتَشبيهاتِ القرآنِ هو هدايةُ الإنسانِ، فهي تُشبِّهُه تارةً بأشياء، وتُشَبِّه له تارةً أخرى، كلُّ ذلك مِنْ أجلِ أَنْ يَهتَدي إلى حقيقةِ التَّوحيدِ ومُقتَضياتِها الأُخرى مِنَ الإيمانِ والأعمالِ الصّالحة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزّمر:٢٧].

رابعًا: يُلاحَظُ أنَّ أغلبَ التَّشبيهاتِ القرآنيّةَ ممّا ذُكِرَ فيه الأداة؛ وقليلةٌ هي التَّشبيهاتُ الّتي حُذِفَتْ فيها الأداةُ. وَوَرَدَتْ أداةُ التَّشبيهِ حرفًا (الكاف) كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]

وَوَرَدَتْ فعلًا (حَسِبْتَ) كما في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]

واسمًا (مثل)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

خامسًا: البُعْدُ عَنْ أَودِيةِ الخيالِ الّتي يَجِدُ فيها المتلقّي صعوبةً في فَهْمِها والتّأثُّر بها؛ لأَنَّ غَرَضَ التَّشبيهاتِ في القرآنِ هي التَّوضيحُ والبيان، ورَبْطُ الأشياء العقليّة والأفكار المعنويّة بأمور ماديّة محسوسة مشاهدة، الأمر الّذي يجعلها مجسدّة أو مشخّصة أمام العقل، لا يَجِدُ أيَّةَ صعوبةٍ في إدراكِها أو تذوّقها. وقد أشارَ الإمام الزَّركشيّ في كتابه (البرهان في علوم القرآن) إلى هذا الجانب الإيضاحيّ في تشبيهات القرآن، وفصَّله في خمسة أقسام:

الأَوَّل: قد يشبَّه ما تَقَعُ عليه الحاسَّة بما لا تقع (تشبيه المحسوس بالمعقول)، كقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصّافّات: ٦٥]

فشبَّهَ الطَّلْعَ (الثَّمر) بما لا نَشَكُّ أنَّه مُنكَرٌ قبيح، لِما حَصَلَ في نُفوسِ النَّاسِ مِنْ بشاعةِ صُوَرِ الشَّياطينِ وإِنْ لَمْ تَرَها عَيانًا.

الثَّاني: عَكْس الأوّل (تشبيه المعقول بالمحسوس)، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ [النّور: ٣٩]

أخرَجَ ما لا يحسّ وهو الإيمان إلى ما يحسّ وهو السَّراب.

الثَّالث: إخراج ما لَمْ تَجْرِ العادةُ بِهِ إلى ما جَرَتْ بِهِ، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ [يونس: ٢٤]

والجامع البهجة والزّينة، ثُمّ الهلاك وفيه العبرة.

الرَّابع: إخراجُ ما لا يُعرَفُ بالبديهةِ إلى ما يُعرَفُ بها، كقوله ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]

والجامع العِظَم، وفائدته التَّشويق إلى الجنَّة بحسن الصِّفة.

الخامس: إخراج ما لا قوَّة له في الصِّفة إلى ما له قوَّة فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرّحمن: ٢٤]

والجامع فيهما العِظَمُ، والفائدةُ البيانُ عَنِ القدرة على تسخيرِ الأجسامِ العِظامِ في أعظَمِ ما يَكونُ مِنَ الماء.

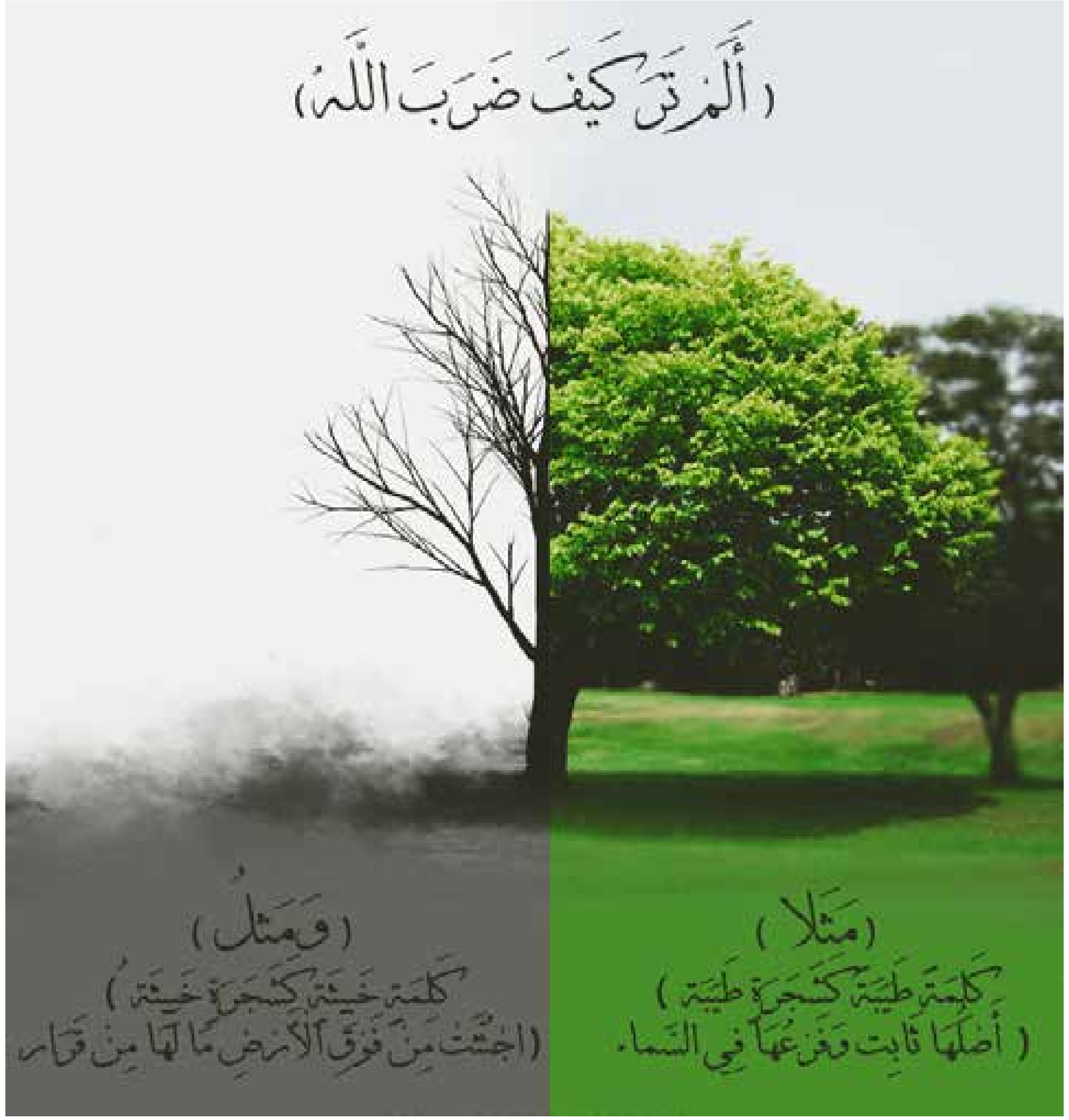

شَارِقَةُ الْخَيْرَاتِ ضَاءَتْ فَنَوَّرَتْ

بافتتاح مجمع القرآن الكريم

الدّكتور عبد الرَّحيم بوقطّة / الجزائر

هَذِهِ قَصِيدَةٌ تَشْطِيرٌ لِمَنْظُومَةِ (حِرْزِ الْأَمَانِي وَوَجْهِ التَّهَانِي)
فِي الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ الْمَشْهُورَةِ بِالشَّاطِبِيَّةِ

عَلَى فَوْقِ فَوْقِ الْفَوْقِ رَايَاتُكُمْ عَلَتْ
سَمَاءَ الْعُلَى وَالْعَدْلِ زُهْرًا وَكُمَّلَا

بِمَجْمَعِ قُرْآنٍ أَتَى إِثْرَ مَجْمَعٍ
بِصُحْبَتِهِ الْمَجْدَ الرَّفِيعَ تَأَثَّلَا

فَشَارِقَةُ الْخَيْرَاتِ ضَاءَتْ فَنَوَّرَتْ
سَمَاءَ الْعُلَى وَالْعَدْلِ زُهْرًا وَكُمَّلَا

وَفَاحَتْ شَذَا عَرْفٍ كَأَنَّ أَرِيجَهُ
بِكُلِّ عَبِيرٍ حِينَ أَصْبَحَ مُخْضَلَا

تُفَاخِرُ بِالْقُرَّاءِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ
أُولَئِكَ أَهْلُ اللَّهِ وَالصَّفْوَةُ الْمَلَا

وَسُلْطَانُهَا الشَّيْخُ الْكَرِيمُ كَسَاهُمُ
مَلَابِسَ أَنْوَارٍ مِنَ التَّاجِ وَالْحُلَا

وَكَانَ حَفِيًّا بِالْقُرَانِ وَأَهْلِهِ
مُجِلًّا لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُبَجِّلَا

فَخِدْمَةُ دِينِ اللَّهِ أَضْحَتْ شِعَارَهُ
وَمِنْ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ يُجْتُلَا

وَيَتْبَعُهُ الْأَخْيَارُ مِنْ آلِ قَاسِمٍ
أَذَاعُوا فَقَدْ ضَاعَتْ شَذًا وَقَرَنْفُلَا

فَيَارَبِّ بَارِكْ فِي الْأَمِيرِ وَسَعْيِهِ
وَيَا خَيْرَ مَأْمُولٍ جَدًا وَتَفَضُّلَا

وَأَحْسِنْ خِتَامَ الشَّيْخِ نَوِّرْ مُقَامَهُ
مِنَ الْقَبْرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلًا

وَآخِرُ دَعْوَانَا بِتَوْفِيقِ رَبِّنَا
أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَحْدَهُ عَلَا

مِنَ اللُّغَةِ إلى الاصْطِلاحِ

الأستاذ الدكتور إدريس نقوري

تَعَلَّقَ العربُ بِلُغتِهم تَعَلُّقًا كبيرًا لا نَظيرَ له، واعتَزّوا بها أَيّما اعتزاز، وخَلَّدوا مُفرداتِها في أشعارِهِمْ الّتي كَتَبوها بِماءِ الذَّهَبِ وعَلَّقوها على أستارِ الكعبةِ كما تَقولُ الرّوايةُ المُتداولةُ، واحتَفَوا بالشُّعراءِ الّذينَ نَبَغوا في الشِّعرِ، وكانَتْ في عَصْرِهم الجاهليّ لُغَةَ الفِطرةِ والتَّواصلِ اليَوميِّ تَتَفاهَمُ بها القَبائلُ في نِطاقِ تَعدُّدِ لَهَجاتِها ومَواطِنِها.

ولمّا جاءَ الإسلامُ وانتَشَرَ القرآنُ في الآفاقِ بينَ القَبائلِ زادَ تَشَبُّثُ المُسلمينَ بالعربيَّةِ الّتي أَضْفى عليها القُرآنُ حُرمَةً وقَداسَةً وأَضْحَتْ لُغَةَ إعجازٍ بيانيٍّ وعلميٍّ، وأَفادَت العربيَّةُ مِنَ الكِتابِ المُبينِ بأنْ وَسَّعَ مُعْجَمَها وأثرى مُفرداتِها باستعمالاتٍ جديدةٍ وصِيَغٍ وأَساليبَ لَمْ يَعْهَدْها العربُ مِنْ قبلُ، ولمّا اتّسعَتْ رُقعَةُ الإسلامِ ودخلَتْ في دولتِهِ أقوامٌ مِنْ مِلَلٍ ونِحَلٍ وثَقافاتٍ أُخرى، فارسيَّةٍ وروميّةٍ وحبشيَّةٍ وغيرِها تسرَّبَتْ إلى العربيَّةِ ألفاظٌ مِنْ لُغاتٍ أجنبيَّةٍ لأقوامٍ مُجاورةٍ لدولةِ الإسلامِ، واستطاعَتِ العربيَّةُ بِمُرونَتِها وخصائصِها المميَّزةِ أَنْ تستَوْعِبَ ما تسرَّبَ إليها مِنْ مفرداتٍ ودلالاتٍ فَرَضَها التَّطوّر العلميُّ والحضاريُّ الّذي عرفَتْهُ دولةُ الإسلامِ بِفَضْلِ جهودِ العلماءِ والمُفكّرينَ والأُدباءِ والباحثينَ الّذين أَثْرَوا العربيَّةَ وأَسهموا في ازدهارِها وتوسيعِ مجالِها، ونظرًا لِطُغيانِ العلومِ وتعدُّدِها وتنوُّعِ مَجالاتِها أصبَحَ الاصطلاحُ هو السّائد وتَراجَعَتْ ألفاظٌ قديمةٌ، وانحسر بعضُها وظهرَتْ مفرداتُ الدّلالاتِ واستعمالات جديدة.

ومعنى هذا أَنَّ الغلَبَةَ أضحَتْ للاصطلاحِ لا اللُّغة الّتي عُنِيَ بها علماءُ المعاجمِ والنَّحوِ والبلاغةِ أيّما عناية، فَكانَتْ تجربةُ الخليل الرّائدة في وَضْعِ أوّلِ معجمٍ لها أَسْماهُ (العَين) الّذي قالَ فيه: «وليسَ لِلْعربِ بناءٌ في الأسماءِ ولا في الأفعالِ أكثرُ مِنْ خمسةِ أحرفٍ، فَمَهْما وجدْتَ زيادة على خمسةِ أحرفٍ في فعلٍ واسمٍ فاعلَمْ أَنّها زائدةٌ وليسَتْ مِنْ أَصْلِ الكلمةِ مثلَ عنكبوت، أَصْلُ بنائها عنكب.»

وبعْدَ الخليلِ تواتَرَ العمَلُ في وَضْعِ معاجمِ اللُّغةِ وتطويرِ صناعةِ المعجمِ فاهتمَّ العلماءُ باللُّغةِ مُعجمًا وتركيبًا ودلالةً ونحوًا وصرفًا، كما اتَّجَهَتِ العنايةُ إلى الحروفِ والأصواتِ والإيقاعِ، وبما أَنَّ العربيَّةَ لُغَةٌ اشتقاقيَّةٌ تَرجِعُ كُلُّ مُفردةٍ مِنْ موادّها إلى معنًى أو عدَّةِ مَعانٍ فإنَّ تلكَ المعاني الّتي تجمَعُ المواد وتشتَرِكُ فيها هي الّتي جعَلَها ابن فارس –أَحَدُ المعجميّينَ البارزينَ– مقاييسَ وسَمَّى مُعجَمَهُ بهذا الاسمِ، ومِنْ مظاهرِ عنايةِ العُلَماءِ بالعربيَّةِ اهتمامُهم بِخَصائصها ومميّزاتِها كما فَعَلَ ابن جنّيّ وغيره.

لقد مثَّلَتْ جهودُ اللُّغويّين والنُّحاة مرحلةً أساسيَّةً في جمْعِ اللُّغةِ وتَقعيدِها وضبطِ آليّاتِها وصِيَغِها وأساليبِها، وكانت تلك الجهود هي القاعدة الّتي انطلقَ منها علماءُ الاصطلاحِ لِتَأسيسِ المعاجِمِ الاصطلاحيَّةِ، وقد أشارَ ابن فارس في الصّاحبيّ إلى جُمْلةٍ مِنَ المُصطلحاتِ ارتبطَتْ بالقرآنِ الكريمِ واستمدَّتْ منهُ دلالاتها الجديدة مثل الصَّلاةِ والصَّومِ والزَّكاةِ، ثُمَّ توالى التَّأليف في هذا الضَّربِ مِنَ المعاجمِ فَظَهَرَ كتابُ الزّينةِ في المُصطلحاتِ الإسلاميَّةِ العربيَّةِ للرّازي، وهذان المقالان يؤكِّدانِ تأثيرَ القرآنِ الكريمِ في اللُّغةِ العربيَّةِ على مستوى الاصطلاح وعلى مستويات أخرى.

وقد ساعدَتْ خصائصُ العربيَّةِ المُتمثِّلةِ في كَونِها لُغةً مَرنَةً تعتمدُ التَّقديمَ والتَّأخيرَ والتَّعريضَ والتَّبادلَ وكونها لُغةً تحويليَّةً تُكتَبُ جُمَلُها بِصِيَغٍ مختلفةٍ، ولُغَة فصاحة وبيان، ولغة النَّفس البشريَّة تمتاز بالدّقّةِ والقوَّةِ، وحركيَّةِ التَّصرُّفِ، وبقُدْرَتِها الإنجازيَّةِ العالية، وبِكَوْنِها لُغَة متكلّم ومخاطب/متلقّ وسياق وهكذا، أقولُ إنَّ هذه المزايا ساعدَتْ علماءَ الاصطِلاحِ على بِناءِ معاجمَ جديدةٍ قادرةٍ على استيعابِ المفاهيمِ والدّلالات الّتي فَرَضَها التّطوّر الاجتماعيّ والحضاريّ، ولذلك لا نَعْجَبُ عندما نَسْمَعُ العبارةَ القديمةَ: معنى هذه المفردة في اللّغة كذا وكذا، ومعناها في الاصطلاحِ كيت وكيت، وهذا دليلٌ على اعترافِ النّاسِ قديمًا بازدواجيَّةِ اللِّسانِ العربيّ بمعنى أنّه لغة واصطلاح في

آنٍ واحد، فالمفردة فيه لها دلالة أو عدّة دلالات لغويّة، وفي الوقت نفسه لها معانٍ اصطلاحية.

والعربيّة غنيّة بِمُفرداتِها أي: بِمُعْجَمِها ولكنّها غنيَّةٌ أيضًا بِمَعانيها ودلالاتها، فَبَعضُ ألفاظِها تَتَّسَعُ لِعِدَّةِ معانٍ مثلَ كلمةِ «عين» وبعضها لأكثر من ذلك، ولا نَنْسى أنَّها أيضًا لغة مجاز، والمجازُ مرحلةٌ وُسْطى بين دلالة المفردةِ الطبيعيَّةِ أو الأصليّة أو قُل اللُّغويّة، وبين دلالتها الاصطلاحيَّة، وهُوَ يمثّلُ مرحلةً ذات أهميَّة بالِغة في الاستعمال والتَّفاهم، ويكشفُ الاستقراءُ لِتَطوّر اللُّغةِ أنَّ الاصطلاحَ يمتَدُّ ويتَّسعُ باتّساعِ العلوم والتّقنيات وانتشارهما، وهذا ما نُشاهِدُه في الوقتِ الرّاهِنِ الّذي تميَّزَ بِتَداوُلِ النّاسِ لِعَشَراتٍ بَلْ مئات المفردات الجديدة.

كلّها اصطلاحاتٌ تنتَمي إلى فَرعٍ مِنْ فروعِ العلومِ والفنونِ والإعلامِ، ومعنى هذا أَنَّ النّاسَ شَرَعوا في هَجْرِ اللُّغَةِ والاهتمامِ بالاصْطلاحِ ليسَ في العربيَّة فقط بَلْ في لُغاتٍ أُخرى، ويمكنُ القولُ إِنَّ عَصْرَنا هذا عصر اصطلاحٍ بامتياز، ولا بدع في ذلك طالما أَنَّهُ عصْرُ العلمِ والتّقنية، والدَّليل على هيمنةِ الاصطلاح أنَّ هذا العِلْمَ امتَدَّ وتعدَّدَ وانقَسَمَ إلى علوم، فبالإضافة إلى المصطلحيّة –الاسم العام الّذي يشمل دراسة المصطلحات– هناك عِلْمٌ خاصٌّ بِمُصْطَلَحاتِ كُلِّ عِلْم، فللعلومِ التَّجريبيَّةِ مصطلحاتُها، وللعلومِ الاجتماعيَّةِ لُغَتُها الخاصَّةُ الّتي يَتَفاهم بها أصحابُها، ولعلوم الأدب مُصطلحاتُها، ومِنْ فروعِ مصطلحاتِ الأدبِ عِلْمُ المصطلحِ النَّقديِّ، وهو نَفْسُهُ يَنْقَسِمُ إلى مصطلحاتِ نَقْد الشّعر، ومُصْطَلَحاتِ نَقْدِ الرّوايةِ والمَسرحِ الخ، فالمصطلحاتُ تَتَناسَلُ و تَتَوالدُ وتتَّسعُ رُقعَتُها عامًا بعدَ عامٍ، ممّا يؤكّدُ مرَّةً أُخرى سَيْطرةَ الاصطلاحِ على الحياةِ المعاصِرة وعلى عُمومِ المثقَّفين، ولولا الشّعر العربيّ القديم والقرآن الكريم والحديث النّبويّ لَما اطّلع النّاس على كثير مِنْ ألفاظ العربيّة القديمة الّتي تخلّى النّاس عَنِ استعمالِها، وما يَزالُ كثيرٌ منهم يَجهَلونَ وُجودَها؛ فالأحرى أنْ يُبادِروا إلى استعمالِها، وعلى أيّة حال هذه من المشاكل الّتي تُعاني منها اللُّغة العربيّة وربّما لغات أخرى، ومن حُسْنِ قَدَر العربيّة اللّغة الشّريفة الفصيحة أنّها تمكّنَتْ بِفَضْلِ مقوّماتها مِنْ مُسايرةِ رَكْب التَّطوّر وإنتاج مصطلحات جديدة ومفردات قادرة على استيعاب مُستجدّات العصر ومُواكبة التّحوّلات العميقة الّتي تَجري حاليًّا بين سَمْعِنا و بَصَرِنا.

لقد شاعَ بين النّاسِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ أنَّ العربيّة لغةُ أدب وفنّ، وأنّها غير قادرة على التّطوّر واحتواء العلوم، وهذه مجرّد فِرْيَة وتَجَنٍّ على لغة القرآن الكريم؛ إِذْ ثَبَت بالعكس أنّها لغة علوم وإعجاز، ولا أدلّ على ثرائها ومرونتها من عَشَراتِ المعاجمِ الاصطلاحيَّةِ الّتي أنجزَتْها مؤسّسات مختصّة مثلَ مكتبِ تنسيق التّعريب في الرّباط وغيره، علاوة على عشرات الجهود العلميّة الفرديّة في مجال المصطلح العلميّ والأدبيّ، وعلى نطاق النَّقد الأدبيّ وحدَه يمكن أَنْ نَستَشْهِدَ بِعَدِدٍ وافرٍ مِنَ الرَّسائل العلميَّةِ الّتي احتَضَنَتْها الجامعةُ المغربيَّةُ وجامعاتٌ عربيَّةٌ تُثبِتُ كلّها قدرة العربيّة ودقّة ألفاظها وتعبيراتها الاصطلاحيّة، وهي اللّغة الّتي تؤكّد ارتباطها بالكتاب المبين الّذي نَزَلَ بها، وسَتَبْقى حيَّة متطوّرة ما دام القرآن بين أيدي النّاس وفي صدورهم يمدّهم بالقوّة ويُلهِمُهُم الفهم والابتكار والتّجدّد.

إنَّ مِنَ المعروفِ المتداولِ في الدّراساتِ الحديثةِ أَنَّ للّغة عدّة وظائف، وتعدّد الوظائف خاصيّة أخرى من خصائص العربيّة، فَهِيَ لُغَةُ تواصلٍ وتفاهم، ولُغةُ بيان وإعراب، ولُغة شِعْرٍ وأدب وفنّ، ولغة شاعرة كما قال المرحوم العقّاد، ولها وظيفة إبلاغيّةٌ كبيرةٌ وتصويريّةٌ قادرةٌ على تصوير أدقّ المشاعر والأحاسيس، وعلى أداء المعاني في مختلَفِ ظلالِها وأحوالِها وألوانها.

وكيف لا تكونُ لُغةَ عِلْمٍ ومَنطقٍ وحِجاج، ثُمَّ إِنَّها تتمتَّعُ بِوَظيفةٍ أُخرى تنفيسيَّةٍ وعلاجيّة، وتظهرُ على الخصوص في تلاوة الكتاب المبين. دعْكَ مِنَ الوظيفةِ الجماليّة الواضحة في الشِّعر وفي القرآن العظيم، ووظائفها أكثر من تلك التي ذكرها جاكوبسون وعلماء الغرب.

وسواء أتعلَّقَ الأمرُ باستعمالِها في دلالاتِها الطبيعيّة أم في معانيها المجازيَّة والاصطلاحيّة الجديدة فإنَّها تظلّ اللُّغة الحيَّة الموحية والمعبّرة، اللّغة الجميلة الّتي شَرُفَت بِنُزولِ القرآن وكرّسها الحديث النّبويّ رؤية وتطبيقًا، ودوَّنَها العلماء مُعْجَمًا وتراكيبَ وأساليبَ ودلالة أصليّة واصطلاحيّة.

ومن يَعُدْ إلى لغة القرآن الكريم ويتدبّر معاني مفرداته وأبعادها يكتشف العَجَبَ العُجاب، ويلحظ مدى ما تزخر به العربيّة مِنْ صُنوفِ الجمال ودقَّة التَّعبير وخصوصيَّةٍ لا تتوافر في لغات أخرى، ولذلك سَتَبْقى لغة الدّين والعلم والأدب والفنّ، لغة الإعجاز والاصطلاح مهما طَغَتْ لغة العصر وهَيمَنَتْ مُفردات التّكنولوجيا والإعلام لأَنَّ الزَّبَدَ يذهب جُفاءً، وما يَنْفَعُ النّاسَ يَمْكُثُ في الأرض، وقد نَزَلَ الكتابُ المبينُ مِنَ السَّماء لِيُثبِتَ جذورَ العربيَّةِ في الأرض ويَنْشرَها بين الخلائق أجمعين، كما بَعَثَ رسولَه الكريم إلى النّاس كافّة رحمة للعالمين، فَعَلَينا إذن ألّا نخشى الاصطلاح وأَنْ نعملَ على خدمةِ لُغَتِنا الشَّريفَةِ كما خَدَمَها أسلافُنا جزاهم **الله** كُلَّ خير، والاصطلاحُ يَبْقى مُهِمًّا سواء أكان جزءًا من اللُّغة أم هو لُغَةٌ ثانيةٌ لا مندوحةَ مِنَ التَّمسُّكِ بها والمحافظةِ عليها. إنَّ اللُّغَةَ هي الأصل والاصطلاح تابع لها، والتّابعُ تابعٌ كما يقول الأصوليّون، ولذلكَ قيلَ أيضًا: لا مشاحَّةَ في الاصطلاح.

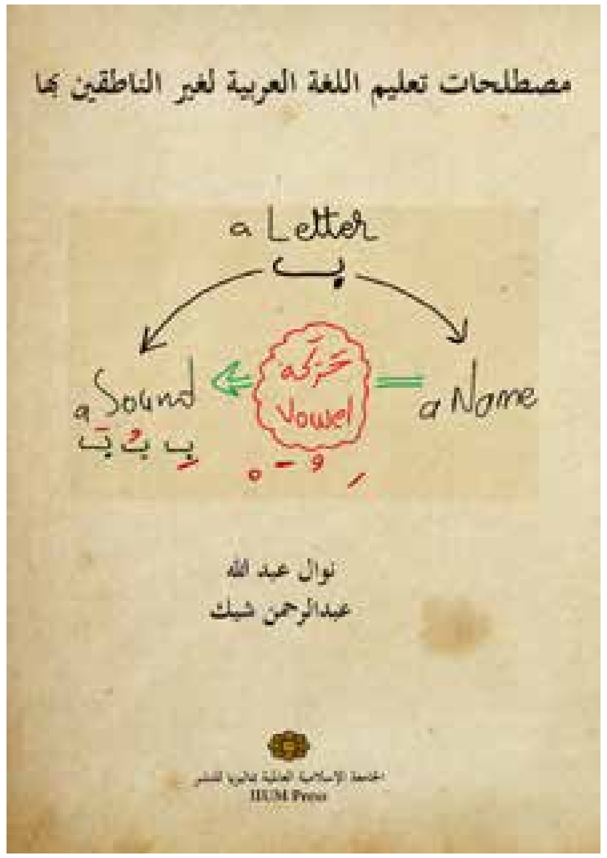

«اللّغة... هذا المجهول»

الأديب الناقد
الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض

يلاحظ القارئ أنّا وضعنا نصّ العنوان بين مزدوجتين، وهو ذاك؛ لأنّ العبارةَ ليستْ لنا، ولكنّها للناقدة اللسانيّاتيّة الفرنسيّة المتألّقة جوليا كرِسْتيفا. وأصل هذه العبارة عنوانٌ لكتاب لها.

وإذا كان من العسير التوقّفُ بتفصيل لدى كلّ القضايا والنّظريات التي أثارت الناقدة مناقشتها في كتابها الذي يقع في قريب من مائتين وثلاثين صفحة، والتي قدّمته في ثلاثة أقسام، وكلّ قسم يحتوي مجموعة من الفصول، فلا أقلّ من أن نتوقّف لدى مدخله لعلّنا أن نستطيع تقديم فكرة للقارئ عنه...

لكنْ قبل ذلك أودّ أن أقدّم بين يدي هذه المقالة مجموعة من الملاحظات تضطرب كلّها من حول أهمّيّة اللّغة ومكانتها في تفكير الإنسان، ولذلك ترى جميع الأمم الكبيرة، قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً، تُعنَى بلغتها، وتتفانَى في خدمتها، وتجتهد في تيسيرها، أو في ضبْطِ صعوباتها على الأقلّ. فالعرب على عهد حضارتهم الزاهرة كأنّهم لم يكونوا يفعلون شيئاً غير العناية بلغتهم (الخليل، سيبويه، ابن جني، الزمخشري، ابن هشام، ابن مالك، والقائمة طويلة جدّاً...). من أجل ذلك نجد المفكّرين والنقّاد الغربيّين المعاصرين يُعْنَوْن عناية فائقةً تتجاوز حدّ الحرص، إلى حدّ المبالغة والمغالاة... فمنذ دو صوسير الذي فتح الباب أمام الدّراسات اللّغويّة الحداثيّة والمدارس اللّغويّة تتوالى متعدّدة، والمذاهب اللّسانيّاتيّة (نسبة إلى اللّسانيات، لا إلى اللسان) تتعاقب مختلفةً... كما أنّ التفكير اللّغويّ لم يعد يعني مجرّد الاشتغال بمعرفة الوظائف النحويّة، والقواعد التي تضبط اللّسان، كما قد يتوهّم بعض الجامعيّين العرب الذين أمسى اللّغويُّ منهم يأبَى الاشتغال بالنّصّ الأدبيّ، في حين أنّ المشتغل بالأدب يجهل اللّغة!... ولكنّه أمسى مجالاً إنسانيّاً عامّاً مطروحاً للتفكير من قبل الفلاسفة واللّغويين والنقاد جميعاً، وذلك على أساس أنّ اللّغة هي مفتاح المعرفة...

فلا عجب أن نجد مفكّرةً لغويّة في مكانة جوليا كرستيفا تحرص على أن لا يفوتها في مسيرتها العلميّة التوقُّفُ لدى اللّغة من حيث هي نسيجُ كلامٍ يجسّد أفكاراً متخيَّلةً إن كانت إبداعاً، وأفكاراً مقرَّرةً إن كانت فكراً...

والحقّ أنّ اللّغة التي تريد إليها، ويبدو ذلك من خلال عنوانها، ليست اللّسان (La langue)، ولكنها اللّغة الخاصّة التي يتّخذها كلّ كاتب في كتابته، أي (Langage, language)؛ فالجاحظ، مثلاً، حين يكتب يغترف من اللّسان (ينسج كلامه مما ورد في المعجم العربيّ من ألفاظ، ويحترم نظام اللّغة من حيث نحوُها، وتراكيبُها المألوفة في تقليد الخطاب العربيّ...)، ولكنّه يطوّع ألفاظاً من اللّسان فيتّخذها له ليعبّر بها عن أفكاره، وليجسّد من خلال تجلّيها آراءه... فاللّسان عامّ، واللّغة خاصّة. فضمن اللسان الواحد نجد الكتّاب يتّخذون لغاتهم التي يُعرفون بها، فاللّغة بهذا المعنى تقترب من الأسلوب، لأنّها تمثّل مجموعة النّسوج اللّغويّة الفنّيّة...

غير أنّ ذلك كلّه لا يعني أنّ اللّغة تخرج من جِلْدها فتبتعد عن سلطة اللّسان، بل هي

جوليا كريستيفا

مجرّد تشكيلات خاصّة تتشكّل ضمن نظامه العامّ.
وأيّاً ما يكن الشّأن، فإنّ جوليا كرِسْتيفا تعقد في كتابها المتحدَّثِ عنه هنا، مدخلاً متألّقاً تتناول فيه جملة من القضايا اللّغويّة ومن ذلك مسألة مفهوم «اللّغة». فبعد أن تطرح الناقدة سؤالاً عن هذا المفهوم وكيف يحدَّد، تجيب أنّ الإجابة عن هذا السؤال تغوص بنا في صميم الإشكاليّة التي ظلّت عبر الأزمنة هي دراسة اللّغة. ذلك بأنّ كلّ عصر، أو كلّ حضارة، واقتضاءً لعامّة القيم التي تشتمل عليها معرفتها، ومعتقداتها، وإِدْيولوجيَّاها، يجيب بخلاف غيره... ولكنّها تثير مسألة في غاية اللّطف أثناء ذلك بإمكان تعويض السؤال: «ما اللّغةُ؟» بسؤال آخر، وهو: «كيف يمكن أن تستحيل اللّغة نفسها إلى حقل للتفكير؟» (وقد بسّطنا سؤال كرستيفا لتيسير الفهم).

ثمّ تتحدّث من بعد ذلك عن الفُرُوق المفهوميّة بين اللّغة، واللسان، والكلمة، والخطاب فتعقد لهذه المفاهيم مبحثاً تحاول من خلاله تحديد هذه الفروق، فترى أنّ اللّغة هي سلسلة من الأصوات المتمفصِلة، ولكنّها أيضاً شبكة من العلامات المكتوبة (إنّها كتابة)، واللّعب بالإشارات. ولكنّنا نلاحظ، وإن رَغِمَتِ أنوف الذين يَغُضّون من التراث العربيّ الإسلامي، أنّ ابن جنّي كان في مطلع كتابه «الخصائص» عرّف اللّغة بما يقترب من تعريف كرِسْتيفا، وهو أنّ اللّغة «أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم». كما ميّز، ومن قبله، سيبويه، بين القول والكلام فذهب إلى أنّ «كلّ كلام قول، وليس كلّ قولٍ كلاماً»...

وتتساءل المنظّرة من بعد ذلك عن العلاقة بين الصوت، والكتابة، والإشارة. كما تتساءل عن الغاية من وراء الاختلاف بين هذه المفاهيم، وما ذا يتولّد عن ذلك؟ وتجيب بأنّ اللّغة تضع أمامنا مثل هذه المشاكل بمجرّد أن نَمَسَّ حالةَ كينونتِها. ومن أهمّ ما تلاحظه الكاتبة أنّ اللّغة ذات بعد مادّي (الصوت المسموع، الحرف المكتوب إلخ...)؛ وهذه المادّيّة الماثلة فيها هي التي تُنتج وتعبّر، أي تبلّغ ما نطلق عليه التفكير. أي أنّ اللّغة هي الوجه الوحيد الحقيقيّ للتفكير، وحقيقته، وإنجازه. وتعيد إثارة القضيّة التقليديّة في مجال التفكير اللّغويّ فتقول: «ما أكثرَ ما أُثِيرَ السّؤال عن معرفة ما إذا كانت توجَد لغة دون تفكير، أو تفكير دون لغة». وتجيب إجابة قاطعةً عن استحالة التفكير خارج اللّغة.

كما تعترض كرستيفا على السؤال الكلاسيكيّ المثار حول المسألة اللّغويّة وهو: «ما الوظيفة الأولى للّغة: أهي تلك الماثلةُ في إنتاج التفكير، أم هي الماثلة في إنتاج التّبليغ؟»، فترى أنّه لم يعد من المقبول إعادة إثارة هذا السؤال، لأنّه لا يقوم على أساس سليم. ذلك بأنّ اللّغة هي كلّ ذلك جميعاً في الوقت ذاته، إذ لا يمكن أن تجتزئ بإحدى الوظيفتين دون إحداهما الأخرى.

وكأنّها تعترض، من طرْف خفيّ، على نظريّة التبليغ القائمة على التركيبة السداسيّة عند رومان ياكبسون والقائمة على أنّ هناك مرسِلاً ومستقبِلاً وبينهما رسالة تجمع بينهما... بل ترى أنّ كلّ متحدِّثٍ هو في الوقت نفسِه مرسِلٌ ومستقبِلٌ لرسالته الكلاميّة؛ ذلك بأنّه جدير بأن يُرسل رسالةً وهو يفكّ معانيَها، وهو من حيث المبدأُ لا يرسل شيئاً يمكن فكُّهُ. وهكذا فالرسالة المقصودُ بها السِّوَى، هي، بمعنًى، موجَّهةٌ، قبل كلّ شيء، إلى الذي يتحدّثها؛ فهو يتحدّث إلى نفسه، مع نفسه. وبذلك أضافت إلى خطاطة العلاقة بين المرسل والمستقبل وظيفةً جديدةً بحيث يغتدي الإرسال مركَّباً يقوم على أنّ المرسلَ هو في الوقت نفسه مستقبل لرسالته...

والحقّ أنّ إثارة هذه المسألة الدّقيقة اللّطيفة هي على غاية من الأهمّيّة، ذلك بأنّ الذي يتحدّث إلى غيره؛ فهو قبل أن يفعل ذلك، يكون قد فكّ شِفْرة الرسالة التي يودّ توجيهها إليه في لحظة تبلغ سرعتها حدّ الذهول... وببعض هذا يضاف عنصر جديدٌ في نظريّة التّبليغ بحيث يغتدي المرسلُ إلى غيره في التنظير المألوف، مرسلاً إلى نفسه من نفسه، قبل أن يرسل رسالته إلى غيره...

ولقد كنّا نحن، بتواضع، أثرنا هذه المسألة في نظريّة الكتابة (الكتابة من موقع العدم، كتاب الرياض) المرسلة في صورة رسالة أدبيّة، بحيث إنّ الكاتب قبل أن يكتب اللّغة الفنية التي يَمْتَحها من قريحته لقارئه، فيبلّغه إيّاها: قبل ذلك يقرأ هو بعدُ تلك الرسالة كما يتلقّفها من قريحته التي تكون هي أيضاً تلقّفتْها من حالة السديم...

ولذلك نجد في الحكمة العربيّة التي يتداولها الخلف عن السلف أنّ العاقل لا يُفْضِي بشيء من الكلام (بـ«رسالة» بالتعبير الجديد) إلاّ بعد أن يكون قد فكّر هل هي رسالة ضارّة لغيره، أو لنفسه...؟ أي أنّ المرء يزوّر، كما يعبّر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يوم السقيفة، في نفسه كلاماً قبل أن ينطق به... فهو يتلقّى، من هذا المنظور، رسالةً عن نفسه، تظلّ مجهولة لدى المستقبل أو المتلقّي، إلاّ حين يصوغها في لغة يرسلها إليه.

والحقّ أن المساحة المخصصة لهذه المقالة لا تسمح بإثارة كلّ الأفكار التي طرحتْها في مدخل كتابها فكيف بصلبه؟ ولذلك نرجو، كما ألفنا أن نصوغ هذا الرجاء كلّما قرأنا كتاباً ذا شأن كُتب بلغو أجنبيّة، أن ينقل كتاب جوليا كرستيفا إلى اللّغة العربيّة لِما يشتمل عليه من معرفة رصينة، وتفكير عميق حول المسألة اللّغويّة التي نعدّها مسألة جوهريّة في مسارَيِ المعرفة والتفكير.

مسجد الشارقة الكبير

أيقونة معمارية جديدة تتربع على عرش عاصمة الثقافة الإسلامية "الشارقة"، هذا الصرح المعماري المهيب، الذي افتتحه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى، حاكم الشارقة في الجمعة الأولى من شهر رمضان عام ١٤٤٠ والموافق ١٠ مايو ٢٠١٩.

استغرق بناء المسجد خمس سنوات وبتكلفة بلغت ٣٠٠ مليون درهم إذ تصل مساحته الإجمالية إلى ٢ مليون قدم مربعة مع الحدائق الخارجية، ويحتل موقعاً استراتيجياً حيوياً، على شارع الإمارات. يتسع المسجد في الداخل والخارج لنحو ٢٥٫٥ ألف مصل، موزعين على أكثر من مساحة وفضاء، ففي داخل المسجد هناك مساحات لاستقبال أكثر من ٥ آلاف مصل منهم ٦١٠ للنساء، أما الرواق الأمامي والأروقة الجانبية، فترحب بأكثر من ٦ آلاف مصل، في حين تتكفل الساحة المفتوحة باستقبال ١٣٫٥ ألف مصل.

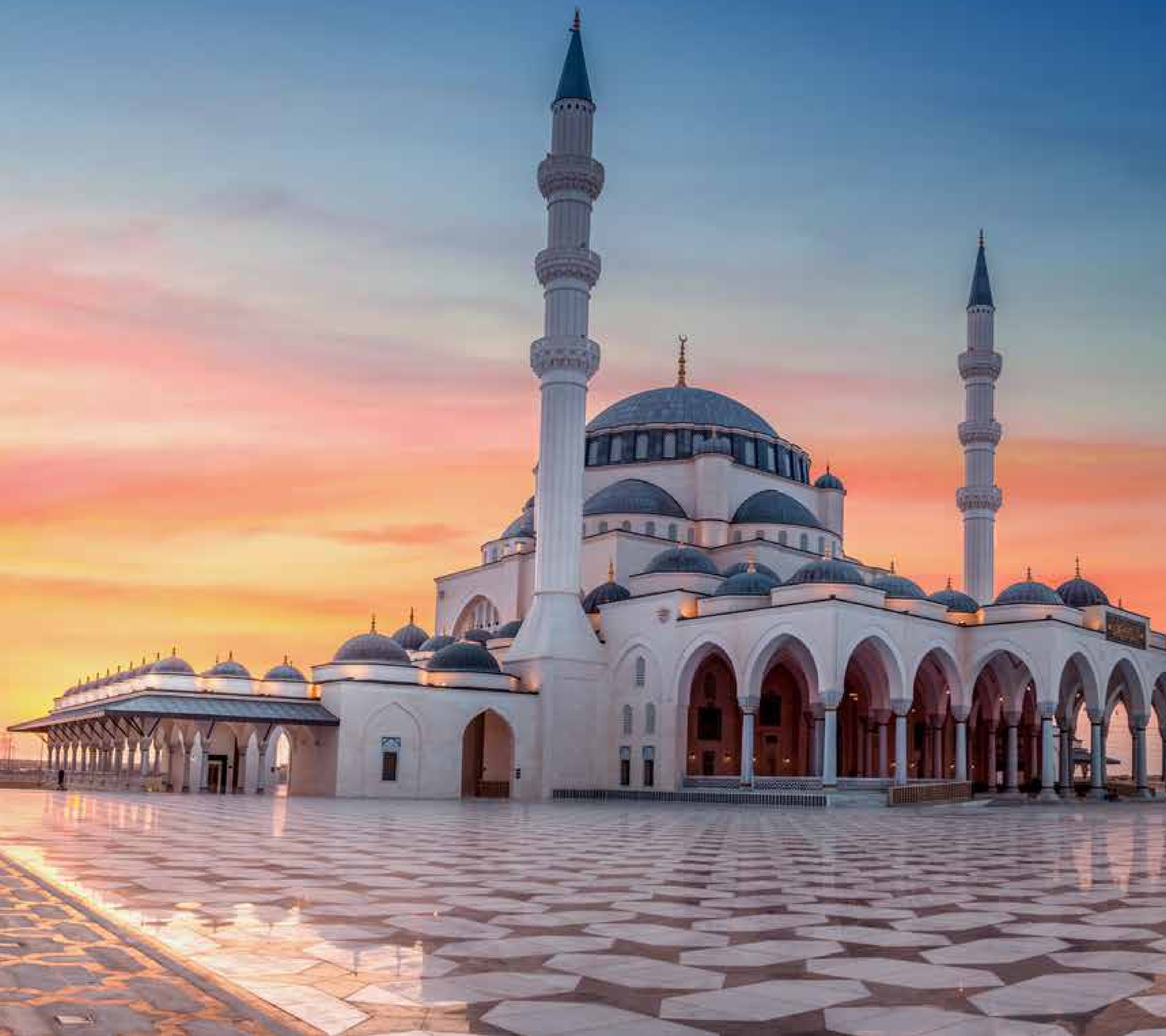

مدحٌ ولكن مشتركٌ لفظيٌّ

د. مصطفى البحيرة الأزهريّ

الحمد لله الّذي فَضَّلَنا بِلُغَةِ الضّادِ، والصّلاة والسّلام على خير العبادِ، وعلى مَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم المعادِ.

وبعد؛ فإنَّ النّظرَ في المصادرِ والمراجعِ، وما فيها مِنْ عجائبِ التّأليفِ، وبدائعِ التّصنيفِ، وروائعِ المقاصدِ، ومحاسنِ الفوائدِ يَصنعُ الملكاتِ، ويَصْقُلُ العقليّاتِ؛ إذِ المعرفةُ أركانٌ ثلاثٌ.

قُلْتُ: مَصادرُ والمراجعُ والمناهجُ
كَـذا الملَكـاتُ أركـانُ العلوم

قـالَ مشـايخُنا الفُضَـلاءِ في أركانِ المعرفـةِ: لابُدَّ في المعرفة مِنْ كُتُبٍ صِحاحٍ، وأستاذٍ فتّاحٍ، وعَقْلٍ رَجّاحٍ، وطَلَبٍ وإلحاحٍ، ويُضافُ لهذا مُقَوِّمٌ آخر لهُ ما لَهُ مِنْ عظيمِ الفوائدِ، وبديعِ الفرائدِ، وتقريبِ البعيدِ، ألا وهو لقاءُ الفُضَلاءِ مِنْ جِلّةِ العلماءِ.

العِلْمُ زَرْعٌ والتّأَمُّلُ ماؤُهُ
والذِّهْنُ أرضٌ والمعلِّمُ زارِعُ
والبَحْثُ فيه شَمْسُهُ وسَماؤُهُ
وَلِقاءُ أَهْلِ الفَضْلِ فيهِ نافِعُ

لَفَتَ نظري وسَرَّ خاطري بعضُ قصائدِ المديح؛ فَتَساءلْتُ هَلْ هذا المديحُ مقصودٌ لذاتِهِ؟ واضحُ المعالمِ، بَيِّنُ العبارةِ، أَمْ مديحٌ تطوَّرَ في الدّلالةِ، وموجَزٌ في الإشارةِ، ضَرَبَ ناظمُهُ عصفورَينِ بحَجَرٍ واحدٍ؛ فالحَجَرُ هنا مصطلحُ المدحِ، والعُصْفوران: ثناءٌ على الممدوحِ، وعَرْضٌ لظاهرةِ المشتركِ، وهذا النّوعُ مِنَ التّأليفِ غايةٌ في الجمالِ، وروعةٌ في المقالِ، وبَراعةٌ في النَّظْمِ، وتَفَنُّنٌ في القَولِ، يُنقِذُ الشُّعراءَ مِنْ عيبِ الإيطاءِ[١]، ويُسعِفُ النّاسَ في صَنعةِ الجناسِ، ويُفيدُ المحرّرينَ مِنَ المعجميّينَ، وما هو عَنْ معجَمِ الشّارقةِ بِبَعيدٍ.

وقد جعلْتُ هذا البحثَ في مقدِّمةٍ بَيَّنْتُ فيها إشكالَ البحْثِ وغايةَ الموضوعِ، ومطلبَين:

وهُما: المدْحُ والمشترَكُ لُغَةً واصْطِلاحًا، وعينيّةٌ في مَدْحِ خيرِ البَرِيَّةِ.

أوّلًا: المدْحُ والمشتركُ اللَّفظيُّ لغةً واصطلاحًا:

المدحُ لغةً: وصفُ محاسِنٍ بكلامٍ جميلٍ. ومَدَحَهُ يمدَحُهُ مَدْحًا: أَحْسَنَ عليه الثّناءَ[١].

واصطلاحًا: الثّناءُ باللّسانِ على الصّفاتِ الجميلةِ، خلقيّةً كانت أو اختياريّةً[١].

والمشترك لغةً: يدلُّ على مقارنةٍ وخلافِ انفرادٍ، ويدلُّ على استقامةٍ وامتدادٍ، ومقصودُنا الأوّلُ وهو أنْ يكونَ الشَّيءُ بينَ اثنينِ لا ينفرِدُ بهِ أحدُهُما. ويقالُ: شاركتُ فلانًا في الشّيءِ، إذا صِرْتُ شريكَه[١]، واصطلاحًا: عرَّفَهُ القرافيّ بقولِه: المشترَكُ: هو اللّفظُ الموضوعُ لكلِّ واحدٍ مِنْ معنيينِ فأكثرَ كالعَينِ[١].

تناولَ علماؤنا الأفذاذُ مشتركَ الألفاظِ في فنونٍ مختلفةٍ، وهو ذو قضايا ومسائلَ، يَضيقُ المقامُ عَنْ بَسْطِ الكلامِ، وما قيلَ فيه عَنِ الأعلامِ، مِنْ مَثاراتِ الأَحْكامِ، وقضايا علْمِ الكلامِ، وأثَرِهِ في الأفْهامِ، فَقَدْ تناوَلَهُ اللُّغويّونَ تحتَ مُسمّياتٍ مختلفاتٍ، والأصوليّونَ في أبوابِ الدّلالاتِ، والمناطقةُ في نسبةِ الألفاظِ للمعاني، والمفسّرونَ في الوجوهِ والنّظائرِ، ولِكلٍ وِجْهَةٌ هو مُولّيها. فانظُروا الأهدافَ، وميِّزوا الفروقَ وتأمَّلوا– وفَّقَني اللهُ وإيّاكم– قَولَ ابنِ السَّيِّدِ البطليوسيّ(ت٥٢٢هـ) في إنصافِه، أو تنبيهه[١] «المشتركُ ثلاثةُ أنواعٍ: اشتراكٌ في موضوعِ اللّفظةِ المفردةِ، واشتراكٌ في أحوالِها الّتي تعرِضُ لها مِنْ إعرابٍ وغيرِه، واشتراكٌ يوجِبُه تركيبُ الألفاظِ وبناءُ بعضِها على بعضٍ[١]».

تَجِدونَ مَثارَ الخلافِ في الأحكامِ وعِلْمِ الكلامِ، وأمّا حديثي في هذا المقامِ، فهُوَ بيانٌ لجَمالِ الكلامِ، وإشارةٌ لِتَطوُّرِ المصطلحِ، وتأمّلاتٌ في روائعِ اللّغةِ.

ويـنْظُـرُ القـائلـونَ بـالاشْـتِراكِ مِـنْ أهـلِ اللُّغـةِ إلـى أنَّـهُ وعـاءٌ للمعانـي الّتـي لا تَنْحَصـرُ وهـو مظهرٌ مِنْ مظاهِرِ الاتّسـاعِ، وكَتَبوا تحت مسمّى، ما اتّفق لفظُه وما اختلف معناه، وتارة تحت مسمّى المداخل.

ثانيًا: عينيَّةٌ في أمدوحة خير البريَّة: للعلّامة أحمد السّجاعيّ (ت١١٩٧ه) يذكر كلمة عينٍ في القوافي ولها معنًى مختلفٌ جعَلْتُه بين قوسَين.

أيا ظبيَ الفَلا وَكَحيل عَيْـن
وَيا بَدْرَ الدُّجى وضِياءَ عَيْنِ (الشَّمس)
حُمِيتَ مِنَ المكارِهِ يا غَـزالًا
حَوى كُلَّ الكَمالِ بدون عَيْــنِ (العيب)
مَلَكْتَ القلْبَ منّي يا حبيبي
وحقّ المصطفى المجرى لِعَينِ (الماء)
دَعانا لِلْهِدايَةِ نعْمَ طَه
رَسولٌ قَدْ أَبانَ لِطُرقِ عَيْنِ (القبلة)
أمينٌ سَيِّدٌ ما فيه شَكٌّ
بِهِ تُهْـدى الأَنامُ بِكُلِّ عَيْنِ (النّاحية)
لَهُ ذاتٌ خَلَتْ مِنْ كُلِّ سوءٍ
وقَلْبٌ قَدْ خَلا مِنْ شَيْنِ عَيْنِ (الرّياء)
سَـما فَوْقَ السَّماءِ ونالَ قُرْبًا
وخاطَبَ رَبَّهُ وحَظى بِعَيْنِ (النّظر)
جَميلُ النَّفْسِ والأَفْعالِ قَطْعًا
صَفِيٌّ خالِصٌ مِنْ قُبْحِ عَيْنِ (اللَّيل)
عَلا رُتَبًا فَلَيْسَ لها انْتِهاء
وَأَظْهَرَ دينَهُ لخيارِ عَيْنِ (الجماعة)
رَؤوفٌ بِالعِبادِ رَحيمُ قَلْبٍ
عَظيمُ القَدْرِ سيّد كُلِّ عَيْنِ (الكبير)
كريمٌ مُنْتَقًى بحْرُ العَـطايا
فَكَمْ مَنَحَ الأَنامَ جَزْلَ عَيْنِ (المال)
خَليلُ اللّٰهِ أَحمَدُ ذو كَمالٍ
مُجيرُ النّاسِ مِنْ لَحْظٍ بِعَينِ (المطر)
رحيمٌ بِالعِبادِ سريعُ بَأْسٍ
على قَوْمٍ لِئامٍ مِثْلَ عَيْنِ (الطّائر)
كبيرُ القَدْرِ فى الدّارَينِ حَقًّا
مُغيثُ النّاسِ مِنْ حَرٍّ لَعِينِ (شعاع الشَّمس)
رَسولَ اللّٰهِ أَنْتَ لنا مَلاذٌ
لَنا فيكَ الرَّجا يا نَسْلَ عَيْنِ (الخيار)
فَكَمْ صَرَفْتَ عَنّا مِنْ كُروبِ
بِدُنْيا ثُمَّ أُخْرى عَمْدَ عَيْنِ (الجدّ واليقين)
لِخَلْقُكَ مبدأُ الأشياءِ حَقًّا
حبيبي أَنْتَ أَوَّلُ كُلِّ عَيْنِ (الشّيء)
عَليكَ اللّٰهُ صلّى مَعْ سَلامٍ
أُصولُكَ مِثْلَ ذا مَنْ هُمْ كعَيْنِ (الذَّهَب)
وآلٌ ثُمَّ أَصْحابٌ جميعًا
فَهُمْ بَذَلوا لِدينٍ كُلَّ عَيْنِ (الدُّنيا والنّفس)
وكَمْ قَضَبُوا بِسَيْفِ اللّٰهِ رَسًّا
مِنَ الأعداءِ وكَمْ قَهَروا لِعَيْنِ (الشَّديد)
وكَمْ أَحْيا بِهِمْ رَبّي عُلومًا
مُغَيَّبَةً ومنها ذات عَيْنِ (الحضور)
كَذا أَتْباعُهُمْ ما قالَ عَبْدٌ
أَيا ظَبْيَ الفَلا وكَحيلَ عَيْنِ (العين الجارحة)

رقَّـــةٌ تَـتْـرَى

لِلشاعر / خالد مصطفى

يَا حَيَاتِي أَنْتِ ذَاتِـي فَاعْلَمِي   كُلُّ حَرْفٍ مِنْكِ يَجْرِي فِي الدَّمِ
جَاهِلٌ مَنْ لَا يَرَى فِيكِ الضُّحَى   أَنْـتِ شَمْسٌ وَهْـوَ غَـاوٍ أَوْ عَمِي
يَـا صَـفَـاءً وَرَوَاءً لِـلـنُّـهَـى   أَنْـتِ عِـطْـرٌ وَشَـذَاهُ فِـي الْـفَـمِ
نُورَ دَرْبِـي ذَاكَ قَلْبِي مِنْ هَوًى   كَـادَ يَـهْـوِي وَهْـوَ بَيْنَ الْأَنْـجُـمِ
يَـبْـتَـغِي أَنْ تَـلْـثَـمِيـهِ نَغْمَـةً   مِنْ شِفَاهِ الْأَسْـرِ لَبِّي وَالْثَمِي
كُلُّ مَنْ فِي الْأَسْـرِ يَرْجُو فَكَّهُ   وَأَنَـا أَهْـوَى قُـيُـودَ الْـمِعْـصَمِ
لُـغَـتِـي سَـاحِـرَتِـي أَحْـبَـبْـتُـهَـا   نَبْضُهَا فِي عُمْقِ قَلْبِي مُلْهِمِي
لَفْظُهَا نَغْمٌ يُرِيحُ النَّفْسَ، فِي   حَرْفِهَا سِحْرٌ، رِضَاهَا مَغْنَمِي
قِـيلَ عَـنْـهَـا إِنَّـهَـا تَـهْـوِي بِنَا   تَـحْـتَ قَبْـوٍ فِـي طَـرِيـقٍ مُظْلِمِ
لَيْسَ فِيهَا غَيْرُ لَفْظٍ جَامِدٍ   لَمْ يَعِشْ، قَدْ مَاتَ بَعْدَ الْمَهْرَمِ
ذَاكَ سُـمٌّ مِـنْ لُـعَـابِ الْمُدَّعِي   نَـارُ حِـقْـدٍ فِـي فَحِيحِ الْأَظْـلَـمِ
لَوْ يُقَالُ الْيَوْمَ تَشْكُو ضَعْفَهَا   فَانْظُرُوا هَـذِي كُنُوزَ الْمَنْجَمِ
هَلْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ جِذْرٍ مُمْطِرٍ   بِالْمَعَانِي فِي حُقُولِ الْمُعْجَمِ؟
وَاسْأَلُوهَا: مَنْ عَلَيْهَا قَدْ جَنَى   وَالْـجَـنَـى فِيهَا دَنَـا لِلْمُقْدِمِ؟
لَـيْـسَ فِيهَا أَيُّ ضَـعْـفٍ، إِنَّـمَـا   قَدْ يُضِيعُ الشِّبْلُ مُلْكَ الضَّرْغَمِ

الكتابات والمعاجم العبريّة - العربيّة الوسيطية
والمعجم التّاريخيّ للغة العربيّة

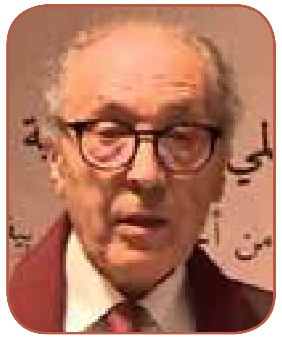

أ. د. أحمد الشّحلان

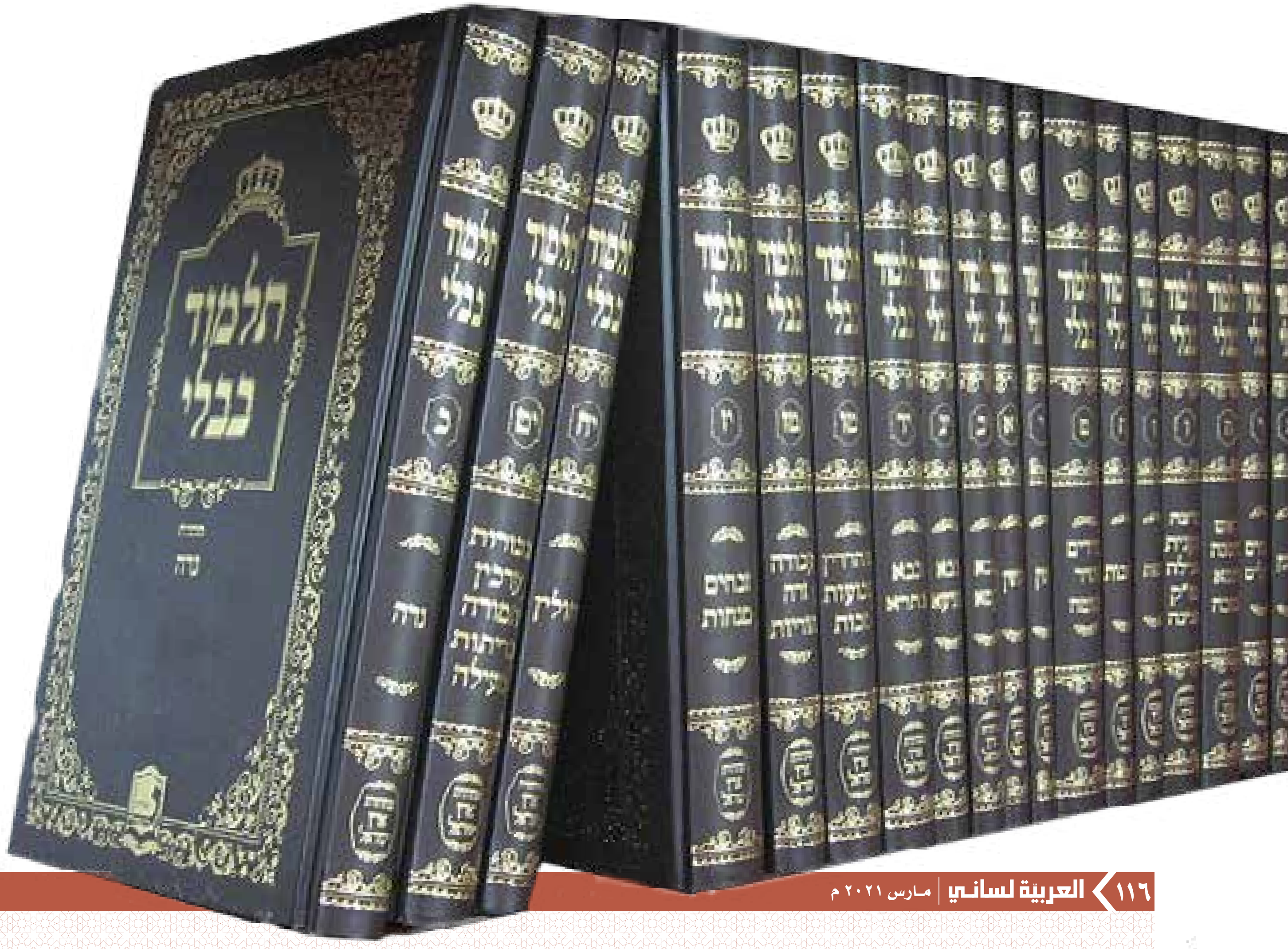

المعجم التّاريخيّ للغة العربيّة الذي أينعت ثماره اليوم بحمد الله هو:

مدونته: نقوش، مسكوكات، مخطوطات مطبوعات

زمانه: من أقدم النّقوش وما خُطّ في النظائر السّاميّة

الجهود: مئات من الباحثين والمجمعيّين والإداريّين.

سنده: ركيزة سياسيّة معنويّة مطبوعة بالطّابع الأكاديميّ، وفّرت له من المال والعناية ما سهّل الطّريق وأوصل المجهود إلى غاية المنتهى.

هذه الصّفة وهذه الجهود.

فما علاقة موضوعي بهذا العمل المعجميّ الجبّار؟

أتحدّث في إسهامي هذا عن مدوّنة لغويّة عربيّة لم تدخل ضمن مادة المعجم التّاريخيّ للغة العربيّة، مدوّنة عربيّة غير أنّها حُررت بحرف عبريّ، وهذا هو سبب غيابها. إنها المدوّنة العربيّة المكتوبة بالحرف العبريّ، فنقول:

المعارف اليهوديّة قبل الإسلام: تمحورت المعارف اليهوديّة قبل الإسلام حول العلوم الدّينيّة ودراسات لغويّة محدودة، ولا يسمح المجال بتوسيع القول في هذا.

المعارف اليهوديّة بعد الإسلام: تغيَّرَ وضْعُ اليهود مع ظهور الإسلام، وَسارَ الفكرُ العِبْريّ اليهوديّ على امتداد الإمبراطوريّة الإسلاميّة، على خُطى مسار الفكر العربيّ الإسلاميّ، لاشتراك الأصول والأرومة، ولاعتماد أصول الوحي، وانفتاح المجتمع الإسلاميّ، على كلّ مكوّناته كيف ما كان مُعتقدها في العهود الزّاهرة من حضارته.

إذن اتّبعَ مسارُ الفكر العبريِّ اليهوديِّ في عهود الإسلام، نفسَ خطى العلم العربيِّ الإسلاميِّ في كثير من تفاصيله. كان انطلاق الفورة العلميّة الإسلاميّة من النّص المقدّس، حيث دعا فَهْمُ الرّسالة إلى فَهْم اللّغة وما خلْفَ اللّفظ، فَظَهَرَ علمُ التّفسير بداية، فعلم النحو، فالتّعجيم، فعلوم نظم الكلام في علوم البلاغة وعلم الحديث، فعلومٌ أخرى كعِلْم الأصول والفقه وعلْم المواريث فعلم الكلام والفلسفة فالعلوم الحقّة. والمتأمّلُ في تاريخ الفكر الإسلاميّ، سَيَجِدُ في القرآن وفرائض الإسلام والحديث، المصدرَ الأوّل لعِلْم الكلام، ومنه الفلسفة والتّاريخ، والجغرافيا وعلم العدد، والهيئة والفلك والطّبّ.

لم تستطع اليهوديّة في أرض الإسلام أنْ تعزل نفسها عن هذه الدّفعة الفكريّة الإسلاميّة الهائلة. ولأنّ القرآن كان مُنطلَقَ المعارف في الإسلام، فإنّ العهدَ العتيق سيكون هو أيضًا عند يهود البلاد الإسلاميّة، أُسَّ معارفهم، حوله تدورُ البحوث والاجتهادات، فصياغتُه لغةٌ راقية، ومضمونُه تشريعٌ وتاريخ، وفَهْمُهُ يستوجبُ استنادَ الفكرِ والعقل. ومن هنا انطلقت الدِّراساتُ اليهوديّةُ لدى يهودِ بِلادِ الإسلام، من منطَلَقٍ فكريٍّ استند فيما استند عليه نصّ العهد العتيق (التّوراة) وعلم الكلام الّذي تتلمَذَ فيه اليهودُ على أعلامِه المسلمين، وتأثّرَتْ مناهجُه بمَناهجهم، وبلُغَةٍ عربيَّةٍ لابُدَّ أن تصيرَ هي لغة التّوراة.

عنونا هذه المداخلة بالكتابات والمعاجم العبريّة العربيّة الوسيطيّة والمعجم التاريخي للغة العربيّة

فمقصودنا إذًا بالكتابات، هي كلّ العلوم والمعارف العربيّة الإسلاميّة المشار إليها أعلاه، أي علم الكلام والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وعلم العدد والهيئة والفلك والطّبّ والتّصوّف والأدب وفنّ المقامة والنّقد الأدبيّ وغيرها. فقد ألَّفَ يهود الحضارة العربيّة الإسلاميّة في شرق الإسلام وغرْبِه، في العصر الوسيط، مؤلّفاتٌ مهمّة باللّغة العربيّة في كلّ هذه، غير أنّها كتبت بالحرف العبريّ، فَظَلَّتْ محجوبةً عن قرّاء العربيّة، وبهذا لمْ تَجِدْ لها مكانًا، على أهمّيتها، في خطاطة مدوّنة المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة. ولا يسمح الوقت بالتّفصيل في هذا، لذلك ننتقل للحديث بإيجاز إلى التّآليف التي لها صلة بعلْم المعاجم. وأقصد بذلك المؤلّفات المعجميّة العبريّة العربيّة، الّتي من المفروض أنْ تكونَ لها مكانتها في هذا المعجم، وهي مكتوبة في معظمها باللّغة العربيّة، غير أنّ حرفها عبريّ، أخفاها عن أعين الباحثين.

كتب اللغة والمعاجم: ظهرتْ أوائلُ المعاجم العبريّة في القرن التّاسع الميلاديّ في الشّرق الإسلاميّ. ومنها معجمٌ في لُغَةِ التّلمود ألّفَهُ الربيّ صمح بن بلوطي من علماء القرن التّاسع الميلاديّ، ومعجم في «تفاسير الفقهاء لكتاب الطّهارة» المنسوب لشمعون قيارا في نهاية القرن التّاسع. تتبّع مؤلّف هذا المعجم الاستعمالات اللغويّة المختلفة، مقارنًا بين لغة التّوراة والتّلمود

والمشنا والترگوم والعربيّة. كما شرح فيه كلمات من اليونانيّة والفارسيّة. فهو إذًا أول كتاب لغويّ مقارن.

ثمّ وضع سعديه ڳؤون الفيّومي، الّذي ولد في مصر (٨٨٢-٩٤٢م)، مُعْجَمَين، أحدهما الإگرون (الجامع)، وهو كتاب خصّه لِلُغة الشّعر. إذ قسّمه قسمين: قسمًا رتَّبَ فيه اللّغة ترتيبًا ألف بائيًّا، وقسمًا رتّب فيه القوافي على نفس الطّريقة.

والمعجم الثّاني هو كتاب السّبعين لفظة، وهي الألفاظ الّتي وردت مرّة واحدة في التّوراة. وقد فسّر هذه الألفاظ بلُغَة علماء التّلمود. كما استعمل اللّغة العربيّة في تفسيره لغوامض الكتاب المقدّس.

ومن مُعْجَميّي الغرب الإسلاميّ يهودا بْنُ قريش الطاهرتيّ (نسبة إلى طاهرت في الجزائر) (القرن التّاسع -العاشر الميلاديّين). وضَعَ «معجمًا» كان عبارة عن رسالة بَعَثَها إلى يهود فاس. وأراد مِنْ عملِه هذا تنْبيه هؤلاء إلى أهميَّة استعمال الآراميّة التّوراتيّة، فبيَّنَ لهم أنَّ التّوراة تحتوي عديدًا من اللّغات وكلّها مُقَدَّس. وجاء في معجمه هذا بكثير من الآراميّة والعربيّة واللاّتينيّة والأمازيغيّة (الرّسالة).

المقارن الأول: أبو الوليد مروان بن جناح: أشهر وأهم معجميّ اليهود في الغرب الإسلاميّ، وُلِدَ بقرطبة في آخر القرن العاشر الميلاديّ. وله مؤلّفاتٌ متعدِّدةٌ مِنْ أهمِّها «كتاب التّنقيح»: المقسم إلى قسمَين: أحدُهما خصَّهُ بعِلْم النّحو وسمّاه اللّمع. والثّاني بالمعجم وسمّاه الأصول. ألَّفَ الكتاب بلُغَة عربيّة غير أنَّه كتَبَهُ بالحرف العبريّ.

يذكر المؤلّف في مقدّمة النّصّ أنّه يريد في عَمَلِه هذا أنْ يعجم ما وقَعَ بين يديه مِنْ لغة «المقرا» (العهد العتيق) ويُبيّن: «مِنْ تصاريفها ويشرحُ مِنْ غَرَضِها ما تدعو الحاجة إلى تبيينه وشرحه». وتحدّث أيضًا عن استعماله للحروف «ف.ع.ل.» وزنًا لمشتقّات الكَلِم، وهو عملٌ انفرَدَ به عن غيره من النّحاة، تقليدًا للنّحو العربيّ مع أنَّ هذا القالَب غير سليم بالنّسبة للغة العبريّة. وأثار مشكل الجذر الثّلاثيّ الّذي جاء في صورة جذر ثنائيّ لتشابه عينه ولامه، أو لأنّه أجوف، وبيَّنَ صعوبة درس هذا النّوع من الجذور. ثمّ تحدّث عن تقسيم الكتاب إجمالًا، فقال إنّه قسّمه إلى اثنين وعشرين مقالة على عدد حروف المعجم بترتيب ألف بائيّ، وأنّه انفرد بهذا العمل.

تتبّعنا منهج ابن جناح في الشّرح والتّفسير والتّحليل فكانت نتيجة ملاحظاتنا ما يأتي:

شرح ابن جناح ألفين ومائة وثمانية وأربعين جذرًا من أصول التّوراة، في صِيَغِها وتراكيبها وأبْنِيَتِها ومرادفاتها. فَسَّرَ منها مائتين وتسعة أصول باللّغة العربيّة وكان منهجه في هذا كالتّالي:

– تفسيرُ لَفْظ بلَفْظ آخر عربيّ يدلُّ على نفس المعنى، وهما متشابهان صوتًا.
– تفسيرُ لَفْظ بلَفْظ آخر عربيّ يدلُّ على نفس المعنى ويختلفان صوتًا.
– تفسيرُ لَفْظ بلَفْظ آخَر تعدَّدَتْ معانيهما وتشابهتْ وهُما متشابهان صوتًا.
– تفسيرُ لَفْظ بلَفْظ آخر تعدَّدتْ معانيهما واختلفا صوتًا.
– تفسيرُ استعمال مجازيٍّ بآخَر مجازيّ.
– تبيانُ ما يَقَعُ في اللّفظ العبريّ، بشَبيهه في لَفْظ عربيّ يخالفه صوتًا أو يشبهه، وذلك في إعلاله وقلب حروفه وإبدالها، وحذف بعض منها وإدغامها.
– تفسيرُ لَفْظ يدلُّ على عاداتٍ عبريّة بآخَرَ مخالفٍ له صَوتًا، ويدلُّ على نفس العادات العربيّة.
– التَّفسير بالقِيَم، مثلًا عند تفسيره **כבר זהב**: (كفر زهف) بذرة، قال: «والبـــذرة العبرانيّة ثلاثة آلاف مثقال عبرانيّة، فتَكون عشرة آلاف مثقال عربيّة».
– تفسيرُ القليلِ النّادرِ في العبريّة بالقليل النّادر في العربيّة.
– تفسيرُ اللُّغات في العبريّة باللُّغات في العربيّة مثل **זו** (زو) الّتي تعني الإشارة غير أنّها تستعمل موصولًا، يقول: «وتقول العرب ذو سمعت به بمعنى الذي سمعت به».

وقد أتى ابن جناح في تفسيره هذا بكثير مِنْ لُغَة العرب واستعمالاتها وأقوالها ومجازاتها وغريبها ونادرها ولهجاتها وقليل من الشّعر والقرآن. وأتى كذلك بكثير من الأمثال والمأثورات وأقوال الفلاسفة والتّعاريف الطّبّيّة والعلميّة والعادات واللّهجات.

أمّا لُغةُ ابن جناح العربيّة فهي لغة جيّدة لا أثر فيها من لغته العبريّة، ولم تخرج عن قواعد اللغة العربيّة أو استعمالاتها.

المقارن الثّاني: من معجميّي العصر الوسيط هو أبو إبراهيم إسحاق بن برون السّرقسطيّ الّذي عاش في سرقسطة ومالقة أواخر القرن الحاديّ وبداية الثّاني عشر. ولم يُعرَفْ له إلا كتاب الموازنة بين اللّغة العبرانيّة والعربيّة. ويعتبر عمَلُه فيه امتدادًا لمنهج المقارنة اللّغويّة الّذي ظَهَرَ على يد يهودا بن قريش الطّاهرتيّ، الفاسيّ المغربيّ الّذي عاش في المنتصف الثّاني من القرن التّاسع الميلاديّ.

كَتَبَ المؤلِّف كتابه باللّغة العربيّة وبالحرف العبريّ، على عادة اليهود الّذين كانوا يعيشون في كَنَف بلاد الإسلام. وتناول فيه جانِبَين: جانب النّحو، وجانب المعجم وهو قسم أطول بالنّسبة للباقي من الكتاب. ونَهَجَ فيه المقارنة بين اللّغة العبرانيّة والعربيّة والآراميّة بالدّرجة الأولى. بدأ ابن برون هذا القسم بمقدّمة تحدّث فيها عن منهج تعاور الحروف بين العبرانيّة والعربيّة، أي النّسق المتّبع في تغيير منطوق اللَّفظ بتغيير بعض حروفه مع بقاء معناه. مثال **שלש** (شَلُشْ): ثلاثة. فالغالب في اللّفظ العبريّ الّذي فيه شين أنْ يكون في مقابله العربيّ ثاء. وقد عرض لهذا القانون في جلّ الحروف العبريّة. وسمّى هذا «تعاورًا».

وبهذا النّهج قرَّبَ الأفهامَ إلى الأصول العبريّة الغامضة بعد مقارنتها باللّغة العربيّة، وتبيّنَ له بهذا الفعل سرُّ غموض كثير من المعاني عند المفسّرين اليهود، ذلك أنّهم أغْفلوا سُنَنَ التّطوُّر اللّغويّ، فَخَفِيَ عنهم ما يقع في اللّغات بِسَبَبِ التّنقُّل والجوار وتفرّع المعاني وتحوّل المجاز اللّغويّ إلى حقيقة لغويّة في لغة أخت، مثل «اللّبن» الذي كان يعني «البياض» في اللّغة العبريّة، فأطلق مجازًا في أصل التّسمية على «اللّبن» الّذي هو منتوج البقر في اللّغة العربيّة، فصار بعدها اسمًا «حقيقة» لا مجازًا.

يتضمَّن ما وصلنا من الكتاب ٥٢١ أصلا عبريًا، ويستخرج من مقابلاتها ما يفوق ١٥٠٠ أصل عربيّ. (حوالي نصف الكتاب هو الذي بقي). لا يتسع المقال بالحديث عن منهج ابن برون في كتابه هذا غير أنّ مصادره العربيّة الّتي ذكر بعضا منها تبيّن أهمّيّته في وضع المعاجم، ومن مصادره كتاب العين للخليل (٧١٨-٧٨٦)، والصّحاح للجوهريّ ت١٠٠٣، وتاج العروس للزّبيدي (١١٤٥- ١٢٠٥) والجمهرة لابن دريد (٨٣٧- ٩٣٣) وكتاب النّبات للدّينوري (٨٢٨-٨٩٥) والمجرّد والمُنجّد، لكرّاع النّمل (ت ٣١٦ هـ)، والمقتضب للمبرّد، والجمل للزّجّاجيّ، ومقامات بديع الزّمان الهمدانيّ وابن الأنباريّ.

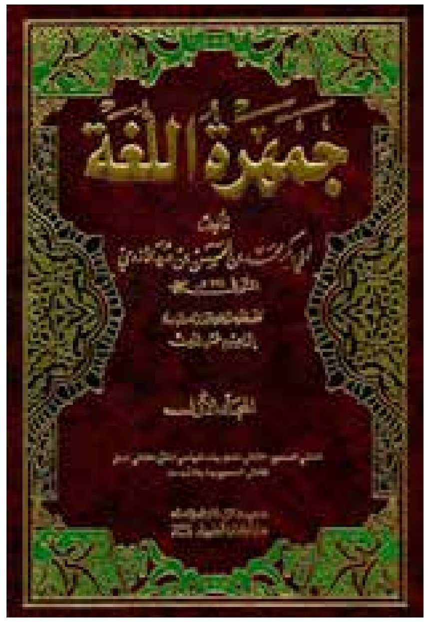

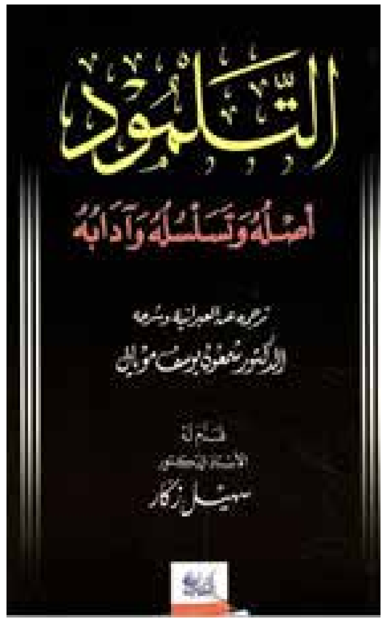

الشّعراء في المؤلَّف: أمّا الشّعراء الذين استشهد بشعرهم: ذو الرّمة، والفرزدق، عنترة، النّابغة، الرّاجز، أبو النّجم، امرؤ القيس، العبّاس بن الأحنف، الممزّق العَبدي، كثيّر عزّة، ابن أبي ربيعة، أبو المقدام البصريّ، قيس بن الملوّح، قيس بن ذُريح، عُروة بن الورد، سحيم بن وثيل، عمر بن كلثوم، المتنبّي، عبد الصّمد بن منصور البغداديّ، أبو النّجم، الكُمَيت بن زيد الأسديّ، أعشى باهلة، المهلهل، زهير بن أبي سُلمى،، عُروة بن حازم، روؤبة، عنترة، الحضرميّ بن عامر، النّابغة، حسّان بن ثابت، قيس بن عامر المنقريِّ، طَرَفة بن العبد، أبو طالب بن عبد المطلب، أبو العلاء المعريّ، الرّيّاشيّ، السّليك بن السّلكة، أبو تمّام، بشّار بن بُرد، ذو الخرق الظّهَري. وشعراء آخرون لم نعثر لهم على اسم. (٥٩ شاعرًا). كما استشهد بالقرآن والحديث. وأورد الكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعيّة في مقارناته.

وعلى الرَّغم من أهميّة كتاب الموازنة في تاريخ التّأليف النّحويّ المعجميّ عند اليهود، فإنّه لم يلق القبول والاهتمام؛ لأسباب منها: أنّ اليَهود إذ ذاك، كانوا يرفضون مقارنة اللّغة العبريّة المقدّسة بغيرها من اللّغات الدّنيويّة. ولعلّ كتاب ابن برون (الموازنة)، أصدق تمثيل لهذا الصّراع اللّغويّ. فقد كانت لهجة المؤلّف الجدليّة واضحة جليّة، عندما أرجع ضعف الفقهاء اليهود إلى جهلهم بمناهج التّحليل اللّغويّ، خصوصًا فيما كان يعتبره عويصًا في لغة التّوراة. وقد قرّب ابن برون الأمور إلى الأفهام بمقارنة الأصول العبريّة الغامضة باللّغة العربيّة، ووضعها في حقل الدّلالة المشتركة، فتبيّن له بهذا الفعل سرُّ غموض كثير من المعاني عند المفسّرين اليهود، ذلك أنّهم أغفلوا سُنَن التّطوّر اللّغويّ، فَخَفِيَ عنهم ما يَقَعُ في اللُّغاتِ بِسَببِ التَّنقُّل والجوار وتفرُّعِ المعاني وتحوّل المجاز إلى حقيقة. وكان من البديهيّ أنْ يرفض الفقهاء اليهود –الذين يتّهمهم لغويّو العبريّة بقلّة الفهم– آراء ابن برون الجريئة الّتي تريد أنْ تجعلَ اللُّغةَ العربيَّةَ مفتاحًا لِفَهْمِ التّوراة، وكان مِنَ البَديهيِّ أيضًا أنْ لا يُعْجَبَ هؤلاء، وقد راموا حَصْرَ فكرَ المتأدّبة اليهود ومتنوّريهم في فلك التُّلمود وتوابعه، كتابًا استشهد فيه صاحبه بالقرآن والحديث وأقوال العرب وشعرائهم، مَنْ كان منهم جاهليًّا أو مُخضرمًا أو إسلاميًّا، وقد استشهد بِشِعْرِ تسعةٍ وخمسينَ شاعرًا عربيًّا.

ومِنَ المعجميّينَ أبو سليمان داود أبراهام الفاسيّ (ق ١٢)، وهو أَحَدُ كبارِ المعجميّين القرّائين، ومعجمه هو " الأگرون" أو كتاب جامع الألفاظ. وقد أسَّسَه على ثنائيّة الجذر، وبناه على مذهب القرّائين اليهود، أيْ الّذين لا يقبَلونَ أصلًا لليهوديّة إلّا التّوراة، ويرفضون سائر كُتُبِها الأخرى مثل التّلمود والمدرشيم.

وتتابعت الحركة المعجميّة، سواء في كتب التّفسير أو في كتب المعاجم الخاصّة، مثل معاجم الأفعال، أو المعاجم العامة، سواء في الأندلس أو في جنوب فرنسا. غير أنّ أسلوبَها ونهجَها قد تغيَّرَ كما تغيَّرت اللُّغة وتغيّر الهدف.

مميّزات المعاجم

١ ـ تأثُّر المعاجم العبرية بالمدارس المعجميّة العربيّة المعروفة آنذاك؛ وذلك إلى أنّ جُلّها، وخصوصًا أمّهات المعاجم، كُتبَتْ بالعربيّة بحروف عبريّة، فإنَّها نهجَتْ نهْجَ المعاجم العربيّة الموسوعيّة، إذْ تنطلِقُ مِنْ ترتيبٍ ألفبائيٍّ لِشَرحِ اللَّفظةِ شرحًا لغويًّا، غير أنَّها تستقرئ نصوصَ التّوراةِ وغَوامِضَها بحثًا عن المعاني المختلفة، مستعملةً وسائلَ الاستنباطِ والاستقراءِ والتّأويلِ والمقابلةِ.

٢ـ نشوء جدل واسع بين الرّبيّين والقرّائين. فقد قامت خصومات مشهورة حول التّأويل القريب والبعيد، لم تخلُ منها كتب الفلسفة والكلام اليهوديّين، مثل كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون. كما ظهرَتْ خصومات أخرى تشبهُ الخصومات الواردة في كتب الخلافِ والمدارسِ الأصوليّة والنّحويّة، منها ما دار حول العقيدة، ومنها ما دار حول عَدَدِ حروفِ الجَذرِ، ومنها ما دار حولَ صلاحيَّةِ الاستشهادِ بالعربيّة.

٣ـ ظهور المقارنات اللُّغويّة. تُعدّ المعاجم العبريّة – العربيّة أولى المعاجم المقارنة في العروبيّات (السّاميّات). وذلك كان نتيجةً لِواقعِ يهودِ الأندلس والغرب الإسلاميِّ، فَلُغَتُهم العلميّة هي العربيّة، ولغة كتابهم المقدّس والتّلمود هي العبريّة والآراميّة، والآراميّة أمّ للسّريانيّة، وقد عاشوا ينتقلون بين إسبانيا المسلمة والمسيحيّة، إمّا لأعمالهم التّجاريّة أو للمهام الدّبلوماسيّة الّتي كلَّفهم بها أصحاب السّلطان أو لأسباب غير ذلك، فكان لابُدَّ من أنْ يستعملوا اللُّغات القشتاليّة واللّاتينيّة، بل عاش جلُّهم في أرض المغارب فاتَّصلوا باللّغاتِ الأمازيغيّة، فلاحظوا علاقة القربى والتّآخي في الأخوات العروبيّات–الحاميّات، والتّباعد بينهما وبين اللّاتينيّات. ولذلك كانت هذه المعاجم، خصوصًا معجم يهودا بن قريش، وأبي الوليد بن جناح، وإسحق بن برون، وداوود الفاسيّ، معاجمَ مقارنة بالغة الأهميّة والغنى.

٤ ـ إنّ هذه المعاجم، وخصوصًا المذكورة أعلاه، لم تتّخذ العربيّة لغة تفسير وشرح ومقارنة وحسب، لكنَّها اتَّسعت في المجالات الحضاريّة العربيّة الإسلاميّة، فَنقلَت الكثير من الشّعر العربيّ جاهليّة ومخضرمة ومولّدة، والكثيرَ من الأمثال والأقوال السّائرة العربيّة جاهليّةً وإسلاميّةً، بل منها الّذي استشهد بالقرآن والحديث على صحّة لغة التّوراة، مثل معجم ابن برون الموازنة.

٥ـ إنّ أمّهات هذه المعاجم، خصَّصَتْ قسمًا للنّحو وقسمًا للمعجم، مثل تنقيح ابن جناح، وموازنة ابن برون.

٦ ـ لم يخْلُ التّأليف المعجميّ اليهوديّ في هذه الفترة، من الرّوح العقائديّة المذهبيّة الّتي اعتبرت اللُّغةَ روحَ الوحي، والفعلَ مسلَكَ الإدراكِ والفَهْمِ. فانتقلَ الخِصامُ مِنْ عددِ حروفِ الجذرِ إلى الأَزَمات السّياسيّةِ داخلَ الطّائفةِ ولدى ذوي النَّهي والأمر، ثُمَّ أصبحَ جَدَلًا فلسفيًّا في كتبِ فلاسفةِ العصرِ الوسيطِ اليهود مثل ابن ميمون ويهودا اللّاوي وابن وقار وابن جرسون وغيرهم.

ومادّة كلّ هذه غنيّة جدًّا يمكنُها أنْ تُضيفَ الكثيرَ إلى المعجمِ التّاريخيِّ لِلُّغةِ العربيّة.

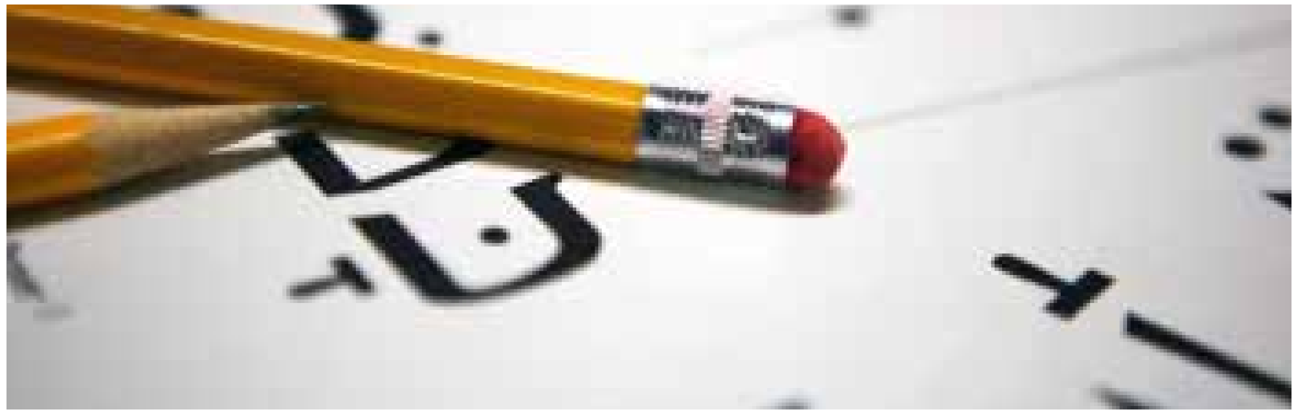

نَفْيُ الفِعْلِ الماضي

محمّد يحيى بن محمّد بن احريمو

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ وصلّى اللهُ على نبيِّه الكريمِ

حروف المعاني أو الأدوات أو العوامل، مصطلحاتٌ أطلقَها النُّحاةُ على الأدواتِ ذواتِ الدّلالات المعيَّنة، والوظائف المختلفة معاني وإعرابًا، وقد اهتمَّ معربو القرآنِ قديمًا بِتِلْكَ الأدواتِ تحتَ عناوين معاني القرآنِ وإعرابِه، كما اهتَمَّ علماءُ البلاغةِ قديمًا وحديثًا بِنكتِها، وقد قرَّروا أَنَّ كُلَّ أداةٍ تدخلُ على معيَّن دخولًا أصليًّا لا يُعدَلُ عنهُ إلّا لمزيدِ معنًى أو نُكتةٍ بلاغيَّةٍ، وهذا المقالُ يرصدُ المعاني المترتِّبةَ على العدولِ عنْ نَفْيِ الفعلِ الماضي بالحرف «لا»، إذْ منَ المعروفِ لدى العلماءِ أنَّ الفعلَ الماضي يُنفى بالحرف «ما» إلّا في حالات محصورة يُنفى فيها الماضي بـ«لا»، وذلك:

١- إذا تكرَّر فَيَجوزُ نَفْيُ الثّاني فقط بـــ(لا) نحو قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]

وهذا أكثرُ وأشهرُ، ويجوزُ نَفيُهُما معًا بها نحو قولِه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]

وكذلك يجوزُ إبقاؤهما على الأصل نحو: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النّجم: ١٧].

٢- أو إذا كان في سياق الدّعاء نحو قول ذي الرّمّة:

أَلا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ على البِلَى
وَلا زالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

٣- أو إذا كان في سياق القَسَم مثل قول الشّاعر:

حَسْبُ المحبّينَ في الدُّنيا عذابُهُمُ
تاللهِ لا عَذَّبَتْهُمْ بَعْدَها سَقَرُ

وفيما عَدا هذه المواضع فإنَّ الماضي يُنفى بحرف «ما» مِثْلَ قولِه تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]

وأمّا «لم» وبقيّة أدوات النّفي فلا تدخل على الماضي أصلًا.

ويَبْقى السُّؤال عن نكتة عدول العرب عَنْ نَفْيِ الماضي بـ(لا) ولماذا قصروه على «ما» إلّا في حالة التّكرار؟ والجواب أنَّهم فَعَلوا ذلكَ التزامًا بِوَظيفةِ كُلٍّ منَ الحرفَينِ «ما» و«لا» في دلالَتِهما على «توقيت» الفعلِ المنْفِيِّ. ذلكَ أنَّ الأداة «لا» موضوعةٌ لِنَفْيِ الاستقبالِ أصالةً، ولِنَفْيِ الحالِ أحيانًا فَلِذلِكَ قَصَروها على نَفْيِ الفعلِ المضارعِ الّذي هو موضوعٌ أَصْلًا للحالِ والاستقبالِ. بخِلافِ «ما» فَهِيَ لِنَفْيِ الفعلِ في الماضي أصالةً، ويُلحَقُ به الحالُ أحيانًا فَلِذلِكَ كانتْ أنسَبَ لِنَفْيِ الماضي دون «لا» فإذا جاءَ الماضي بمعنى الاستقبال صارَ لهُ حُكْمُ المضارعِ، ولهذا جازَ دخولُها على الفعلِ الماضي في سياقِ الدُّعاءِ والقَسَمِ لِتَعَلُّقِهِما بالمستقبلِ فَهُما بمنزلةِ المضارعِ؛ لأنَّ المدعوَّ به والمقْسَمَ عليه فعْلٌ مستقبَلٌ، كما سَيَأتي مُفصَّلًا.

وقد أشارَ بعضُ النُّحاةِ إلى هذا الجواب ومِنْ هؤلاءِ الإمامُ الزَّجّاجيّ في «معاني الحروف» حيث قال: «لا: نفيٌ للمستقبلِ والحالِ، وقبيحٌ دخولُها على الماضي، لئلّا تشبِهَ الدُّعاءَ؛ ألا تَرى أنَّكَ لو قلتَ: لا قامَ زيدٌ، جَرَتْ كأنَّكَ دعَوْتَ عليه؟»[١]

وقد ذَكَرَ السُّهَيليُّ في (نتائجِ الفِكْرِ) نحو ما تقدَّم عن الزَّجاجيّ ثمّ قال: «ووجه آخر، وهو أن «لا»يتوهَّم انفصالها ممّا بعدها، إذْ قد تكونُ نافيةً لِما قبلَها ويكونُ ما بعدَها في حُكْمِ الوُجوبِ، مِثْلَ قولِه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١]

وحتّى لقد قيل في قَولِ عمرَ -رضي الله عنه-: «لا نَقْضي ما تَجانَفْنا فيهِ لإثم»: إن «لا» ردع لما قبلها، و«نقض» واجب لا نفي... لعمري إنّ في لفظِها إشارة لهذا المعنى، حيثُ كانَ بعدَ اللّامِ فيها صوتٌ مَديدٌ يَنْقَطِعُ في أقصى الحلقِ، راجعٌ إلى خلفِ مخارجِ الحروفِ، بخِلافِ«لم» فإنهَّا مشاركة لـ «لا» في «اللام» المفتوحة كما هي مشاركة لها في النّفي. ثمَّ فيها «الميم» وصوتها بين يدي الفم، ليكون هواء الكلمة إلى ما بعدها، ومعناها فيما يتَّصلُ بها لا فيما وراءها، كما كان ذلك جائزًا في «لا» والله أعلم» [١]

وبالرُّجوعِ إلى الحالاتِ الّتي يجوزُ فيها دخول «لا» على الماضي نَجِدُ أنَّها متمحّضةٌ للاستقبال، وذلك أنَّها تدخُلُ عليهِ إنْ قَصَدَ به الدّعاء، والدُّعاء متعلِّقٌ -طبعًا- بالمستقبل مثل البَيتِ المتقدّم:

أَلا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ على البِلَى
وَلا زالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

وكذلك تدخُلُ عليهِ في سياقِ القسَمِ، وهو متعلّق بالمستقبلِ

أيضًا، إذْ لا يقعُ الماضي بعد «لا» إلّا في القسَم على أمرٍ لمْ يقعْ بعدُ مثل: «والله لا دخلت دار زيد» بمعنى لَنْ أدخُلَها. ولا يكون في القسَم على الماضي بل تقولُ حينئذ: «والله ما دخلْتُ دارَ زيد».

ومعروفٌ أنَّ الاطّراد والانعكاس مِنْ أهَمِّ الأماراتِ الّتي يُستدَلُّ بها على العلّة، وأمّا في نحو قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]

فقد جعلوا التّكرارَ قرينةً على إرادةِ الماضي، وصرْفِ الفعلِ عنِ الدُّعاءِ والاستقبالِ فصارَتْ «لا» بمعنى «لم»، وذلك واضحٌ خاصّةً إذا نفي أوّل الفعلَين بـ(ما) كما هو الأكثر، فإنَّ نفيَهُ بها يكونُ قرينةً على إرادةِ النّفي في مدخولِ «لا» الواقعِ بعدَه، فقد جعَلوا التّكرار قرينةً على إرادةِ الماضي فصارت «لا» بمعنى «لم».

وقد خرجَتْ عَنْ هذهِ القاعدةِ مواضعُ قليلةٌ دخلَتْ فيها لا على الماضي، واعتبرها أغلبُ النُّحاةِ مِنَ الكلامِ الشّاذِّ الّذي يُحفَظُ ولا يُقاسُ عليه، ونقلَ البغداديُّ في «خزانة الأدب» عن ابن يعيش وابن الشَّجريّ أنّهما مالا إلى اعتباره مِنَ القليلِ النّادر، قال: «ذهب ابن يعيش إلى أنَّ نفيَ الماضي بـ(لا) قليل وهي معه بمعنى (لم) سواء تكرَّرَتْ أم لا، ومثل بالآيتين والبيت ثمَّ قال: حملوا (لا) في ذلك على (لم) إلّا أنهم لم يُغيِّروا لفْظَ الفعلِ بعد (لا) كما غيَّروه بعد (لم)؛ لأنَّ (لا) غير عاملة و(لم) عاملة فلذلك غيَّروا لفظ الفعل إلى المضارع ليظهر فيه أثر ذلك؟ وكذلك قال ابن الشَّجريّ في أماليه ولم يُقيِّدْهُ بقِلَّةٍ إلّا أنَّه قال: وأجوَدُ ما يجيءُ ذلكَ مُكرَّرًا. وهذا ليس بشيءٍ لاقتضائه جوازَه قياسًا. والجيّد قولُ ابن هشام في المغْني: إنَّ ترْكَ التّكرار شاذٌّ» [١].

والشّواهد الشّاذة الّتي وقَعَ فيها الماضي منْفيًا بلا هي قول طرَفة:

وَأَيُّ خَمِيسٍ، لا أَتَانَا نِهَابُهُ؟
وَأَسْيافُنَا مِنْ كَبْشِهِ تقطرُ الدِّمَا

وقول أبي خراش الهذليّ:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَيُّ عَبْدٍ لكَ لا أَلَمَّا؟

وقول شهاب بن العيف:

لاهُمَّ إنَّ الحارثَ بْنَ جَبَلَهْ
زَنَا على أبيه ثُمَّ قَتَلَهْ
وَرَكِبَ الشَّادِخَةَ المُحَجَّلَهْ
وكَانَ فِي جَارَاتِهِ لا عَهْدَ لَهْ
فَأَيُّ أَمْرٍ سَيِّءٍ لا فَعَلَهْ؟

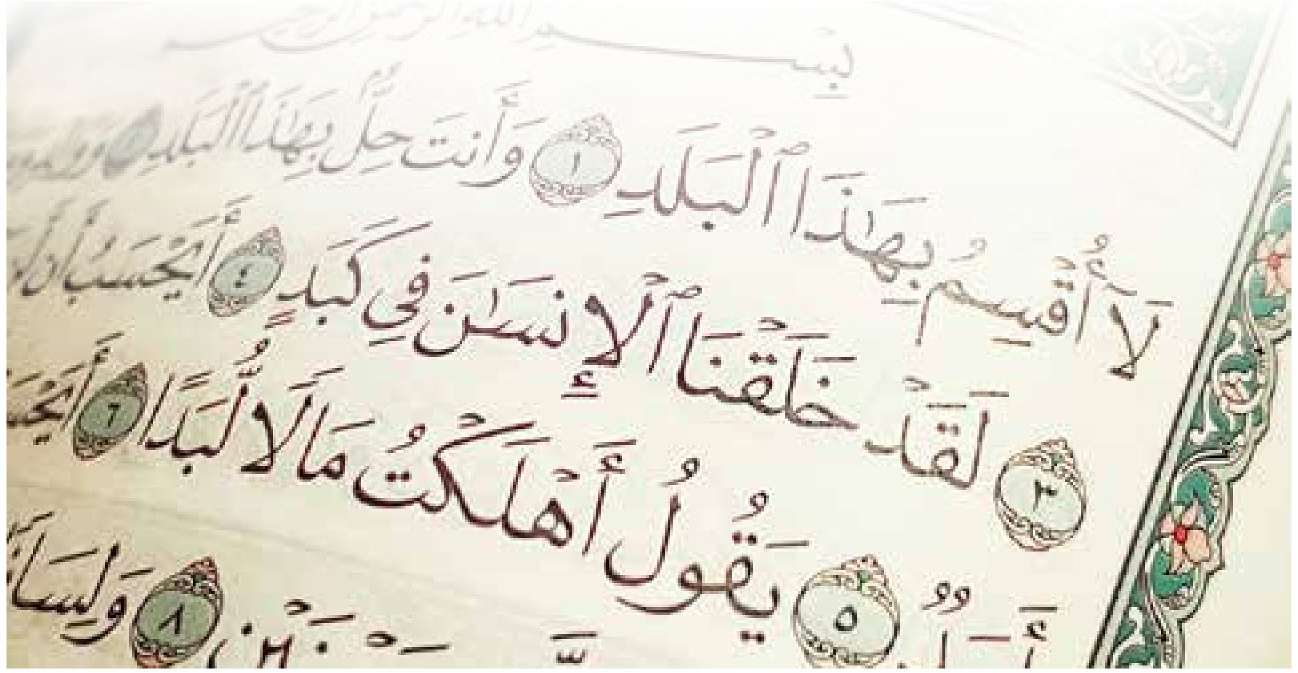

وقول الأعشى:

وَأَيَّ بَلاءِ الصِّدقِ لا قَدْ بَلَوتُمُ
فما فُقِدَتْ كانت بَلِيَّةُ مُبتَلي

وقدْ وقَعَ نفيُ الماضي بحرفِ «لا» في هذه الشّواهد كلّها في سياق الاستفهام بـ«أيّ»، وفي سياقِ استفهامٍ إنكاريٍّ بمعنى النّفي؛ ولا شكَّ أنَّ اطّراد ذلك مع «أيّ» لم يقع اتّفاقًا، بل هو لِنُكتةٍ خاصّة. ويظهر لي أنَّ النّكتةَ في ذلك لِرفعِ اللّبسِ المتوهّمِ لأنَّ الفعلَ لو نفي بما في هذه السّياقات لأوهَمَ أنَّ «ما» موصولةٌ وليست نافية، وأنَّ الاستفهامَ للتّهويلِ والتّعظيمِ فلو قال الشّاعر: «وأيّ خميسٍ ما أتانا نهابُه» لأوهَمَ أنَّهُ يَستعْظِمُ أمْرَ الجيشِ الّذي أتاهم نهابُه، فيكونُ كقَولِ الشّاعر:

أَضاعوني وأَيَّ فَتًى أَضاعوا
لِيَومِ كَرِيهَةٍ وَسِدادِ ثَغرِ

وذلكَ خلافُ المقصود، وكذا يُقالُ في قول الشّاعر:

وأيُّ فعْلٍ سَيِّءٍ لا فَعَلَه

فلو قيل «ما فَعَلَه» لأوهَمَ أنَّ ما موصولة، والاستفهام للتّعظيم والتّهويل، وهو خلاف المقصود عند الشّاعر، إذْ مقصودُه أنَّ المهجُوَّ لَمْ يترُكْ فعْلًا سيِّئًا إلّا أتاه.

وكذلك يُقالُ في بَيتِ الأعشى، وهو محتمل في الشّاهد الرّابع أعني قوله:

وأيُّ عَبدٍ لكَ لا أَلَمّا؟

بجَعْلِ ما الموصولة بمَعنى «من» وهو واردٌ في الكلام الفصيح.

فالظّاهرُ أنَّ العربَ دأبوا على نَفْيِ الفعلِ الواقعِ بعدَ «أيّ» الاستفهاميّة بـ«لا»، لإزالة اللّبْسِ المتوهَّم لو نُفِيَ الفعلُ بـ(ما)، وهذه النُّكتةُ إنْ صَحَّتْ مِنْ إعجازِ العربيّةِ العجيب، ولمْ أرَ مَنْ تنبَّهَ لها وأنا أعرضُها هنا للتّصحيح، فإنْ كانتْ صحيحةً فمِنْ توفيقِ الله وفضْلِه وإلّا فهيَ تخليط من محلّه.

ومثْل هذه النُّكتة كثيرٌ في القرآن وفي كَلام فُصَحاء العرب؛ قال السّيوطيّ في الإتقان في كلامه على نكتِ إقامةِ الظّاهرِ مقامَ الضّمير: «ومنها: إزالة اللَّبْس حيث يوهم الضّمير أنَّه غير الأوّل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ ﴾ [آل عمران: ٢٦] لو قال: «تؤتيه» لأوْهَمَ أنَّهُ الأوّل قاله ابن الخشّاب ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦] لأنَّه لو قال: «عليهم دائرتُه» لأوهَمَ أنَّ الضّمير عائدٌ إلى الله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف: ٧٦]

لم يَقُلْ «منه» لئَلا يُتوهَّمَ عَوْدُ الضّميرِ إلى الأخ فيَصيرُ كأنَّه مباشر بطَلَب خُروجها وليس كذلك لما في المباشرة من الأذى الذي تأباهُ النُّفوسُ الأبيَّةُ فأُعيدَ لفظُ «الظّاهر» لنَفي هذا ولم يَقُلْ: «مِنْ وعائه» لئلّا يُتوهَّمَ عَوْدُ الضّميرِ إلى يوسُف؛ لأنَّ العائدَ عليه ضمير «استخرجها» [١]، وأصْلُ هذا الكلام للزّركشيّ في البُرهان، والنّكتة المذكورة هي الّتي ألْغَزَ بها العلّامة البارع سيدي عبد الله بن محمّد بن القاضي العلويّ الشّنقيطيّ لأهل فاس في أبياته المشهورة الّتي أوّلها:

شُيوخُ البَيانِ الذّائقينَ حَلاوَةً
مِنَ العِلمِ لَمْ تُطعَمْ لِغَيْرِ ذَويهِ

أبي العباس المبرّد

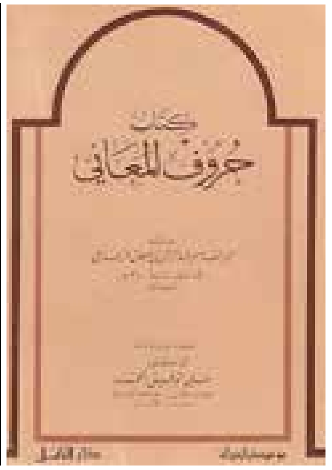

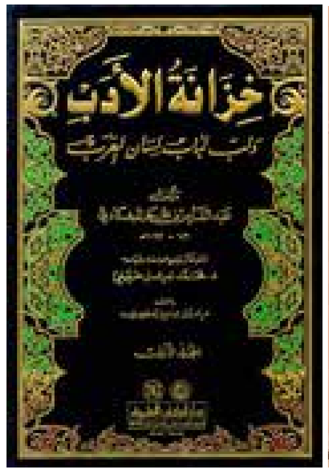

إلى أَنْ يقول:

أُسائِلُكُمْ ما سِرُّ إظهارِ ربِّنا
تَبارَكَ مَجْدًا مِنْ وِعاءِ أَخيه

وأجابَهُ الشَّيخُ محمّد اليدالي –رحمهم الله– جميعًا بِقَصيدتِه المشهورَةِ كذلك[١].

ومن المواضع التي وقع فيها الفعل الماضي مَنْفيًّا بـ (لا) قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١١–١٧]

وقد تَكلَّمَ العلماءُ في توجيهِ ما وَقَعَ في هذه الآية، مِنْ دخولِ لا النّافيةِ على الماضي فَقالَ بعضُهم: إِنَّ وَجْهَ ذلكَ أَنَّ آخرَ الكلامِ دالٌّ على تَكَرُّرِ النَّفيِ، فَيَجوزُ أَنْ يكونَ قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قائمًا مقامَ التَّكريرِ، كأنَّهُ قالَ: فَلا اقْتَحَمَ العَقبَةَ، ولا آمَنَ. وقالَ المبرّد وأبو عليّ الفارسيّ: إِنَّ (لا) هُنا بمعنى لم، أيْ: فَلَمْ يَقْتَحِمِ العَقَبَةَ، ورُوِيَ نحو ذلك عن مجاهد، فَلِهذا لَمْ يحتَجْ إلى التَّكرير... وقيل: هو جارٍ مجرى الدُّعاءِ كَقَولهم: لا نَجا. قالَ أبو زيد وجماعةٌ من المفسّرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الّذي بمَعنى الإنكار، تقديرُه: أَفَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ، أو هَلّا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ[١].

ولعَلَّ ممّا يُضافُ للأَوجُهِ المتقدِّمَةِ مع وَجاهَتِها، أَنْ يُقالَ: إِنَّ الإتيانَ بـ (لا) هنا قَدْ يكونُ لأَجْلِ رفْعِ اللَّبْسِ والتَّوهُّمِ كما في الأمثالِ السّابقةِ، ولكنْ مِنْ وجهٍ آخر؛ وذلكَ أَنَّ قولَه تعالى ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١] جاءَ بعدَه قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢] فلو نُفِيَ الماضي بأداة النّفي «ما» لَتوَهَّمَ السّامِعُ أَنّ «ما» في قوله –جَلَّ مِنْ قائلٍ–: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ نافيةٌ أيضًا، وهو خِلافُ المقصودِ؛ إِذْ هيَ في الواقعِ استفهاميَّة؛ والاستفهامُ للتَّنويهِ والتَّشويق؛ فَلِهذا السَّبب عَدَلَ عن النَّفْيِ بـ (ما) إلى النَّفيِ بـ(لا) رفعًا للَّبْسِ نظير ما تقدَّمَ في الأبياتِ المتقدِّمةِ والله أعلم، وممّا يوضِّحُ ذلك أنَّه لو نُفِيَ الفعلُ (اقتحم) بـ(ما) لم يمنع ذلك كَون (ما) في قوله سبحانه ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ نافيةً لجَوازِ أَنْ يكونَ على حَدِّ قولِه سبحانه: ﴿ما زاغَ البَصَرُ وَما طَغى﴾ فَيَجوزُ نَفْيُ ثاني الفِعْلَينِ بـ (ما) ولا يتعيَّنُ دخولُ (لا) كما أسلفنا.

وممّا يُناسِبُ المقامَ أَنَّ مِنَ الأَخطاءِ الشّائعةِ في لُغةِ الصّحافةِ اليوم نَفْي الفِعلِ «زال» بـ(لا) فيقول: «لا زالَ المشهدُ مستمِرًّا» ونحو ذلك. والغريبُ أَنَّ هذا الخَطَأَ الواقعَ في لُغةِ الصّحافةِ اليوم كثيرُ الاستعمال في «لُغةِ الفُقهاءِ» مُنذُ القِدَم فَنَجدُه في كلامِ الإمامِ عبد الله بن وهب في جوابٍ له في المستخرجةِ يقولُ فيه : «وإنْ كانَ الأبُ يجري لها النَّفَقَةَ (لا زال يتفقَّدُها) ويرسلُ إليها بما يُصلِحُها حتّى تُؤمنَ عليها الضّيعة، فَلا يجوزُ لأحدٍ: إمام ولا غيره ، أن يَفْتاتَ على أبيها بإنكاحِها إلّا بإذنِه ورِضاه» [١] وهوَ كثيرٌ كذلكَ في شروحِ مختصر خليل وغيرها مِنْ كتبِ الفقهِ وغيرِها. والفَصيحُ ما زالَ كما قدَّمْنا.

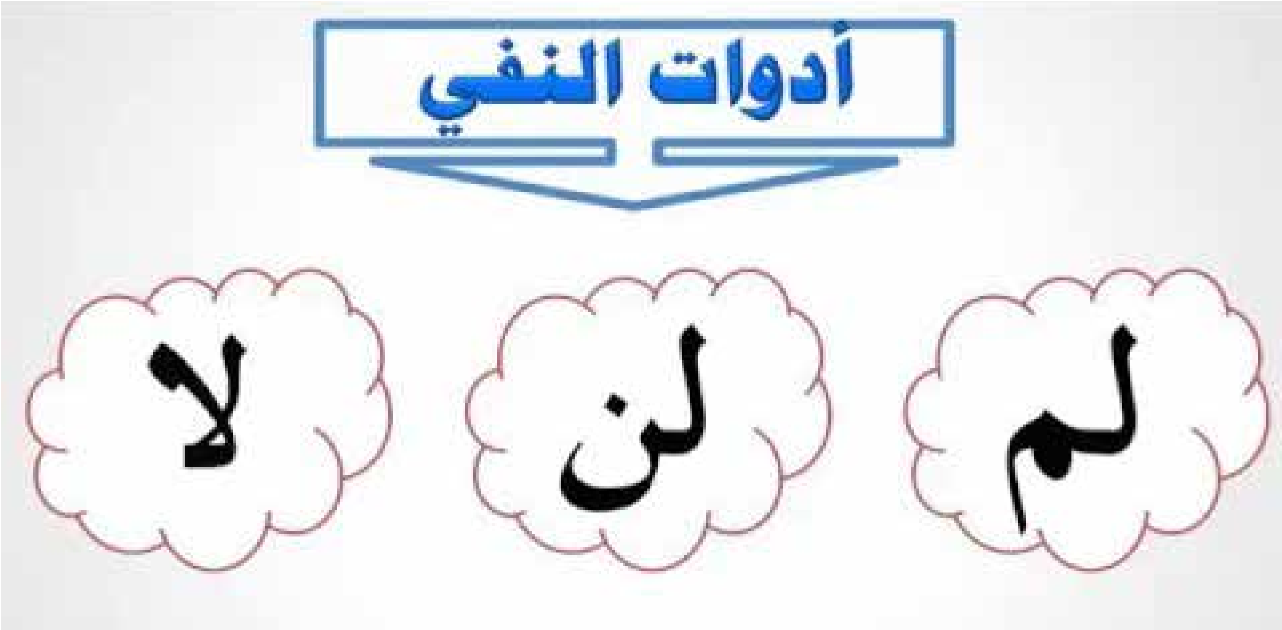

وبعدُ فإنَّ هذه النّكت مِنْ مكنونِ جواهرِ الفصاحةِ والبيانِ النّادرةِ في هذه اللُّغةِ الشَّريفةِ الّتي لا ينضَبُ مَعينُها والله أعلمُ حيثُ يجعَلُ رسالاتِه وهو الموفّق والهادي إلى سواء الطّريق.

المراجع:

١– حروف المعاني والصفات، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ) المحقق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت
الطبعة: الأولى، ١٩٨٤م

٢– نتائج الفكر ١١٠ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢ه

٣– خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرةالطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م

٤– البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (المتوفى: ٥٢٠هـ) حققه: د محمد حجي وآخرون، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٥– فتح القدير للشوكاني ٥/ ٥٤١ ط دار ابن كثير ١٤١٢ه

٦– الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين. طبعة الخانجي.

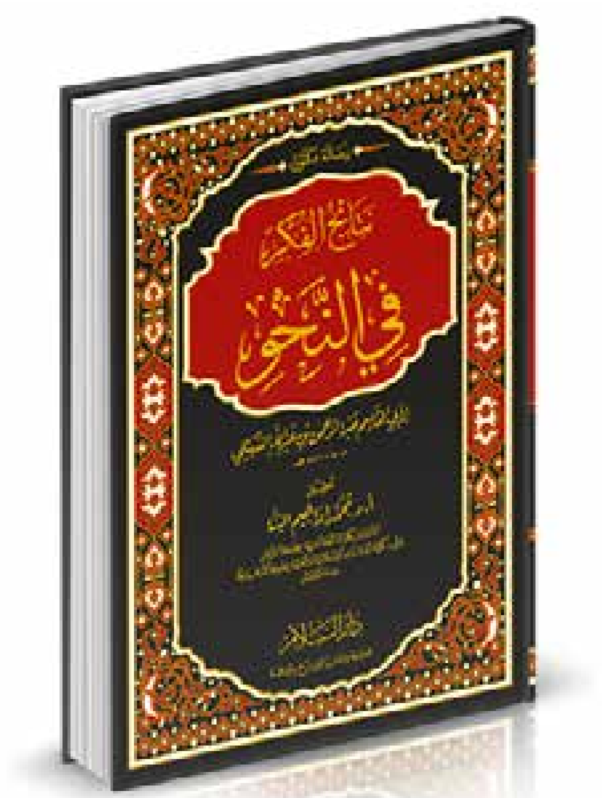

الجسد في اللغة

أ. شيماء عبد الغفور
مجمع اللغة العربية بالشارقة

يحدث أن نقف أمام كيانات مادية ومجردة فنشرع بوصفها، وكأننا نصف في الواقع أجسادنا نحن، فللجبل رأس، وللباب يد، وللطاولة رجل، وللحقيقة كبد، وللحال لسان، وبهذا يقف الإنسان أمام العالم وكأنه يقف أمام مرآة تعكس جسده بما يضمه من وجود بيولوجي وخواص حركية تخترق الفضاء ويضاف إلى ذلك ما يتمتع به من شكل وخصائص وأجزاء[(١)] وصولًا إلى الوظائف التي تؤديها تلك الأجزاء، وهنا يصف سعيد بنكراد الكل بالجزء بقوله: «الجسد لسان»[(٢)]، فالجسد كيانٌ واحد متكون من مجموعة أجزاء (أعضاء) لا تنفصل عن بعضها، ولكل منها خواص مميزة شكلًا ووظيفة وموقعًا، وبناءً على ما تقدم، فإننا نباشر هذا العالم بوصفه مكونًا من كيانات تشبهنا وتتحد فيها أجزاؤها لتكون (كُلّها).

(١) يُنظر: جحفة، عبد المجيد، دراسات دلالية في اللغة العربية، دار توبقال، الدار البيضاء، ٢٠١٨م، ١٥٦.
(٢) بنكراد، سعيد، الجسد اللغة وسلطة الأشكال، مجلة علامات، مكناس، ع٤، ١٩٩٥م، ٥٨.

وبهذا يكون الجسد مولدًا لسلسلة «لا متناهية من الدلالات انطلاقًا من تنوع الأنماط الصانعة لكينونته»[(١)]، ويتجاوز الجسد وجوده التشريحي في اللغة، إلى وجود يعكس الذهن الكائن فيه، والفكر الذي يصفه كل من لايكوف وجونسون بـ(المتجسد)[(٢)]، وذلك انطلاقًا من كون اللغة مترجمة لتصوراتنا وإدراكاتنا ومعرفتنا بالعالم الخارجي، ولأن «كل معرفة تبدأ بالتجربة»[(٣)] فإن جل معارفنا تنشأ في حقل الجسد حيث تكون انطلاقة تجاربنا مع العالم الخارجي وتفاعلاتنا الداخلية التي تُنشئ تجاربنا مع عوالمنا الداخلية المتمثلة بالمشاعر والأفكار وحتى الإحساس.

والجسد بوجوده الطوبولوجي والوظيفي يتماهى مع العالم، ويشكل هو بذاته فضاءً يتخذ فيه كل جزءٍ موقعًا، ليكسب الجسد (كلًا وأجزاءً) سُلطة مُموقعة ذات أبعاد ثلاثة: بعد عمودي، وبعد أمامي، وبعد جانبي[(٤)]. والواقع أن السلطة المُموقعة التي تمتلكها أجسادنا تتجلى في ثلاثة جوانب: أولها في رؤيتنا لمواقع الكيانات الخارجة عنا بالنسبة إلى أجسادنا، وثانيها في رؤية مواقع أجزاء تلك الكيانات بالنسبة إلى كلِّها (قياسًا على أجسادنا وأجزائها)، وثالثها في تحول المكان إلى مكانة بفعل تفاعل الفيزيائي مع الثقافي (مثلًا: العقل فوق، الجسد تحت)، فالحضارة الإنسانية «والمعارف إنجازات الجسد، واستمرار له، وتصورات وإسقاطات وإبدالات عن أعضائه وأمنياته واحتمالاته[(٥)]» ولئن كانت أجزاء جسدنا الخارجية واقعة ضمن نطاق رؤيتنا وهي بالتالي واقعة بالضرورة ضمن نطاق إدراكنا، وهذا ما يجعلها حاضرة بقوة في اللغة، وتحديدًا في وصفنا للكيانات الخارجة عن أجسادنا من خلال اللغة، بيد أن أجزاء جسدنا ليست كلّها مرئية ولا يمكننا رؤيتها مباشرة في جسد الآخر، وبحسب ما يرى ميرلوبونتي في فلسفته عن العلاقة بين الجسد والإدراك، فإن ما يكمّل «اللامرئية هو الوعي لديّ عن جسدي[(٦)]»

إن وصف اللغة لأجزاء الجسد الداخلية لم يبدأ مع بدايات علم التشريح بيد أنه قد تطور بتطوره، نظرًا لما تحمله اللغة من قدرة على مواكبة ما يستجد في وعينا ومعارفنا، فاللغة التي تعطينا صورةً طبقيةً محوريّةً مبسطة لأجسادنا إنما تعكس إدراكنا لما يضمه الجسد من الداخل، إن لدينا خبرة حسية حقيقية مع أجسادنا من الداخل، فكما أنه بوسعنا معرفة موضع الجرح قبل النظر إليه من خلال الألم الذي نشعر به، فإن مشاعر الفرح والحزن والقلق والألم وما يرافقها من إحساس فإنها كما تُعاش تنسب إلى مكانٍ معين من الفضاء الواقعي داخل أجسادنا حيث توجد شروطها التجريبيَّة[(٧)]، يضاف إلى ذلك كل عضو داخلي لدينا بدءًا من إحساسنا بقلوبنا تنبض في صدورنا مرورًا، بما تصدره معدتنا من أصوات ترافق الجوع وحتى شعور الأم بجنينها المخفي يتحرك في رحمها، وكان لابد لكل هذه التجارب أن تُرصد في اللغة وبها.

ولعل كل هذه الأحاسيس والمشاعر، والآلام الداخلية التي لم يكن الإنسان القديم يعرف مسبباتها كانت محركًا لفضوله نحو ما يضمه هذا الجسد في بعده الداخلي أكثر، ومع ذلك فإن التطور المبكر لمعرفتنا الحقيقية بما يضمه الجسد في داخله من أجزاء جعل ظهور أسماءٍ تصف تلك الأجزاء ضرورة ظلت تتطور حتى يومنا هذا، والواقع أسماء أجزاء الجسد الداخلية ترتبط مع العالم بعلاقة تبادلية، فنجد بعض الأجزاء التي نستعمل الألفاظ الدالة عليها لوصف كيانات متنوعة في العالم الخارجي المادي والمجرد وبغض النظر عن الأسبقية التاريخية فإن معناها القاعدي متصل بجسد الإنسان، بعكس أجزاءٍ أخرى استُعيرت لها أسماء من العالم الخارجي لوصفها كالحبل الشوكيّ مثلًا، إن ما تقدّم يعاضد الاتصال الوطيد المستمر بين اللغة وتجربة الإنسان مع جسده والعالم وعلى استمرارية تطورها بحسب ما تتطلبه المعرفة من خلال الآليات الإدراكية المتنوعة.

(٣) نفسه، ٤٩.
(٤) يُنظر: لايكوف، جورج، وجونسون مارك، الفلسفة في الجسد، الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٦م. ٣٧.
(٥) Husserl, Edmund, Recherches logiques, I,trad.par Hebert .Elie, PUF, Paris, 1962, 81
(٦) يُنظر: جحفة، عبد المجيد، دراسات دلالية في اللغة العربية، ١٥٦.
(٧) زيعور، علي، نحو نظرية عربية في الجسد والإنسان، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع٥٠، ٥١، ١٩٨٨م، ٣٤.
(٨) سباع، محمد، تحولات الفينومنولوجيا المعاصرة: مرلو بونتي في مناظرة هوسرل وهايدغر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٥م، ١٤٣.
(٩) ميرلوبونتي، موريس، ظواهريّة الإدراك، ترجمة: فؤاد شاهين، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ٢٣٧-٢٣٨.

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المدينة الجامعية – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

مبنى مجمع اللغة العربية – الدور الأول

هاتف : +971 6 51 60 400 ، فاكس : +971 6 51 60 410 ، ص.ب : الشارقة ، 1973

البريد الإلكتروني : info@alashj.ae ، الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

مركز اللسان العربي

FREE Arabic Courses

for **Non-Arabic Speakers**
at Arabic Language Academy

CONTACT US

00971 6 516 0400 \ 00971 6 516 0401

Sharjah ,Arabic Language Academy

info@alashj.ae R.abujuhain@alashj.ae

www.alashj.ae